معارضة ابن أبي الخِصال لـ (ملقى السبيل) للمعري تحقيق ودَرْس ...

د . أيمن محمد ميدان(*)

ثمَّة مشروعٌ بحثيٌّ كبير أقدمتُ على البدء في إنجازه منذ عشر سنوات تصرَّمت ، تجلَّى في تعقُّبِ ملامح الحوار الأدبي بين المشرق والأندلس أخذًا وعطاء ، وكان لي - في هذا الإطار - بعضُ الدراسات المنجَزة ، اقتربت فيها من المتنبي (ت٣٥٤هـ) والمعرِّي (ت٤٤٩هـ) ضيفين أثيرين على الحياة الأدبية الأندلسية ، راصدًا تجلياتهما على مبدعي الأندلس كُتّابًا وشعراء .

ثم رصدتُ جانبًا من جوانب نضج الشخصية الأندلسية ، من خلال تلقِّيها للنصِّ الشعري المشرقي روايةً وتوثيقًا وشرحًا ونقدًا ، وما أحرزتْه من تفرُّدٍ ، عندما أقدمتْ ثُلَّةٌ من الكُتّابِ الأندلسيين على ارتياد آفاق المعارضات الأدبية ، فكان لهم معارضاتٌ داخلية (أندلسية) وأخرى خارجية (مشرقية) .

واليوم يشدني الحنينُ إلى الأندلس مرةً أخرى ، وأُراني مَعْنِيًّا بالمعري ثانية ، راصدًا أمارات تلقِّي المبدعين الأندلسيين لرسالة (مَلْقَى السَّبيل) ، حيث راحوا يعارضونها مُعارَضةً جماعيةً ، فدرستُ ما تبقى من معارضات، ملتمسًا سماتِ تأثُّرها برسالة المعري إطارًا فنيًّا ومضامينَ ، وما احتفظتْ به

(*) أستاذ الأندلسيات في كلية دار العلوم - جامعة القاهرة .

من سماتِ تميُّز . ثم حققتُ نَصَّ المُعارضتين الباقيتين لابن أبي الخِصالِ (ت٥٤٠هـ) وابنِ الأبّار (ت٦٥٨هـ) .

أولاً - سيرة ابن أبي الخِصال[١] :

صاحب معارضة (مَلْقَى السبيل) للمعرّي (ت٤٤٩هـ) هو ذو الوزارتين ، أبو عبد الله محمد بن مسعود بن خُلَصَةَ بن فرج بن مجاهد الغافقي ، المعروف بابن أبي الخِصالِ[٢] .

ينتمي ابنُ أبي الخِصالِ إلى قبيلة (غافق) ذات الأصل العربي ، وقد انتشرت ديارها في « الجوف ، في شمال قرطبة »[٣] ، وكان « أكثر جهات شقورة ينتسبون إلى غافق »[٤] .

ولد ابن أبي الخِصال في قرية (فرغليط)[٥] ، حيث قطنت أسرته ، وكانت ولادته أوائل ربيع الثاني من عام خمسة وستين وأربعمائة ، وبها نشأ ، وتلقّى علومَه الأولى ، ثم انتقل إلى قرطبة فألمرية ؛ ليكمل علومه على يد عدد من أعلامها الذّائعين ، أمثال أبي الحسين بن سراج (ت ٥٠٨هـ) ، وأبي محمد بن عَتَّاب ، وأبي علي الصَّدَفي (توفِّي في النصف الأول من القرن السادس الهجري)[٦] .

---

(١) انظر ابن أبي الخِصال سيرةً ذاتية وإبداعًا فنيًّا في: د. فوزي سعد عيسى: أبو عبد الله بن أبي الخِصال ، رئيس كُتّاب الأندلس ، الإسكندرية ، مطابع جريدة السفير ، ط١ ، ١٩٨٩م .

(٢) ابن الأبّار: المعجم ص١٤٩ .

(٣) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص٣٢٩ .

(٤) المقري : نفح الطيب ، ١/ ٢٩٤ .

(٥) فرغليط : قرية صغيرة من جهة شَقّورة ، التابعة لكورة جَيَّان ، ولم يرد لها ذكر في كتاب صفة جزيرة الأندلس .

(٦) ابن الأبّار: المعجم ص ١٢٠ ، والتكملة ص٤١٢-٤١٣ .

توفَّرت له ثقافةٌ متنوعةُ المشارب مختلفةُ الأنماط ، اعترف بها معاصروه ، فقد « كان من أهل المعارف الجمَّةِ ، والإتقان لصناعة الحديث ، والمعرفة برجاله ، والتقييد لغريبه ، وإتقان ضبطه ، والمعرفة بالعربية ، واللغة ، والأدب ، والنسب ، والتاريخ »[1] .

ولم تقف صفاتُ الرجل عند حَدٍّ ما حَصَّلَ من علوم ومعارف ، بل امتدت إليه إنسانًا ؛ فقد كان « جميلَ التواضع ، حَسَنَ المعاشرةِ لأهل العلم ، مُسارعًا لمهماتهم ، نهّاضًا بتكاليفهم ، حافظًا لعهدهم ، مُكْرِمًا لنبهائهم ، واسعَ الصدرِ ، حسنَ المجالسةِ والمحادثةِ ، كثيرَ المذاكرةِ ، جَمَّ الإفادةِ »[2] .

وقد كان لما اتَّصَفَ به ابنُ أبي الخِصال من صفات ذاتية وأدبية وعلمية كبيرُ أثرٍ في أن يحتلَّ المراتب العليا ، فكتب لابن الحاجِّ (ت ٥٠٩هـ) وولده أبي يحيى الذي لقَّبه بذي الوزارتَيْن ، وعلي بن يوسف بن تاشِفِينَ ، وقد تأثرت مكانةُ ابن أبي الخِصال بهؤلاء الثلاثة تمرّدًا وانصياعًا ، بُغْضًا ومودَّةً ، فتأرجح بين سموِّ مرتبةٍ وخمولِ ذِكْرٍ ، فراح يبكي حاله ، مشبهًا نفسه بمحمد بن عبد الملك الزّيات (ت٢٣٣هـ) وأبي مسلم الخراساني (١٠٠-١٣٧هـ) سوءَ مآلٍ ، وبالبرامكة فداحةَ محنةٍ ، فقال في تضاعيف رسالة بعث بها - منفيًّا بفاس - إلى صديق له بجَيّان[3] يدعى ابن عبادة: « الأمنية - أيَّدك اللهُ - خُدَعةٌ ، والنفس طُلَعَةٌ ، لا يردها مَظْهَرٌ تعلوه ، ولا يذودها شَجَرٌ تبلوه ... إنها لا تسأم احتمالًا ، ولا تُبْصِرُ عاقبةً ولا تحذر مآلًا ... تَعْسًا لها ، فكم من حليم سَفَّهَت ، وكريم أخجلت وجَبَهتْ ... هذه الخِلالُ ذهبت

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ٢/ ٣٨٨ ، والمقولة لأبي جعفر بن الزبير .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٤١٧ .

(٣) جيّان: مدينة بالأندلس ، بينها وبين بَيَّاسة ستون ميلاً ، من علمائها الحافظ أبو علي الجيّاني ، انظر: صفة جزيرة الأندلس ص٧٠-٧٢ .

بخَلِّهِ وخَمْرِهِ ، وأبو مسلم فرغت من أمره ! والبرامكة الصَّيدُ ، هَشيمٌ أو حَصِيد . وذاك ابنُ زَيَّاتِها ، أكلة في لهواتِها ، ومحتسبٌ في سبيل شهواتها .. »[1].

كان للمُناخ العلمي الذي نشأ ابنُ الخِصال فيه ، والحياة السياسية التي ارتقى مدارجها [2] كبيرُ أثرٍ في تنوُّع مَلَكات الإبداع لديه ، وتباين أنماطها ، فقد كان مُصَنِّفًا « له تواليفُ حسانٌ ، ظهر فيها نُبْلُه ، واستبان بها فهمه » [3] ، وصاحبَ « ديوان رسائل يدور بأيدي أدباء الأندلس » ؛ « قد جعلوه مثالًا يحتذونه ، ونصَّبوه إمامًا يقتفونه » [4] ، وكاتبَ أشعار ، فجمع بذلك بين صفتي الشاعر والكاتب ، وأضحى « إمامهما المتَّفَق عليه ، والمتحاكَم فيهما إليه »[5] .

على أن قراءة ما تبقَّى له من أشعار تدلُّ « على أنَّ حَظَّهُ من الموهبة الشعريةِ لم يكن ضئيلًا ، وإن كان لا يرقى إلى موهبته في الكتابة ؛ ومن هنا غلبت عليه صفة الكاتب على الشاعر » [6] ، وأضحى « رئيس كُتَّاب الأندلس ... »[7]. و « لم يطلق اسم كاتب بالأندلس على مثل أبي عبد الله بن أبي الخِصال » ، على حَدِّ تعبير الفقيه أبي مروان بن مَسَرَّة [8] .

---

(١) ابن أبي الخِصال: رسائله ص٣٤٤-٣٤٥ .

(٢) ابن أبي الخِصال: رسائله (مقدمة التحقيق) ص ٩-١٦ . وعيسى: أبو عبد الله بن أبي الخِصال ص٣٠-٣٨ .

(٣) ابن بشكوال: الصلة ٢/ ٥٨٩ . لابن أبي الخِصال ثلاثة كتب ، هي: سراج الأدب ، والمنهج في معارضة المبهج ، وظل الغمامة وطوق الحمامة في مناقب من خَصَّه رسول الله ﷺ بالكرامة ، إلى جانب رسالة فنّد بها مزاعم ابن غرسيه في رسالته التي فضل فيها العجم على العرب وسمّاها: لمحة البارق وقذف المارق .

(٤) المراكشي: المعجم ص٢٤٠ .

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة ٢/ ٣٨٨ .

(٦) عيسى: أبو عبد الله بن أبي الخِصال ص٢٣٧ .

(٧) ابن سعيد: رايات المبرزين ص ١٢٣ .

(٨) ابن الأبّار: المعجم ص ١٥١ .

ثمّة أخبارٌ متعددة تناولت حادثة استشهاده ، تختلف في ما بينها ملابسات وآليات [1] وإن جمع بينها أنه مات مذبوحًا بيد أحد عبيد لَمْتونةَ المتغلّبين على قرطبة ، في أثناء الحرب التي دارت بين كل من ابن حمدين وابن غانية (ت ٥٤٣هـ) ، والتي آذنت بأُفُول نجم دولة المرابطين .

وكان ذلك يوم السبت الثاني عشر من شهر ذي الحجة من سنة أربعين وخمسمائة ، حيث دفن بمقبرة ابن عباس ونُعِيَ إلى الناس ، « فكثر التفجُّع لفقده ، والتأسُّف على مصابٍ مثلِه »[2].

ثانيًا - معارضات ابن أبي الخِصال :

ثمّة عوامِلُ متعددةٌ حرَّضت على بروز المعارضات الأدبية وشيوعها لدى الكُتاب الأندلسيين ، تجلّت في ما قام به بعضُ الولاةِ [3] والنقاد [4] ومؤرّخي الأدب [5] من جهودٍ حفزتْ بعضَ الكُتّابِ على معارضة بعض النّصوص النّثرية ، مشرقيةً وأندلسيةً ، معارضةً تشفُّ عن قدرةٍ على

(١) انظر عيسى: أبو عبد الله بن أبي الخِصال ص٣٨-٤٠ ، والمصادر الواردة لديه .

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة ٢/ ٤١٦-٤١٧ .

(٣) نذكر من هؤلاء المنصور بن أبي عامر (ت٣٩٢هـ) وولده المظفر (ت٣٩٩هـ) وأبا الوليد بن جَهْور (ت بعد ٤٢٦هـ) والمقتدر بن هود (ت٤٧٤هـ) والمعتمد بن عباد (ت٤٦١هـ) .

انظر: الحميري: البديع في وصف الربيع ص ٧٨-٧٩ ، وابن بسام: الذخيرة ق٤ م١ ص٣٢-٣٣ ، والمقري: نفح الطيب ٢/ ٢٤ ، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٩ .

(٤) رأى عامر أحمد بن شُهَيْد (ت٤٢٦هـ) أن المعارضة سمة تفوق وأمارة إجادة . انظر: الحميدي ، جذوة المقتبس ص٢٧٧ . وعباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص٤٨٤ ، والشكعة: الأدب الأندلسي ص٦٤١-٦٤٢ ، والمعطاني: ابن شهيد الأندلسي وجهوده في النقد الأدبي ص٢٥ .

(٥) كان لابن بسام الشنتريني دورٌ كبير في شيوع هذا النمط من المعارضات ، فقد كان يحمل الرسائل المتميزة إلى كتّاب آخرين ، محرضًا إياهم على معارضتها . انظر: ابن بسام: الذخيرة ق١م١ ، ص ١٤٠ ، وق١م١ ، ٣٤٢ .

المحاكاة ، ورغبةٍ في التفوق ، وقد أقدموا على هذا السلوك إقدامًا جماعيًّا تارةً[1] ، أو فرديًّا تاراتٍ أُخَر ، محرِزين بصنيعهم هذا تطورًا كبيرًا حقَّقه النثر الفني الأندلسي في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، « حين شرع ... يغزو المجالاتِ التي كانت وَقْفًا على الشعر .. »[2] ، مُقيمين « الحُجّة على أنَّ من بين الأندلسيين مَنْ يوضع مع أعلام المشارقة في كفتي ميزان »[3] .

يُعَدُّ ابنُ أبي الخِصالِ أشدَّ الكُتّابِ الأندلسيين ولَعًا بالمعارضة الأدبية ، كثرةً وتنوعًا ، فقد صَنَّف كتابه «سراج الأدب» على منزع (نوادر) أبي علي القالي (ت٣٥٦هـ) و « زهر الآداب » للحُصْري القيرواني (ت٤٥٣هـ)[4] وعارض بكتابه « المنهج » كتابَ « المبهج » للثعالبي (ت٤٢٩هـ)[5] .

ولم تقف رغبةُ ابن أبي الخِصالِ عند معارضة بعض المُصَنَّفات المشرقية والمغربية ، بل امتدَّت إلى نصوص أدبية لبعض أعلام المشرق والأندلس ، فتوَفَّرَ له نمطان من أنماط المعارضة ، خارجيةٌ وداخليةٌ .

١ - المعارضة الخارجية :

شُغِلَ ابنُ أبي الخِصالِ بالنّثر المشرقي ، فراح يُعارض بعضَ نصوص أعلامه الكبار ، على اختلاف صورها ، خطابةً ورسائِلَ ومقاماتٍ ، تنتمي إلى كُلٍّ من ابن نُباتة السَّعْدي (ت٤٠٥هـ) وأبي العلاء المعرّي (ت٤٤٩هـ) والحريري (ت٥١٦هـ) ، وهاكم توضيح الأمر :

(١) انظر ميدان : معارضة ملقى السبيل في الأندلس (مجلة كلية دار العلوم ، ع٣٩ ، ٢٠٠٥م) ص ٢٦٣-٣١٧ .

(٢) علي بن محمد: النثر الأدبي الأندلسي ص٢٠٣ .

(٣) سعد شلبي: الأصول الفنية للشعر الأندلسي (عصر الإمارة) ص٢٠٧ .

(٤) المقري: نفح الطيب ٣/ ١٨٤ .

(٥) ابن خير: فهرست ابن خير ص٣٨٦ .

١/ أ- ابن نُباتة السَّعْدِي:

كان ابنُ نُباتة السَّعْدِي شاعرًا مُجيدًا ، وخطيبًا بارعًا ، جمعه والمتنبي بلاطُ سيف الدولة (ت ٣٥٦هـ) ، فأضحى المتنبي شاعره الأثير ، وابنُ نُباتة خطيبَهُ المُقرَّب ، فكان له في سيف الدولة غُرَرُ القصائد ، وفي حملاته الجهادية ديوانُ خُطَبٍ ، أجمع الناس على أنها مما « لم يُعْمَلْ مثلها في موضوعها »[١]. عارضه ابنُ أبي الخِصال (ت٥٤٠هـ) في بعض خطبه ورسائله التي كانت « تَرُوع الناسَ ، وتناقلها الأدباءُ والرواةُ » [٢] ، إذ عارضه في خطبة دينية تحضُّ على الجهاد ، وثانية في الشكر على نزول غَيْثٍ ، وأخرى في عيد الأضحى .[٣] وقد كتبها عنه ابنُ أيوب الجائز من العُدوة في الرّعيل الأول[٤] .

١/ ب- أبو العلاء المعرّي:

لقيت رسالةُ « مَلْقَى السبيل » لأبي العلاء المعري عنايةَ ثلاثةِ مبدعين أندلسيين ، هم :أبو عبد الله بن أبي الخِصال (ت٥٤٠هـ) وأبو الربيع سليمان ابن موسى بن سالم الكُلاعي (ت٦٣٤هـ) في « منابذة الأمل الطَّويل بطريقة المعرّي في مَلْقَى السَّبيل »[٥] ، وتلميذه محمد بن الأبّار القُضاعي (ت٦٥٨هـ)

---

(١) جميل سلطان: فن القصة والمقامة ص١٢٣ .

(٢) ضيف: المقامة ص٥٩ .

(٣) ابن أبي الخِصال: رسائله ص٥٦ ، ١١٩ ، ١٢٨ .

(٤) عيسى: أبو عبد الله بن أبي الخِصال ، رئيس كتاب الأندلس ، ص٣١ ، انظر المقارنة بين خطبتي ابن نُباتة وابن أبي الخِصال مضمونًا وسمات فنية ص٢١٧-٢٢٩ .

(٥) المقري: نفح الطيب ٢/ ٧٦٩ ، والبطليوسي: شرح المختار من لزوميات أبي العلاء المعري ، ص٣٦ .

في « مظاهرة المسْعَى الجميل ، ومحاذرة المرعى الوبيل في معارضة مَلْقى السَّبيل »[1] .

كان لغلبة الطَّابع الديني على ابن أبي الخِصالِ تعلُّمًا وسلوكًا ، إذ « لم يكن في عصره مثله مع دين وفضل وورع » ، وولعه بالمزج بين الشعر والنثر في ما يكتب - أثرٌ كبير في الإعجاب بهذه الرسالة ، فكان أولَ الأندلسيين مُعارضَةً لها ، وأشدَّهم تأثيرًا في مَن عارضها بعده ، لاسيما ابن الأبّار[2] .

حذا ابنُ أبي الخِصال حَذْوَ أبي العلاء المعري مضمونًا وتقسيمًا ، فدارت معارضتُه حولَ الزُّهْدِ وما يتعلَّقُ به من معانٍ جزئية ، كتحقير الدنيا ، والتذكير بالموت والحساب ، واستحضار العِظَةِ من أُمم بادت ، وأقوام فَنُوا ؛ كقوله في حرف (الزاي):

« العَجَبُ مِنْ ذي اغْترارٍ واعتزاز ، يَعْلَمُ أنَّهُ على وفاز ، وأنَّ الظُّلْمَ إلى قِصاصٍ وتَجازٍ ، وأنَّ الله بمثقال الذَّرَّة مُجازٍ ، كيف يُخالِفُ الحقيقةَ إلى مجازٍ ، ويطمحُ أَمَلُهُ والمَوْتُ مُوازٍ؟ ألا إنَّهُ في حبائِلِ المنيَّةِ ناز ، كعُصفورةٍ في مِخْلَبِ باز:

عَجِبْتُ لذي اغترارٍ واعتزازٍ — وذي سَفَرٍ أطَـلَّ على وِفـازِ
تَبَسَّطَ في الذُّنوبِ وفي الخَطَايا — ويَشْهَدُ بالقِصاصِ وبالتَّجازي
يُجـاهِرُ بالكبائِرِ عَـدْلَ رَبٍّ — على مِثْقالِ ذرّتِهـا مُجـازِ
مُنافٍ للحقيقـةِ مُسْـتَريح — إلى خُـدَعِ الإحالةِ والمَجازِ

(١) نشرها الباحث في إصدار خاص (مجلة كلية دار العلوم ، ٢٠٠٥م) . وانظر: ميدان: تأثير أبي العلاء المعري في الأدب الأندلسي (مجلة كلية الآداب ، جامعة المنصورة ، إصدار خاص ، يناير ٢٠٠١م) .

(٢) ميدان: معارضة ملقى السبيل في الأندلس (مجلة كلية دار العلوم ، ع٣٩ ، ٢٠٠٦م) .

تَخَطَّى الأرْضَ آمالًا طِـوالًا ومُهْلِكُهُ يُحاذي أو يُوازي
تُقدِّرُ وَيكَ أَنَّكَ مِنْهُ ناجٍ وإِنَّـكَ في حَبـائِلِهِ لَنـازِ
وما الإنْسانُ مَهما حَادَ عَنْـهُ سِوى عُصْفُورَةٍ في كَفِّ بازِ ![1]

كما جاراه في ترتيب مادة معارضته ، فجاءت خاضعة للترتيب المشرقي للألفبائية العربية ، محتفظًا لنفسه - رغم ذلك - بسمات تفرُّد ، تناولها الباحث في معرض دراسته لمعارضات الأندلسيين لتلك الرسالة[2] .

١/ج- الحريري:

سلكت المقامةُ المشرقية سبيلها صوبَ الأندلس ، ووجد اثنان من أعلامها الكبار من بين الأندلسيين مَنْ حذا حذوهما ، محاكاةً ، ومعارضةً ، وإنِ اختلفتْ طبيعةُ تَلَقِّي الأندلسيين لهما ، ففي الوقت الذي ظَلَّ فيه الهمذانيُ (ت٣٩٨هـ) لديهم كاتبَ رسائل وصانعَ أشعارٍ ، فعارضه كلٌّ من أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم (ت٣٤٨هـ) وابن شُهَيْد (ت٤٢٦هـ) في بعض رسائله[3] وابن عَبْدون (ت ٥٢٠هـ) في بعض أشعاره - وجدنا

(١) ابن أبي الخِصالِ: رسائله ص٣٧٦ .

(٢) انظر سمات التفرد والمحاكاة بين معارضة أبي الخِصالِ ورسالة ملقى السبيل للمعرّي في ميدان: معارضة ملقى السبيل في الأندلس ص٢٧٥-٢٩٥ .

(٣) ابن بسّام: الذخيرة ق١ ، م١ ، ص١١٧ ، ١٤٠ .

عارض أبو المُغيرة عبدُ الوهاب بن حَزْم (ت٤٣٨هـ) بديعَ الزمان الهمذاني في رسالته التي كتبها ردًا على مَنْ أبدل الزمانُ كِبَرَهُ صَغارًا ، وترفّعَهُ ضِعَةً ومهانة ، فعاد يطلب مودّة مَنْ أساء إليه ، ويستجدي حُسْنَ مَعْشر مَنْ تطاول عليه ، فقال ساخرًا: « وردتْ رقعتُكَ- أطال الله بقاءك- فأعَرْتُها طرْف التعزُّز ، ومددتُ يدَ التقزُّز ، وجمعتُ عنها ذليلَ التحرُّز ، فلم تندّ على كبدي ، ولم تَحْظَ بناظري ويدي ، وخَطَبْتَ من مودّتي ما لم أجدك لها كفوًا ، وطلبتَ من عِشْرتي ما لم أرَكَ لها أرضًا ... وتناسيتَ أيامك إذ تُكَلِّمُنا نَزْرًا ، وتلحظنا شذرًا ... » - برسالة أورد ابن بَسّام نصَّها ، فقال: « وعُرِضَتْ على أبي المغيرة رسالةُ بديع الزمان ... فعارضها برُقْعَةٍ يقول =

الحريريَّ (ت ٥١٦هـ) حاضرًا لديهم كاتِبَ مقامات .

شرَّقت مقاماتُ الحريري وغرَّبت « حتى صار ابتذالُها عَيْبَها » ووجدت من الأندلسيين مَنْ سمعها روايةً عنه ، أو عن بعض تلاميذه [١] ، ومَنْ عُنِي بشرحها كمحمد بن أحمد بن سليمان المالقي (ت ٦١٧هـ) [٢] ، وعبد الله بن ميمون العَبْدري الغَرْناطي (ت٥٦٧ هـ) [٣] ، وأبي العباس الشَّرِيسي (ت ٦١٩هـ) الذي شرحها ثلاثة شروح [٤] .

ولم يقتصر تَلَقِّي الأندلسيين لمقامات الحريري عند حَدِّ السماع

= فيها: « ورد كتابُكَ تنشُدُ ضالَّة وُدّنا ، وتَرفعُ خَلَقَ عهدِنا ، وتطلبُ ما أفاتَتْهُ جريرتُكَ إلينا ، وذهبتْ به جنايتُك علينا ، أيّامَ غُصْنُكَ ناضِر ، وبَدْرُكَ زاهر ، لا نجدُ رسولًا إليك غيرَ لحظةٍ تَخرِقُ حجابَ الدُّموع ، أو زَفرةٍ تُقيمُ مُنَآدَ الضُّلوع؛ فإنْ رُمْنا شكوَى يَنْفُثُ بها مصدورُنا ، أو يستريحُ إليها مَهْجُورُنا ، لقينا دونها أمْنَع سدّ ، وأفدحَ رَدّ » .

انظر سمات تأثر ابن حزم ببديع الزمان في: الشكعة ، بديع الزمان الهمذاني ، رائد القصة العربية والمقالة الصحفية ص١٣٦ ، والأدب الأندلسي ، موضوعاته وفنونه ص٥٨٨ ، وعلي ابن محمد: النثر الأدبي الأندلسي ص٥٤٢ .

كما عارض ابنُ شهيد الهمذانيَّ في بعضِ رسائله الوصفية ، التي تناول فيها الماء والثعلب والحلوى .... وقد تطرق د. الشكعة إليها تطرقًا واسعًا . انظر: د. الشكعة: الأدب الأندلسي ص٦٧٩-٦٨١ ، ود. زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع الهجري (دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٣٤) ج٢/ ٣١٥ . ود. شوقي ضيف: المقامة (دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٧) ص٣١ . والفن ومذاهبه في النثر العربي (دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٥) ص٣٢٢ . ود. أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة (دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٧) ص٤١٥-٤١٦ . ود. عمر موسى باشا: نظرات جديدة في غفران أبي العلاء (دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، بدمشق ١٩٨٩) ص٢٣٢-٢٣٥ . ود. حازم خضر: ابن شهيد الأندلسي ، حياته وأدبه ص ٢٠١ .

(١) ابن الأبّار: التكملة لكتاب الصلة ص٢٧ ، ٢٦٠ ، ٨٧٥ .

(٢) السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ص١١ .

(٣) ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب ١/ ١١ .

(٤) الشَّريشي: شرح المقامات الحريرية ١/ ٣-٤ .

والرّواية ، والشرح ، بل امتدَّ تلقّيهم إلى المعارضة ، فعارضها أبو طاهر السّرَقُسْطِيّ (ت٥٣٨هـ) في خمسين مقامة أنشأها « عند وقوفه على ما أنشأه - الحريريّ - ... بالبصرة »[١] مقتفيًا أثره ، فَعُرِفَ بها ، وتميز عن غيره مِمَّنْ اكتفَوْا من هذا الفنِّ بالقليل[٢] .

كان ابنُ أبي الخِصالِ أحد الكُتّابِ الأندلسيين الذين عارضوا الحريري في مقاماته ، إذ عارضه بمقامة طويلة مفرطة الطول[٣] صُدِّرت بما يَشِي بأنه « عارض بها الحريري في بعض مقاماته »[٤] .

ويتجلّى لقارئ هذه المقامة أن ابن أبي الخِصالِ حذا حَذْوَ الحريريِّ بناءً ومضمونًا ، وإنِ احتفظ لنفسه بشيء من التميز . فمضمون هذه المقامة يُشْبهُ - إلى حَدٍّ كبير - مضمون المقامتين التّفْلِيسيّة والدمشقيّة[٥] ، وبَطَلاها هما بَطَلا مقامات الحريريِّ اسمًا وحِيَلًا وغاياتٍ ، فقد اتخذ ابن أبي الخِصالِ من الحارث بن همّام راويًا ، ومن أبي زيد السُّروجيّ بطلًا ، ومن استثارة النفوس إلى البذل بالفصاحة والتذلُّل والنَّحِيب حِيلًا ، مُشيرًا لما آلت إليه حِرْفة الأدب من كساد ، وما أصاب حياة الأدباء من تَرَدٍّ ، مثال ذلك قوله على لسان أبي زيد السروجيِّ: « قد شكرتم قولًا فاشكروا طوْلًا ، وأثنيتم

(١) عوض : فن المقامات بين المشرق والمغرب ص٣٠٥ .

(٢) مصطفى: فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي ص ١٢٤-١٢٥ ، وعباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ص٢٥٤-٢٥٦ ، والداية: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ص٣٥٤ . وميدان: تأثير أبي العلاء المعري في الأندلس ص٢٠ .

(٣) ابن أبي الخِصال: رسائله ص٤٢٠ ، وقد أشار د. حسن عباس إلى أن الطول المفرط سمة من سمات المقامة في القرن السادس الهجري ، انظر: فن المقامة في القرن السادس الهجري ص٢٤٧.

(٤) ابن أبي الخِصال: رسائله ص٤٢٠ .

(٥) الحريري: مقاماته ١/ ٤٠٤ ، ولمزيد من الإيضاح يُنْظَرُ: عيسى: أبو عبد الله بن أبي الخِصال ، رئيس كتّاب الأندلس ص٢٠٨ وما بعدها .

لفظًا فاثنوا لدى البرِّ والصلة لحْظًا »[1] . ثم يرصد الحارث بن همّام وسائل أخرى من وسائل التكدّي ، تتمثل في النَّحيب واستدرار الدمع ، وما أحدثته من آثار فقال: « .. ثم جعل الشيخُ ينتحب ، ويستقيد الدمعَ فيصحب ، ولا مغيض إلا الخَيْش ، ولا داءَ إلا العيش ... فلم تَبْقَ قلَنْسُوَة .. إلا زُحْزِحَتْ ، ولا عَبْرَةٌ إلا سُفِحَتْ ، ولا مُبْهَمة من الصُّرَر إلا فُتِحَتْ ، فطَلَع سَعْدُه الغائب ، وانثالتْ عليه الرغائب ، فما شَبَّهْتُ مطرَ عطائهم إلا بمطر سمائهم ، والشيخ يَتَلَقَّفُ ولا يتوقَّف؛ ويلتقط ما يسقط ، ويدّخِرُ ولا يُؤَخِّر ... »[2] .

على أنني أسارع فأقرر أن ابن أبي الخِصال قد احتفظ لمقامته ببعض الجوانب التي تميزها ، يأتي في مقدمتها سمة الطول ، إذ جاءت مفرطة الطول، تعكس « مَيْل منشئها إلى أن يُجرِّبَ قلمه في وصف عدة مقامات » ، فهناك منظرٌ في الريف ، وآخر في بيت الحارث ، ثم ثلاث قصائد متتابعة ، ثم تفتيش عن السُّروجي ، ثم وصف للحَان ، وحوار طويل بين الحارث وربِّ الحَان ، ثم اللقاء والحوار بين الحارث والسروجيِّ ، ثم وصف لليوم الذي خُتِمَتْ به تلك الأحداث؛ ولا يلتزم هذا المنهج إلا كاتبٌ لا يودُّ أن ينشئ عدّة مقامات متفرقة ، وإنما هو ينشئ مقامة أو اثنتين ، ويحاول أن يعرض براعته في رسم مناظر متعددة ، يجمعها معًا في مقامة واحدة »[3] .

– ثمة ملمحٌ ثانٍ يتَّصل بالحارث بن همّام ، الذي حرص الحريريُّ على أن يكون راويًا سلبيًّا لا يُشارك في صُنْع أحداث مقاماته ، بينما جاء لدى ابن

(١) ابن أبي الخِصال: رسائله ص٤٢٣ .

(٢) المصدر السابق ص٤٢٤-٤٢٥ .

(٣) عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ص٢٥٢ .

أبي الخِصال قريبًا من عيسى بن هشام ، الذي اتّخذه الهمذاني راويًا لمقاماته ، فلم يقتصر دَوْره على رواية الأحداث فقط ، بل تجاوزه إلى التمهيد للحدث وتنميته « بالتنقُّل من مكان إلى مكان ، ووضع عنصر الاغتراب فيها » (١) .

– جارَى ابن أبي الخِصال أبا محمد الحريريَّ في الميل إلى استخدام الألفاظ الغريبة ، وتَوْشِية الكلام بما خَفَّ من السجع ، وراق من وسائل الصَّنْعة ، وإن لم يتمادَ في ما رمى الحريريُّ إليه من تعقيد وإلْغاز كما في مقامته « الرَّقْطاء » (٢) والسَّمَرقندِيّة (٣) ... وغيرهما (٤) .

– كما جاءت مقامة ابن أبي الخِصال عُطْلًا من اسم تختصُّ به ، ويُشِي بما تنطوي عليه من مضامين ، بينما حرص الحريريُّ على أن تأتي مقاماته الخمسون ممهورة باسم شديد الصِّلة بمضمونها والدلالة عليه (٥) .

٢- المعارضات الداخلية:

إذا كان ابنُ أبي الخِصال قد يَمَّمَ وجهَهُ شطرَ المشرق ، فعارض ثلاثة من أعلامه الكبار ، هم: ابن نُباتة السَّعْدي ، وأبو العلاء المعري ، والحريري

(١) عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب ص١٨٩ .

(٢) الحريري: مقاماته ص٣-٤٣ ، وفي مقاماته تلك راعى أن تتوالى حروفها بالتبادل بين الإعجام والإهمال ، أو بين النَّقْطِ وعدم النقط ، وهي تجري على هذا النمط: « أخلاق سيّدنا تُحبُّ ، وبِعَقْوَتِهِ يُلَبُّ » .

(٣) المصدر السابق ٢/ ٢٧ . وقد ضمّن مقامته تلك خطبة وردت كل كلماتها غير منقوطة ، من مثل ذلك قوله: « اعملوا – رحمكم الله – عمل الصلحاء ، واكدحوا لمعادكم كدْح الأصحّاء ... » .

(٤) ضيف: المقامة ص٥٦-٦٠ ، وقد تعقَّب د. ضيف هذه الأنماط وذيّلها بقوله: و « الحريريُّ في هذا كله كأنه حاوٍ من الحُواة » .

(٥) مصطفى: فن المقامة بين البديع والحريريِّ والسيوطيِّ ص١٢٥ .

في بعض خطبهم ورسائلهم ومقاماتهم [1] ، فإنَّ ما أنتجته الذائقة الأندلسية لم يكن غائبًا عنه .

تلقَّى ابنُ أبي الخِصالِ علومَه على جِلَّةٍ من شيوخ الأندلس إذ كان « نهمَ السّريرةِ ، جذعَ البصيرةِ » [2] يتعقب مضاربهم ، فصدر عنهم « كما صدر الظمآنُ عن الفرات » ، على حَدِّ تعبيره [3] . فأخذ عن أبي الحسين بن سراج

(١) لم يقف تأثر ابن أبي الخِصال بالأدب المشرقي عند الشِّقِّ النثري ، بل امتدَّ إلى الشعر؛ فتأثر بالمتنبي (ت٣٥٤هـ) في بعض سماته الفنية ، كَكَلفه باستخدام أفعال الأمر المتعاقبة بين شطرين أو أكثر ، كقوله:

عِشِ اِبقَ اِسمُ قُد جُد مُرانهَ رِفِ اِسرِنَل
غِظِ اِرمِ صِبِ اِحمِ اغزاسبِ رُع زع دِلِ اِثنِ نُل

فقال في معرض مدحه لتاشفين بن علي ، وذكر وَقْعَة كركي:

فَعُدَّ وقُدْ واعتمدْ واحمد وسُدْ وأبدْ ... وقُلْ وصِلْ واسْتَطِلْ واستولِ وانتهكِ

وقام بتخميس بائية أبي تمام (ت٢٣١هـ) التي قالها في فتح عَمُّورِية ، حين استنجدت امرأة بالمعتصم ، فاستجاب لها ، ويبدؤها قائلًا:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حَدِّه الحَدُّ بين الجدِّ واللعبِ

وإن لم يلتزم بتضمينها « التزامًا كاملًا » على حَدِّ تعبير د. فوزي سعد عيسى ، فقال باثًّا الحماس في نفس الأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين(ت١٥٤١هـ) للانتقام من (ابن رُذْمير) بما حازه في (قورية) و(سمورة) من حرق وقتل وسَبْيٍ وفساد:

الحمدُ لله أضحى الدِّينُ مُعتَليا ... وباتَ سَيفُ الهدى الظَّمآن قد رَويا
إن كنتَ ترتاحُ للأمر الذي قُضيا ... فسَلْهُ نَشرًا ودَعْ عنكَ الَّذي طُويا
فالسَّيفُ أَصدَقُ أنباءً من الكُتب
هو المقيّدُ للآثارِ والحِكَم ... لولا وقائِعُهُ في سَالف الأُمَم
لم يَحفل النّاسُ بالقِرطاس والقَلمُ ... أينَ اليَراعةُ من صَمصَامَةٍ خَـذِمِ
في حَـدِّه الحَدُّ بين الجدِّ واللعبِ

انظر: المتنبي: ديوانه (شرح الواحدي) ص٢١٥، وابن الخطيب: الإحاطة ٢/ ٣٩٣ ، وأبو تمام: ديوانه ١/ ٤٠ ، وابن أبي الخِصال: رسائله ص ٤٠ ، ٤٩ .

(٢) ابن أبي الخِصال: رسائله ص٢٠٠ .

(٣) المصدر السابق ص١٩٩ .

(ت ٥٠٨) بقرطبة [1] وأبي علي الصَّدَفي بألمرية ، ومُعَلِّمِ أبناء المعتمد بن عَبّاد الشيخ محمد بن أغْلَب [2] .

ولكن أشدُّ هؤلاء تأثيرًا في نفس التلميذ كان أبا الحسين بن سراج ، فما أنِ اشتدَّ ساعده ، ونضجت مَلَكاتُ الإبداع لديه حتى راح يُنازِلُ أستاذَه مُعارضًا إيّاه - وبصحبته آخرون [3] - في إحدى رسائله التي شفع فيها لرجل صُودِفَ أنه كان يُدْعى (الزُّرَيْزير) ، فاستغلَّ هذا الإيحاءَ اللفظيَّ العابرَ لتلك المفردة ، مُستعيرًا ما لهذا الطائر من أسماء وصفات [4] ، فبدأ رسالته بمقدمة إشادةٍ ودعاء لمن وُجِّهَتْ إليه ، ثم انتقل إلى الغرض الأساسي ، وهو الشفاعة؛ فقال: ... يصلُ به - وصل الله عُلوَّك ، وكبتَ عدوَّك - شخصٌ من الطيور ، يُعرف بالزُّرَيْزير ، أقام لدينا أيامَ التحسير ، وزمانَ التَّبلغ بالشكير ، فلما وافى ريشه ، ونبت بأفراخه عشوشه ، أزمع عنا قطوعًا ، وعلى ذلك الأفق اللَّدْنِ تدليًا ووقوعًا ، رجاء أن يلقى في تلك البساتين معمرًا . وعلى تلك الغصون حَبًّا وثمرًا ، وأنتَ بجميل تأتّيكَ ، وكرَم معاليك ، تصنعُ له هنالك وُكُونًا ، وتستمعُ من نَغَمِ شُكْرِهِ على ذلك أغاريدَ ولُحُونًا » [5] .

---

(١) ابن الأبّار: معجم الصدفي ص١٥٠ .

(٢) ابن الأبّار: التكملة ص٤١٢-٤١٣ .

(٣) لقيت هذه الرسالة عناية خمسة كُتّاب آخرين ، فانبروا لمعارضتها ، هم: أبو القاسم بن الجدّ (ت٥١٥هـ) ، وأبو بكر عبد العزيز بن السِّيد البطليوسي (ت٥٢٠هـ) ، وأبو عامر بن أرقم ، ولكل واحد منهم معارضة واحدة ، وابن عبد الغفور (ت٥٣١هـ)، وابن المَرْخِيّ (ت٥٣٦هـ) ولكليهما معارضتان . وقد تناول د. فوزي سعد عيسى هذه المعارضات العشر جمعًا وتحقيقًا ودراسة ، انظر: عيسى: الزرزوريات، نشأتها وتطورها في النثر الأندلسي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، ١٩٩٠م .

(٤) خريوش: ابن بسّام وكتابه الذخيرة ص٢٠٣ .

(٥) ابن بسّام: الذخيرة ق٢ م١ ص٣٤٧ .

كانَ ابنُ أبي الخِصالِ نسيجَ وَحْدِهِ ، إذ عارض رسالة أستاذه بثلاث معارضات اتخذت من الخطبةِ قالبًا ، ومن تنوُّع موضوعاتها سمةَ تميز ، فقد صرف زرزوريته الأولى إلى التهنئة بمصاهرة [1] والثانية إلى الكُدْية [2] ، والأخيرة إلى الشفاعة [3] ، مجاريًا فيها أستاذه أبا الحسين بن سراج عندما اتخذ من الشفاعة للآخر غايةً ، ومن التَّفكُّهِ والسخرية أداةً .

آثر ابنُ أبي الخِصالِ أن يتخذَ من الخطابةِ قالبًا حاضنًا لمعارضاته الثلاث ، « فنراه يستهلُّ كل زرزورية ... بالتحميدات والأدعية والاقتباسات القرآنية » [4] ، على حين جاءت رسالة ابن سراج ومعارضاتها الأُخَر في قالب الرسالة الإخوانية ، وقد اتسمت مقدّمات معارضات ابن أبي الخِصال بالطول ، فتجاوزت الدعاء لمن تُوَجَّهُ الرسالةُ إليه وتعداد مآثره ، إلى الوعظ والاعتبار وحمد الله واستدرار عطفه بالدعاء ، من مثل ذلك قوله في زرزورية خرج فيها على الشفاعة - باعتبارها الغرض الأساس - إلى التهنئة بمصاهرة: « الحمد لله ذي الحكمة البالغة ، والنعمة السابغة ، الذي اعتمدَنا بالإحسان ابتداء ، وأنشأنا من نَفْسٍ واحدة إنشاء » [5] .

ولئن كان ابنُ سراج قد استغلَّ الإيحاءَ اللفظي العابر لاسم مَنْ شفع له، فراح يوظِّف ما لهذا الطائر من أسماء وسمات توظيفًا يتّسم بمسحة فكهة فإنَّ ابنَ أبي الخِصالِ قد اتخذ من الزرزور رمزًا ، فراحَ يُسْقِطُ عليه أحاسيسه،

(١) ابن أبي الخِصال: رسائله ص٢٣٤-٢٤٥ .

(٢) المصدر السابق ص٣٣٣-٣٤٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٣١-٣٨ .

(٤) عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ص٢٣٨ ، وعيسى: الزرزوريات ص٢٣ .

(٥) ابن أبي الخِصال: رسائله ص٣١ ، وعيسى:الزرزوريات ص٦٩ .

ويمتزج به امتزاجًا تامًّا »[1] . فاقتربت صورة الزرزور لديه من صورة بطل المقامة لدى الهمذاني والحريري ، وتتجلّى هذه الصورة في قول ابن أبي الخِصال: « وإنْ أنطقني نوالُكم نطقتُ ، وإنْ صَدَقني إحسانُكم صدقتُ ، فَحَلّ لساني ، واحْلُلْ عُقْدَةً من لساني ، رحم الله الأنصارَ ، أين الواحد الذي لا يعدله الألف ، والصُّرَّةُ تعجزُ عنها الكفُّ ؟! »[2] .

كما احتفى ابن أبي الخِصالِ بالسجع والازدواج ، وتوظيف الموروث أدبيًّا وتاريخيًّا ودينيًّا- احتفاء يُجَسِّدُ رغبته في إظهار ما يتسلَّح به من سَعة معرفة ، وهو في احتفائه هذا لا يُجاري أستاذه أبا الحسين بن سراج ، وقد جاءت زرزوريته الأم عُطْلًا من هذه السمات إلا ما نَدر[3] بل جاء خضوعًا لذوق عام كان يصبغ أساليب الكتابة الشائعة في زمانه ، رَسَّخَتْهُ المذاهب المشرقية التي راحت تتوافد على الحياة الأدبية في الأندلس .

وقد تجلّى الاتّكاء على الشعر ، محلولًا ومعقودًا ، والقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والأمثال والأعلام والأمكنة ذات الصبغة التاريخية ، في ما خلَّف ابن أبي الخِصال من معارضات ، إذ يُعَدُّ أكثر كُتّاب الزرزوريّات احتفاءً بالموروث ، فلئن كان ابن أبي الخِصال قد اتخذ من

(١) عيسى: الزرزوريات ص٢٥ .

(٢) ابن أبي الخِصال: رسائله ص٣٣٧ ، وعيسى: الزرزوريات ص٦٧ .

(٣) ابن بسّام: الذخيرة ق٢م١ ص٣٤٧ ، استعان ابن سراج - في موطن واحد من رسالته - بقول أبي تمام [من الكامل] :

وإذا امرؤ أهدى إليك صنيعةً ... من جاهه فكأنها من مالِهِ

ويتجلى ولع ابن أبي الخِصال بالتراث في أشعاره أيضًا ، كقوله:

كن يا فؤادي رحمة من عبرة ... تدمي ولا تك قسوةً من جوهر

فاللهُ قد ذَمَّ الذين قست قلو ... بهُم وما يذمم بمقلية حر

إذ وظف الآية ٧٤ من سورة البقرة ، والأنعام٤٣ ، والحديد١٦ . انظر: عيسى: أبو عبد الله بن أبي الخِصال ص٢٨٢ وما بعدها .

الخطبة الدينية إطارًا حاضنًا لزرزوريّاته ، مما حدا به إلى الإكثار من توظيف النصوص المُقَدَّسة قرآنية ونبوية ، فإنه راح يمزج بين الشعر والنثر مزجًا يَشي بقدرة على الإبداع في ميدانَي الشعر والنثر ، من مثل ذلك قوله في صدر زرزوريته الثانية التي ضمنها ستة وخمسين بيتًا شعريًّا له ، جاءت مُوزَّعةً على أربع قصائد قصيرة دُسَّتْ في تضاعيف زرزوريته:

« الحمدُ لله الذي صدرَتْ عن حِكمتِه الأشياء ، وقامَتْ بأمرِه الأرضُ والسَّماء ، وبِيَده الفضْلُ يُؤتيه مَنْ يشاءُ ، مُميت الأحياء ، ومُحيي الأموات ، ومُسَخّر الأوقات ، ومُقدّر الأقوات ، تكفَّل بالأرزاق ، ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ... ﴾ [الأنعام ١٥١] ، فوعْده مَأْتِيٌّ ، وأَمْرُهُ حَتْمٌ مَقْضِيٌّ . ﴿ ٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى ٣] ، ولم يترك شيئًا سُدى ، فأرسل رُسُلَه تترى (استيحاء لمضمون قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ [المؤمنون ٤٤]) ، وأعقب بِبُشرى بشرى ، وأردفَ بأُولى أُخرى ، حتّى وضحت الدّلالة ، وخُتِمَتْ بخاتمها الرُّسلُ والرِّسالة ، صلى الله عَليهم عامَّة ، وعَليهِ وعلى آله خَاصَّة ، صلاةً تامَّة ، ما اتّسق بَدْرٌ ، وانطبقَ على قَلْبٍ صَدْرٌ .

رَحِم اللهُ امرأ برزَ فلم يَحْتَجِب ، ورأى العَجَب فَعَجِب ، وأنصت ليسمع ، ووعَى وجمع:

وهُلْكُ الفتى ألا يُراحَ إلى النَّدى　　　وألا يَرى شَيئًا عَجيبًا فيَعجبا !

مهلًا ! فإنَّما هو متْبوعٌ وتابع ، وقائِلٌ وسامِعٌ ، وثلاثة لا رابع ! رجُلٌ أوى إلى الله فآواهُ الله ، ورجُلٌ استَحْيى فاستَحْيى اللهُ منه ، ورجلٌ أعْرَضَ اللهُ عنه »[1] .

---

(١) ابن أبي الخصال : رسائله ص٣٣٣-٣٣٤ ، والبيت لعلي بن الغدير الغنوي في الأمالي للقالي ص١٦٥ .

فقراءة هذا المقطع تَشي بوَلَع ابن أبي الخِصال بالموروث وتوظيفه ، إذ اتكأ على النَّصِّ القرآني فاقتبس نَصَّه ، واستوحى معانيَه ، فقد اقتبس جزءًا من الآية (١٥١) من « سورة الأنعام » ، والآية (٣) من « سورة الأعلى » ، واستوحى مضمون الآية (٤٤) من « سورة المؤمنون » ، كما اتكأ أيضًا على الحديث النبوي الشريف .

ولم يقف ابن أبي الخِصال عند توظيف النصِّ المقدّس ، بل امتدّ ليشمل الشعر ، فَضَمَّنَ بيتًا شعريًّا لعلي بن الغدير الغَنَوي ، أورده دون عَزْوٍ لقائله .

يتجلّى - مما سبق - أنَّ ابنَ أبي الخِصالِ عارَض أستاذه أبا الحسين بن سراج بثلاث معارضات ، اتخذت من الخطبة الدينية إطارًا ، ودارت حول محورَيْن متباينين ، هما: فُكاهي فيه نصيب من الدعابة والسخرية ، ورمزيٌّ تفجُّعي يوحي ببؤس الأدباء وشقائهم .

ثالثًا - نصُّ المعارضة :

آثرتُ إخراجَ هذه المعارضةِ محققةً رغم نشرها في تضاعيف ترسيل ابن أبي الخصال؛ نظرًا لما تنطوي عليه من قيمة فنية تفرض علينا الوقوفَ أمامها منقطعةً عن مجمل منثور كلامه ، بوصفِها أولَ معارضةٍ لرسالة (مَلْقى السَّبيل) في الأدبين المشرقي والأندلسي ، وأبعدها أثرًا في البيئة الأندلسية . وقد حذا حذوَهُ كاتبان آخران ، هما: أبو الرَّبيع الكُلاعي ، وابن الأبّار القُضاعي ، فعارضاها ، ضاعت المعارضة الأولى ، ولم يعثر الباحث لها على أثر ، وحقّق الأخرى .

إن الأصل الخطّي لترسيل ابن أبي الخصال محفوظ بمكتبة الأسكوريال ، ومنه مصورة بمكتبة الإسكندرية وأخرى بمعهد المخطوطات العربية .

تشغل المعارضة الأوراق ٧٧ أ – ٨١ ب وجاءت الإشارة إليها ضمن العنوان المدوّن في صدر المخطوطة على الصورة الآتية :

« كتابٌ فيه ترسيل الفقيه الكاتب أبي عبد الله بن أبي الخصال ومقاماته ومعارضة مَلْقَى السَّبيل لأبي العلاء المعري ، رحمهما الله ، ومخمَّساته وأشعاره، ونسخ إجازاته وخطبه » .

وقد أغنيتُ نص المعارضة بشرح مفرداتها ، والترجمة لما ورد في تضاعيفها من أماكن وأعلام ، وتخريج ما ورد فيها من آيات قرآنية وأشعار وأمثال ... إلخ .

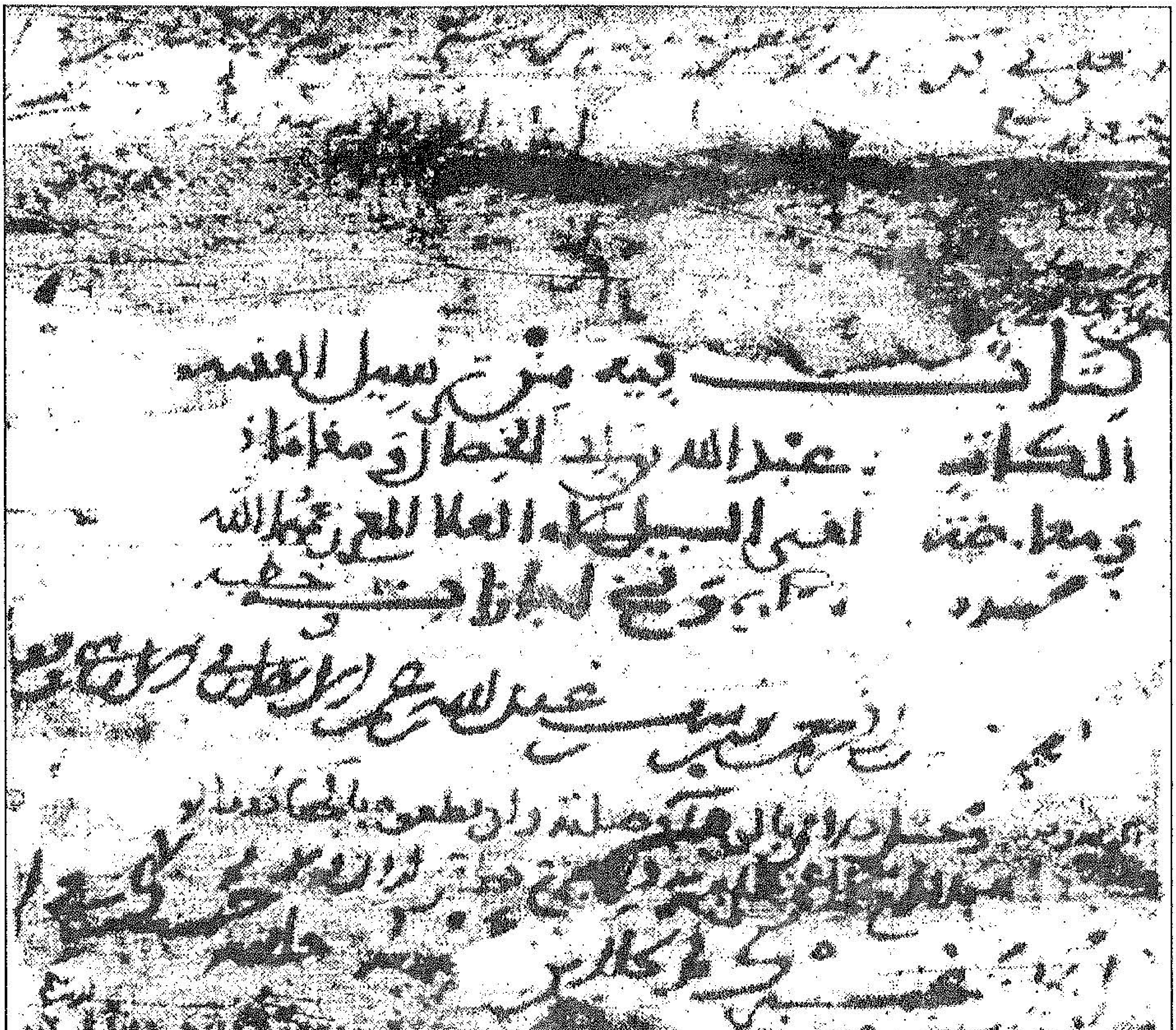

غلاف الأصل الخطي

مُعارَضة ابن أبي الخِصال لمَلْقَى السَّبيل لأبي العلاء المعرّي (*)

[حرف الألف]

الإنسانُ يُسيءُ ، ويعجبُه الأجلُ النَّسيءُ (١) ؛ يُذْنِبُ ولا يَفيءُ (٢) ، ولا يُبالي ما يُفيءُ (٣) :

وَيُريدُ أن يُجْزَى بإحْـ ـسانٍ على النَّفْسِ المُسيئَهْ
ويُحِبُّ تعجيلَ الثَّوا بِ ، وعَقْدُ تَوْبَتِهِ نَسِيئَهْ
لَيْسَتْ تَفيءُ وهَمُّها في كُلِّ غُنْمٍ أنْ تُفيئَهْ

(*) تناول الباحث هذه المعارضة بالدرس والتحليل في معرض مقارنتها برسالة « مَلْقَى السَّبيل » للمعرّي(ت٤٤٩هـ) ، ومعارضة ابن الأبّار القُضاعي(ت٦٥٨هـ) لها ، وذلك في دراسة له ، عنوانها : « معارضة مَلْقَى السَّبيل للمعري في الأندلس » مجلة كلية دار العلوم ع٣٩ ، مايو ٢٠٠٦م ، ص ٢٦٣ إلى ٣١٧ .

(١) الأجل : مُدَّةُ الشيء ، وقيل : غاية الوقت في الموت وحلول الدين ، والجمع آجال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل٦١] . ونسأ الأمر : أخَّره ، ومنه أنسأهُ اللهُ أجلَه ، أي أطال فيه وأخَّره .

(٢) لا يَفِيءُ : لا يرجع أو يتوب .

(٣) يُفِيءُ : يَغْنَمُ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ﴾ [الحشر٧] .

❊ الشعر من مجزوء الكامل .

[حرف الباء]

غَرَّتْها النِّهابُ(١) ، ودَبَغَتْ وقد حَلِمَ الإهابُ(٢) ، رُبَّ مَهيبٍ لا يُهابُ(٣) ، ومَريدٍ أحْرَقَهُ الشِّهابُ(٤) ، وذاهِبٍ بنفسِهِ أعْجَلَهُ الذَّهابُ(٥) :

---

(١) غَرَّهُ يَغُرُّهُ : خدعه وأطمعه بالباطل . والنِّهابُ : الغنائم ، ومفردها النَّهْبُ ، وقد تجمع على النُّهُوبِ .

(٢) دبغت : أصلحت وليَّنْتَ . والإهابُ : ككتاب الجلْدُ من البقر والغنم والوَحْشِ ما لم يُدْبَغْ ، وفي الحديث النبوي الشريف : « أيُّما إهَابٍ دُبِغَ فقد طَهُرَ » والحَلَمُ : القُرادُ الكبير ، وقيل : دودٌ يقعُ على الأديم فيأكله قبلَ الدِّباغ ، فإذا وقع لا يُنْتَفَعُ به .

وقد وَظَّفَ ابنُ أبي الخِصالِ المثل القائل : « كدابغةٍ وقد حَلِمَ الأديمُ » وهو مَثَلٌ يُضْرَبُ للرجل يشرع في إصلاحِ ما لا يُصْلَحُ ، أو للذَّاهبِ في الأمر بعد فساده . وقد أشار أبو عبيد بن سلام (ت٢٢٤هـ) في « كتاب الأمثال » إلى الخلاف في مصدره ؛ فقال : « وهذا المَثَلُ يُروى عن الوليد بن عقبة (ت ٦١ هـ) أنه قال لمعاوية (ت ٦٠ هـ) [من الوافر] :

فإنَّكَ والكتـــاب إلى عـــليٍّ كدابغةٍ وقد حَـــلِمَ الأديمُ

وكان المفَضَّلُ (ت ١٦٨ هـ) فيما بلغنا عنه - يُخْبِرُ أنَّ المثَلَ لخالد بن معاوية أحد بني عبد شمس ابن سعد ، قال :

قـــد علمتْ أحســـابَنا تميمٌ في الحربِ حينَ حَلِمَ الأديمُ » .

(٣) رُبَّ : من حروف المعاني : والفرق بينها وبين « كم » ؛ أنَّ « رُبَّ » للتقليل ، و « كم » وُضِعَتْ للتكثير ، إذا لم يُرَدْ بها الاستفهام ، وكلاهما يقع على النكرات فيخفضها . انظر لسان العرب : (ربب) . والمهيبَ : الرَّجُلُ يُخْشَى جانبُه خوفًا وإجلالًا .

(٤) المَرِيدُ والماردُ من شياطين الإنس والجنِّ . والشِّهابُ : شعلة من نار ساطعة ، وروى الأزهريّ (ت٣٧٠هـ) عن ابن السِّكِّيت (ت ٢٤٤هـ) قال : والشِّهابُ : العودُ الذي فيه نارٌ ... ويقال للكوكب الذي يَنْقَضُّ على أثر الشيطان بالليلِ شهابٌ ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات١٠] . ومن المجاز قولهم للرجل الماضي في الحرب : شِهَابُ حَرْبٍ .

(٥) الذَّاهِبُ : الطالِبُ أمرًا دون رَوِيَّةٍ ، كأنَّ حتفه موطئ قدمِه. وأعجله : باغتَه ، وأخذه ولم يمهله. والعَجَلَةُ : طَلَبُ الشيءِ وتحرِّيه قبل أوانه ، وهي من مقتضى الشهوة ؛ فلذلك كانت مذمومة في عامَّة القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه١١٤] . والذَّهابُ : زوال العقل إعجابًا بالشيء .

دَبغْتِ لَـمّـا حَلِمَ الإهــابُ
غرَّتْكِ يا مَغْــرورَةُ النِّهابُ
ومارِدٍ أحْـرَقَهُ الشِّــهابُ (١)
رُبَّ مَهيبٍ وَيْكِ لا يُهابُ (٢)
وَذاهِبٍ أعْجَلَهُ الذَّهابُ ! (٣)

[حرف التاء]

أبْطَأْتِ فَخُلِّفْتِ ، وكَلِفْتِ بغيْرِ ما كُلِّفْتِ (٤) ، وألِفْتِ ضِدَّ ما لَهُ أُلِّفْتِ (٥) ، رُدِّي ما أُسْلِفْتِ (٦) ، وإنْ أخْلَفْتِ فقد أُخْلِفْتِ (٧) :

---

(١) وَيْك : وَيْ كلمة تَعَجُّبٍ ، ويُكْنَى بها عن الوَيْلِ .

(٢) المارد : من شياطين الإنس والجن ، والماردُ من الرجالِ العاتي الشديد المتطاول كِبْرًا ومعصية .

(٣) الأشطر من الرَّجَزِ .

(٤) أبطأ : تراخى وتكاسل . وخُلِّفَ : تُرِكَ . وكَلِفْتُ بالأمر : أولعتُ به مع شغل قَلْبٍ ومشقة ، ومنه الحـديث النبـوي الشريف : « اكلفوا من العمـل ما تطيقون » ، ومنـه قول عمر ﵁ : « لا يكون حُبُّكَ كلفًا ، ولا بغضك تلفًا » . والتكليف : الأمر ربما يَشُقُّ على الإنسان ، يتجشّمه على مشقة ، وعلى خلاف عادة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة٢٨٦] .

(٥) أَلِفْتُ الشيءَ : لزمته وأَنِستُ به . وأُلِّفْتِ : أي خُلِقْتِ ، وكل شيء ضممتَ بعضه إلى بعض فقد أَلَّفْتَهُ ، ومنه تأليف الكُتُبِ .

(٦) أُسْلِفْتِ أي اقترضْتِ ، والسَّلَفُ : القَرْضُ ، وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ سَلَّفَ فَلْيُسَلِّفْ في كَيْلٍ معلوم ووزن معلوم » . وأما السَّلَفُ هنا فيعني ما مَنَّ الله على الإنسانِ من نِعَمٍ كثيرة .

(٧) يُقَالُ: أخلفه ما وعده ، وهو أن يقول شيئًا ، ولا يفعله على الاستقبال ، ومنه قول الأعشى (ت٧هـ) [من الكامل] :

أَثْــوى وَقَصَّــرَ لَيْــلَةً لِيُزَوَّدا ... وَمضى وَأَخلَفَ مِن قُتَيْلَةَ مَوعِدا

وَأُخْلِفْتِ : خُدِعْتِ ، وأُخِذْتِ من خلف غِيلَةً .

تخــــلَّفي صــــاغِرةً إنَّني   أراكِ أبْطَــأْتِ فخُـلِّـفْتِ [1]
كَلِفتِ بالشَّرِّ وعِفْتِ الّذي   مِنْ صالحِ الأعمالِ كُلِّفْتِ [2]
ليْتَكِ إذْ لمْ تألفي خُطَّـةً   مُنْجِيَـةً لمْ تَـكُ أُلِّـفْتِ [3]
رُدِّي على الدَّهْـرِ عَـوارِيَّهُ   قَدِ اقتَضى ما كُنْتِ أسْلَفْتِ [4]
أخْلَفَكِ الخـيرُ وأخْلَفْتِـهِ   فلا تلُومي حيثُ أُخْـلِـفْتِ

[حرف الثاء]

[٧٧ / ب] لا تَحْزَنْ للوَارِث[5] ، وتَخَفَّفْ للكارِث[6] ، فَنِعْمَ حَرْثُ الحارِث[7] :

---

(١) صاغرة : حقيرة راضية بالضَّيْم .
(٢) عافَ الشيءَ يعافه إذا كرهه ، وقد غلب استخدامه على كراهية الطعام .
(٣) الخُطَّةُ : الأمرُ عزم الإنسانُ على إدراكه ، وفي حديث الحديبية : « لا يسألوني خُطَّةً يعظمون فيها حرماتِ الله إلا أعطيتهم إيَّاها » . التاج (خ.ط.ط) .
(٤) العوارِي : (مُشَدَّدة ومخففة) ، واحدها : العارية ، وهي الشيء المستعار الواجب ردَّه إجماعًا ، مهما كانت عينها باقيةً ، فإنْ تلفت وَجَبَ ضمانُ قيمتها عند الشافعي (ت٢٠٤هـ) ، ولا ضمان لها عند أبي حنيفة (ت١٥٠هـ) . واقتضى : حان وقت رَدِّ ما كنتِ اقترضتِ .
* الأبيات من السريع .
(٥) الوارث : الباقي ، والوارث : الصحيح السليم ، ومنه دعاء النبي ﷺ : « اللهم أمتعني بسمعي وبصري ، واجعلهما الوارثَ مني » . قال ابن شُمَيْل : أي ابقهما معي صحيحين سليمين حتى أموت . لسان العرب (و.ر.ث) ، وهو ما يتطلبه السياقُ .
(٦) تخَفَّفْ : تأهَّبْ . والكارث : ما ساء الإنسانَ من أمر اشتدَّ عليه ، وبلغ منه المشقة ، ومنه : كربني الأمرُ أي غَمَّني وأثقلني .
(٧) نِعْمَ : فعل ماضٍ لا يَتَصَرَّفُ تصرُّفَ سائر الأفعال ؛ لأنه اسْتُعْمِلَ للحال بمعنى الماضي ، ويستخدم في سياق المدح . ومثله بِئْسَ ، على أنه يستخدم في سياق الذَّمِّ . انظر إعرابها ، وما ورد فيهما من لغات . الصحاح (ن.ع.م) . =

أسْخَنُ عَيْنٍ قلَّبَتْ طَرْفَها عَيْنُ مَريضٍ أبْصَرَتْ وارِثا[1]
احْمِلْ على فَضْلِ الغِنَى راضِيًا أوْ كارِهًا لا تدَّخِـرْ كارِثا[2]
واحْرُثْ لأُخْراكَ فَكُلُّ امْرِئٍ يَلقى الَّذي كانَ لَهُ حارِثا[3]

[حرف الجيم]

أَمِتِ الحَرَج ، وانْتظِرِ الفَرَج[4] ، وَثِقْ بالرِّزْقِ ولوْ عَرَج ، فالذِّكْرُ إذا تأرَّج ، عِقبَ مَنْ دَرَج[5]:

= والحَرْثُ : الكَسْبُ ، وقيل: كَسْبُ المالِ وجمعُه ، وقِيل: متاع الدنيا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى ٢٠] . والحَارِثُ: الكَاسِبُ للمال والجامع له .

* الأبيات من بحر السريع .

(١) سَخِنَتْ عَيْنُهُ : نقيض قَرَّتْ ، وقَرَّتْ العينُ رَأَتْ ما يَسُرُّهَا . والطَّرْفُ : العين ، ولا يجمع لأنه في الأصل مَصْدرٌ ، فيكون واحدًا ، ويكون جمعًا ، ومنه قوله تعالى ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ [إبراهيم٤٣] ، وقوله : ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ [الرحمن٥٦] ، وقلَّبَتْ طرفها أي أطبقت الجَفْنُ على الجَفْنِ .

(٢) حمل على نَفْسِهِ في السير أي جهدها فيه ، على مشقة وعَنَتٍ . والفَضْلُ : الزيادة في الاقتصاد ، وقيل : البقية من كل شيء ؛ أي اقنعْ من الغِنَى بالقليل .

(٣) توظيف للآية العشرين من سورة الشورى . ومنه قول النبي ﷺ : « احرث لدنياك كأنك تعيش أبدًا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا » .

(٤) الحَرَجُ : الضيق والإثم ، وحَرَجَ صَدْرُهُ أي ضاق ولا ينشرح لخير ، والفَرَجُ : زوال الغَمِّ ، ويجمع على « فروج » ، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي (ت ٢٧ هـ) [من الطويل] :

وَلِلشَّرِّ بَعدَ القارِعاتِ فُروجُ

(٥) الرِّزْقُ : العطاء ، وقيل : كل ما يُنْتَفَعُ به . وعَرَجَ : ارتفع أو حُبِسَ ومُنِعَ . والذِّكْرُ: خلاف النسيان ، والذكر أيضًا الصِّيتُ والثناء ، وجَرْيُ الشيءِ على اللسان . وتأرَّجَ : فاحَ . وعِقِبَ : بَعْدَ . ودَرَجَ : مات ، ومنه قولهم في المَثَلِ : « أَكْذَبُ مَنْ دَبَّ ودَرَجَ » ، أي أكذب الأحياء والأموات ، وقيل : دَرَجَ الرَّجُلُ : إذا مات ، ولم يُخَلِّفْ نَسْلًا ؛ وعليه فليس كُلُّ من مات دَرَجَ .

* الأبيات من الكامل

لا تَحْـرَجَــنَّ فإنَّمـا ... عَيْشُ الفتى مَوتُ الحَرَجْ (١)
وإذا يَئِسْـتَ فـلا تبُتْـ ... ـتَ اليأسَ وانْتَظِرِ الفَرَجْ (٢)
والرِّزق أجْمِـلْ فيـه إنْ ... نَ الرِّزقَ يأتي لَـوْ عَـرَجْ (٣)
أرَجُ الكـريم بذِكْـرِهِ ... والذِّكْرُ يُخْلِـدُهُ الأرَجْ (٤)
فِئَـةُ الفَـتى رَيْعـانُهُ ... رَيْحـانُهُ مَهْمَا دَرَجْ ! (٥)

[حرف الحاء]

يا ذا العَجَبِ الفادِح(٦) ، والهوى القَادِح(٧) ، والحِرْصِ الكادِح(٨) ،

(١) لا تحرجَنَّ أي لا يضيق صَدْرُكَ بالأمر ، ولا تحمل نفسك على مَشَقَّةٍ . وعَيْشُ الفتى : حياتُهُ .
(٢) لا تبُتَّ اليأسَ : أي لا تستسلم له دون رجعة .
(٣) أَجْمِلْ في الأمر : أَحْسِنِ السبيلَ إلى إدراكه .
(٤) الأرَجُ : نَفْحَةُ الرِّيحِ الطيبة ، ويجمع على « الأرائج » ، ومنه قول الراجز :

كأنَّ ريحًا من خُزامى عالجِ
أو ريحِ مِسْكٍ طَيِّبَ الأرائجِ

يُخْلده : يُبْقيه ويُديمه .
(٥) في الأصل الخطي « فئة الفتى » ولا معنى لها ، وقد تكون « فَيءُ الفتى » والفَيءُ : الغنيمة . وريعان الشباب : مقتبَله وأفضله ، وريعانُ كل شيء : أوّله وأفضله .
(٦) العَجَبُ : الذَّنْبُ. والعُجْبُ : الزَّهْوُ والتَّكَبُّرُ . والفادِحُ : الثقيل ، وفدحه الأمرُ :إذا عاله وبهظه .
(٧) الهوى (مقصور) الباطل ، والهوى :محبَّةُ الإنسان الشيءَ ، وغلبته على قلبه؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات ٤٠-٤١] . والقادِحُ : الطاغي المؤثر في نَفْس من اتّشح به ، ومنه قدحَ الشيءُ في صدري أي أثَّر فيه .
(٨) الحِرْصُ : الجَشَعُ ، وقيل: شِدَّةُ الإرادة والشَّرَهِ إلى المطلوب ، ومنه قول أبي ذؤيب (ت ٢٧ هـ) في رثاء أبنائه الخمسة الذكور [من الكامل] :

وَلَقَد حَرِصْتُ بِأَنْ أُدافِعَ عَنهُمُ ... فَإِذا المَنِيَّةُ أَقبَلَتْ لا تُدفَعُ =

أَرَضيتَ عَنْ زُورِ المادِحِ ، وَغُرورِ الصّادِحِ ؟[1] :

مَهْلًا فلوْ أَحْسَسْتَ لمْ تَسْتَطِعْ — تَنفُّسًا مِنْ عُجْبِكَ الفادِحِ[2]
إذا تزَكَّيْتَ كما تَدَّعي — فلا تُعَرِّجْ بِهَوَى مَادِحِ[3]
قَدْ فَرَغَ اللهُ ولا حُجَّةٌ — لِلْمُلْحِفِ في حِرْصِهِ الكادِحِ[4]
لوْ نظَرَ المَرْءُ إلى عَيْبِهِ — لمْ يَتَسَوَّغْ كَذِبَ المادِحِ
أوْ خَطَرَ المَوْتُ على بالِهِ — لكَانَ في شُغلٍ عَنِ الصَّادِحِ!

= والكادِحُ : السّاعي إلى الكسب بمشقة ، ومنه قوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق ٦] . ولكن ابن أبي الخصالِ استخدمها هنا بمعنى النَّاصِبِ الشائن ، والنَّصَبُ : الإعْياءُ والتَّعَبُ .

(١) الزُّور : البُهْتَانُ وقول الكذب وشهادة الباطل . والمادِحُ : المُتكَلِّفُ الثَّنَاءَ . والغرور : الانخداع بالباطل . والصادح : المتباهي المعجب بنفسه .

* الشعر من بحر السريع .

(٢) مَهْلًا : أي رِفقًا وسكونًا ، لا تَعْجَلْ ، يُقال : مَهْلًا يا رجل ، وكذلك للاثنين والجمع والمُذَكَّرِ ، ومنه قول جميل (ت ٨٢ هـ) [من الطويل] :

يَقولونَ: مَهْلًا يا جَميلُ وَإِنَّني — لَأُقسِمُ ما لي عَن بُثَينَةَ مِن مَهَلِ

والمَهَلُ : الإسراعُ والتقدُّم ، وقد وردا في الحديثِ النبوي الشريف : « إذا سرتم إلى العدوّ فَمَهْلًا مَهْلًا ، وإذا وقعت العينُ على العين فمَهَلا مَهَلا » ؛ فالأوّلان بالسكون بمعنى التأنّي ، والآخران بالفتح بمعنى التقدُّم ؛ أي إذا سرتم فتأنَّوْا ، وإذا لقيتم فاحملوا. وأحسستَ: أيقنت . والعُجْبُ: الزَّهْوُ والتَكَبُّرُ ، وقيل :الفَضْلَةُ من الحُمْقِ .

(٣) تزَكَّيْتَ : تَطَهَّرْتَ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة١٠٣] ، وتَدَّعِي : تزعم . وتُعَرِّجُ : تعبأ وتأبَهُ ، والتعريج على الشيء : المَيْلُ إليه ، والإقامة عليه .

(٤) الفراغ في اللغة على وجهين :الفراغ من الشغل معروف ، والآخر القصد للشيء ، والله تعالى لا يشغله شيء عن شيء ، ومنه قوله تعالى﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ [الرحمن٣١] أي سنقصد . والحُجَّةُ : البَيِّنَةُ والدليل ، والوجه الذي به الظفر عند الخصومة . والمُلْحِفُ : الملحّ في المسألةِ ؛ ومنه قول بشار بن بُرد (ت ١٦٧ هـ) [من الرّجز] :

الحُرُّ يُلْحَى وَالعَصا لِلعَبدِ — وَلَيسَ لِلمُلْحِف مِثلُ الرَّدِّ

[حرف الخاء]

أينَ مَنْ أَداخَ ، ورَحَلَ وأَناخَ ؛ وَوُعِظَ فما أَصَاخَ(١) ؛ وأَفَلَ سَعْدُهُ وَباخَ ، وتَرَكَ العَيْشَ النُّقاخَ ؟(٢) :

هَلْ كانَ عِنْدَ المُديخِ عِلْمٌ ... بمَنْ يُدِيخُ الَّذي أَداخا(٣)
لَمْ يَبْقَ منهُ سِوى حديثٍ ... في حيثُ ما سارَ أَوْ أَناخا
كَمْ قَرَعَتْ سَمْعَهُ اللَّيالي ... بكُلِّ وَعْظٍ فما أَصاخا
أَوْحَشَ مَغْناهُ بَعْدَ أُنْسٍ ... لَمّا خَبا سَعْدُهُ وَباخا(٤)
ولَّى على غُلَّةٍ وبَرْحٍ ... وأَسْلَمَ البارِدَ النُّقاخا(٥) [٧٨ / آ]

---

(١) أداخ : أَذَلَّ وأخضع . وأناخ : أقام وبَرَكَ . ووُعِظَ : نُصِحَ وذُكِّرَ بالعواقب ، ومنه المثل : « السَّعيدُ من وُعِظَ بغيره ، والشقيُّ منْ اتَّعظَ به غيرُه » . وأصاخ له : استمع وأَنْصَتَ لصوته ، قال أبو دؤاد الإيادي (ت ٧٩ ق . هـ) [من مجزوء الكامل] :

ويُصِيخُ أحْيانًا كَما اسْـ ... ـتمع المُضِلُّ لصوتِ ناشد

(٢) أَفَلَ : غاب ، ومنه قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَٰفِلِينَ ﴾ [الأنعام ٧٦] . والسَّعْدُ : الحَظُّ واليُمْنُ ، وضده النَّحْسُ . وباخَ : سكن وفتر ، ومن المجاز : باخ الغضب إذا سكن ، ومنه قول رؤبة بن العجاج (ت١٤٥هـ) :

حتَّى يبوخَ الغَضَبُ الحَميتُ

والنُّقاخُ : الماء العَذْبُ البارد الصافي الخالص ، وفي تهذيب اللغة : « الخالص » دون تعيين .

* الأبيات من مُخلَّع البسيط

(٣) المُدِيخُ : المُتكبِّرُ الباغي . ويُدِيخ : يُذِلُّ ويُخْضِعُ .

(٤) أَوْحَشَ المكانُ : إذا ذهب عنه الإنس . والمَغْنَى :الدار التي قطنها أهلوها ثم ظعنوا عنها ، وتجمع على المغاني . وخَبا : سكن ، وخبت النارُ ، طَفِئَتْ وسكنت ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء٩٧] .

(٥) ولّى : أدبر . والغُلَّةُ : شِدَّةُ العَطَشِ وحرارتُه . والبَرْحُ : الشِّدَّةُ والأذى .

[حرف الدال]

وَدَّ وَقَدْ جادَ ، لَوْ كانَ أَجادَ ، وتمَنّى إذْ فادَ ، لَوْ فُدِيَ بها أَفادَ[1] ، فَهلّا أَطابَ الزّادَ[2] ، واسْتَوْفَرَ وزادَ ؟[3] :

وَدَّ وَقَدْ جادَ لَوْ أَجادا ... وَفَضَّ شَمْلَ الغِنى وجادا[4]
ثُمَّ تَمَنَّى إذْ فادَ جَهْلًا ... بِأَنْ يُفادى بها أفادا
طُوبى لِمَنْ في الجَميلِ زادا ... واتَّخَذَ الطَّيِّباتِ زادا[5]

---

(١) وَدَّ : تمَنَّى وأَحَبَّ ، وقد نقل ابن سِيدَهْ (ت٤٥٨هـ) عن أبي زَيْد الأنصاري (ت٢١٥هـ) أنَّ الوُدَّ هو الحُبُّ ، يكون في جميع مداخل الخير . وجَادَ: أتى بالجيِّد من القول أو الفعلِ . وفاد يفود فَوْدًا : مات ؛ ومنه قول لبيد بن ربيعة (ت٤١هـ) يذكر الحارث بن أبي شَمِر الغَسّانيّ ، وكان كل ملك منهم كلما مضت عليه سنةٌ زاد في تاجه خرزة ، فأراد أنه عُمِّرَ حتى صار في تاجه خرزات كثيرة [من الطويل] :

رَعى خَرَزاتِ المُلكِ سِتينَ حِجَّةً ... وَعِشرينَ حَتّى فادَ وَالشَيبُ شامِلُ

وفُدِيَ : خُلِّصَ ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَفَدَيْنَهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات١٠٧] . ويقال : فداه وفاداه إذا أعطى فِدَاءَه فأنقذه بنفسه . انظر اللسان (فَ.د.ي) . وأفاد : أحرز وحقَّق وثبت له .

(٢) هلاّ : (مُشَدَّدة) أصلها « لا » بُنِيَتْ مع « هل » فصار فيها معنى التحضيض ، وقيل إنها : بمعنى اللَّوم ، والحضّ :اللوم على ما مضى من الزمان ، والحضُّ على ما يأتي منه . وأطابَ الزَّادَ : أَحْسَنَ العُدَّةَ . والزَّادُ : طعامٌ يُتَّخَذُ للسَّفرِ والحَضَرِ ، ويجمع على أزوادٍ ، والزاد هنا ينسحب على كل ما أَعَدَّهُ الإنسان لآخرته مِنْ حَسَنِ الأفعال وطيِّبِ الأقوال .

(٣) استوفز عليه حَقَّهُ إذا استوفاه وأسبغه .

* الأبيات من مُخلَّع البسيط .

(٤) فَضَّ : فَرَّق . والشَّمْلُ : مُسْتَجْمَعُ الشيءِ .

(٥) طوبى : شجرة في الجنة؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴾ [الرعد٢٩] ، أي حُسْنُ مَرْجِعٍ ومُنْقَلَبٍ ، انظر : الخلاف حولها أصلًا وإعرابًا ، ومعانيَ : التاج واللسان (ط.ي.ب). والطيبات : لفظةٌ ذات دلالاتٍ ثَرَّةٍ ، فهي تضم ما حَسُنَ من الأفعال والأقوال . وزاد الأولى فعل ماضٍ بمعنى استوفى وأسبغ ، والثانية مَصْدَرٌ .

[حرف الذال]

العُمْرُ أَحَذُّ ، والسَّيْرُ يُغذُّ (١) ، والسَّابِقُ يَبُذُّ ولا يُبَذُّ (٢) ، والعَوائِقُ وَكْفٌ والآمالُ تُرَذُّ ، والحُزْنُ مَثْنى والسُّرورُ يُفَذُّ (٣) :

لَقَدْ أَوْدى بِكَ العُمْرُ الأَحَذُّ ... وَسَيْرٌ لو شَعَرْتَ لهُ يُغَذُّ
وإِنَّ السَّابِقينَ ولَسْتَ مِنْهُمْ ... لَهُمْ حُضْرٌ يَبُذُّ ولا يُبَذُّ (٤)
رَأَيْتُ عوائِقَ الأَيَّام وَكْفًا ... ولا رِيٌّ لآمالٍ تُرَذُّ
كَفى حَزَنًا بأَنَّ الحُزْنَ مَثْنى ... وأَنَّ سُرورَ هذا الدَّهْرِ فَذُّ (٥)

---

(١) أَحَذُّ : سريع المضاء والنفاذ ، والحَذَذُ : السرعة ، وقيل: السرعة والخِفَّةُ ، ومنه قول عُتبة بن غَزْوان (ت١٧هـ): « إِنَّ الدنيا قد أدبرت حَذَّاءَ ، فلم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء » ، أي سريعة الإدبار . انظر : رسالة الصاهل والشاحج ص ٢١٢ . والإغذاذ في السَّيْرِ : الإسراع والجِدُّ فيه .

(٢) بَذَّ الرجل أصحابَهُ إذا سبقهم وغلبهم ، وكلُّ غالبٍ باذٌ ، والعربُ تقول بذَّ فلانٌ فلانًا ... إذا ما علاه وفاقه في حُسْنٍ أو عملٍ كائنًا ما كان .

(٣) العوائق : واحدها العائقة أَو عَوْق على غير قياس ، وعوائق الدهر : الشواغل من أحداثه . ووَكْفٌ: غزيرة . وتُرَذُّ: تَقِلُّ وتندر . والفَذُّ : الفَرْدُ .

※ الشعر من بحر الوافر .

(٤) السابقون : الذين سبقوا الناس أولًا إلى الإيمان بالله ورسوله من المهاجرين والأنصار، والحُضْرُ : العدوُ ، ومنه فَرَسٌ مِحْضِيرٌ أي كثير العَدْوِ . وإيقاع صدر البيت ومعناه يستحضران قول الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ) [من الوافر] :

أُحِبُّ الصالحِينَ وَلَستُ مِنهُم ... لَعَلِّي أَن أَنالَ بِهِم شَفاعَهْ

(٥) الحُزْنُ والحَزَنُ : خلاف السرور والفَرَح ، وقد فرَّق ابن الأعرابي(ت٢٣٠هـ) ، ومحمد بن حبيب (ت٢٤٥هـ) بينهما فقالا: الحُزْنُ : ما ثبت في القلب فلم يُسْلَ ، والحَزَنُ بفتحتين : ما سَلاهُ صاحبُ المصيبة .

[حرف الراء]

الحازمُ إذا وَرَدَ صَدَر ، وإذا رأى فُرْصَةً ابْتَدَر[1] ، لا يَعافُ الكَدَر ، ولا يُسْخِطُ القَدَر[2] ، ويعفُو إنْ قَدَر:

لله مَنْ لم تَنَمْ حـــزامَتُـــهُ ... مَهْما يَرِدْ في مُلِمَّةٍ صَدَرا [3]
إذَا رأى فُرْصَةً قَدِ ابْتَدَرَتْ ... قامَ لها في الرِّكابِ وابْتَدَرا [4]
وليسَ شيءٌ إليـهِ مِنْ كَرَمٍ ... أحَـبَّ مِنْ عَفْوِهِ إذا قَدَرا
يُؤْثِــرُ بالصَّفْــوِ ذا مَوَدَّتِهِ ... عَنْ طِيبِ نَفْسٍ ويَشْرَبُ الكَدَرا
إنْ جَــرَّ مالا يُريـدُهُ قَدَرٌ ... أبْدَى رِضاهُ وأكْرَمَ القَدَرا [5]

(١) الحازمُ : مَنْ ضبط أُموره وأخذها بالثقة . ووَرَدَ : حَضَرَ . وصَدَرَ : رجع . والفُرْصَةُ : الشِّرْبُ والنَّوْبَةُ والنُّهْزَةُ . وابتدر : أَسْرَعَ وأَقْدَمَ .

(٢) عافَ : كَرِهَ. والكَدَرُ : العكر، خلاف الصفو ؛ ومنه المَثَلُ القائل : « خُذْ ما صَفَا ، ودَعْ ما كَدَر ». ويُسْخِطُ : يُسَفِّهُ ، وسخط الشيء : كَرِهَهُ . والقَدَرُ : ما يُقَدِّرُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ القضاءِ والحُكْمِ ، ويجمع على أقْدارٍ .

* الشعر من المُنْسَرِح .

(٣) لم تَنَمْ حزامَتُهُ : لم تَغِبْ صَرامَتُهُ؛ ومنه قول مَعْن بن أوْس المُزَنِيّ (ت٦٤هـ) [من البسيط] :

إذا تقاعَسَ صَعْبٌ في حُزامَتِهِ ... وإن تعرَّضَ في خيشومِهِ صَيَدُ
رُضناهُ حتَّى يُذِلَّ القَسْرُ هامَتَهُ ... كما استَمَرَّ بكفِّ الفاتِلِ المَسَدُ

والمُلِمَّةُ : النازلةُ الشديدة من شدائد الدنيا ونوازل الدهر ، وتُجْمَعُ على مُلِمّاتٍ . ويَرِدُ : يقعُ أو يَسْقُطُ .

(٤) الرِّكابُ : واحدها الرَّكْبُ ، وهم أصحاب الإبل في السَّفَرِ دون الدوابِّ ، ورُكْبان اسمٌ للجمع ، وليس بتكسير راكِب .

(٥) جرَّ : جَلَبَ : وجَرَّ عليهم جَرِيرةً ، أي جنى عليهم جنايةً .

[حرف الزاي]

العَجَبُ مِنْ ذي اغْترارٍ واعْتزاز ، يَعْلَمُ أَنَّهُ على وِفاز(١) ، وأَنَّ الظُّلْمَ إلى قِصاصٍ وتَجازٍ ، وأنَّ اللهَ بمثقال الذَّرَّةِ مُجازٍ(٢) ، كيف يُخالِفُ الحقيقةَ إلى مَجازٍ(٣) ، ويطمحُ أَمَلُهُ والمَوْتُ مُوازٍ ؟ ألا إنَّهُ في حبائِلِ المنيَّةِ نازٍ(٤) ، كعُصفورةٍ في مِخْلَبِ بازٍ(٥) :

---

(١) الوِفازُ : واحدها الوفْزُ والوَفَزُ ، وهي العَجَلَةُ ؛ ومنه قول أبي العتاهية (ت ٢١١ هـ) :

وَهذا الخَلقُ مِنكَ عَلى وِفازٍ ... وَأَرجُلُهُم جَميعًا في الرِّكابِ

والبيت من بائيته الذائعة [من الوافر] :

لِدوا لِلمَوتِ وَابنوا لِلخَرابِ ... فَكُلُّكُمُ يَصيرُ إِلى ذَهابِ

ويُقَالُ : قعدتُ على أَوْفازٍ أو وِفازٍ ، إذا قعدتُ على غير طمأنينة .

(٢) القِصاصُ : الحسابُ والتناصف . والتجازي : الإدراك والمقاضاة . والمثقال : وَزْنٌ معلومٌ قَدْرُهُ ، ومثقالُ الشيء : مِيزانُهُ من مِثْلِهِ ، ومعناه أن الله مكافئ الإنسان عن عمله مهما صَغُرَ ، ويوظِّفُ ابن أبي الخصالِ في هذا السياق قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء٤٠] ، وانظر : يونس ٦١ ، سبأ ٣ ، ٢٢ ، والزلزلة ٧ ، ٨ .

(٣) الحقيقة في اللغة : ما أُقِرَّ في الاستعمال على أصل وَضْعِه ، والمجاز ما كان بضد ذلك ، وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعانٍ ثلاثة : هي : الاتساع والتوكيد والتشبيه ، فإنْ عَدِمَ هذه الأوصاف كانت الحقيقة البَتَّة .

(٤) يطمح : يجمع ويتمادى . ومُوازٍ : محاذٍ لك ملتصق بك . والحبائل : مفردها الحِبالةُ ، الشَّرَكُ الذي يُصادُ به ، ويُكْنَى بالحِبالةِ عن الموت ؛ ومنه قول لبيد بن ربيعة (ت ٤١ هـ) [من الطويل] :

حَبائِلُهُ مَبثوثَةٌ بِسَبيلِهِ ... وَيَفنى إِذا ما أَخطَأَتهُ الحَبائِلُ

ونازٍ : واثِبٌ ، اسم فاعل من نزا ينزو نَزْوًا فهو نازٍ ، والعرب تقول في أمثالها : « إذا نَزَا بك الشَّرُّ فاقعدْ » ، يضرب في الحلم وكَظْمِ الغَيْظِ ؛ أي لا تسرع إلى الشَّرِّ وإن أُحوِجْتَ إلى المسارعة إليه .

(٥) المِخْلَبُ للطائر والسِّباع بمنزلة الظُّفْر للإنسان ، وقيل : المخلبُ لما يصيدُ من الطير ، والظفر لما لا يَصيدُ . والبازي من سباعِ الطيرِ ، وأقلها نَسْلًا ، ويُجْمَعُ على البُزَاةِ .

* الشعر من بحر الوافر .

[٧٨/ ب] عَجِبْتُ لذي اغترارٍ واعتزازِ ... وذي سَـفَـرٍ أطَـلَّ على وِفـازِ [1]
تَبَسَّطَ في الذُّنوبِ وفي الخَطَـايا ... ويَشْهَدُ بالقِصاصِ وبالتَّجازي [2]
يُجَـاهِرُ بالكبائرِ عَـدْلَ رَبٍّ ... على مِثْقالِ ذرَّتِها مُجَـازِ [3]
مُنـافٍ للحقيقـةِ مُسْـتَريحٍ ... إلى خُدَعِ الإحالةِ والْمَجـازِ [4]
تَخَطَّى الأرْضَ آمـالًا طِـوالًا ... ومُهْلِكُـهُ يُحَـاذي أو يُـوازي
تُقَدِّرُ وَيْـكَ أنَّكَ مِنْـهُ نـاجٍ ... وإنَّـكَ في حَبـائِلِهِ لَنَـازِ
وما الإنْسَـانُ مَهما حَـادَ عَنْهُ ... سِـوى عُصْفُورةٍ في كَفِّ بازِ ! [5]

(١) أطلَّ : أقبل وأشرف .
(٢) تبَسَّطَ : تمادى في غير احتشام . والذَّنْبُ : الجُرْمُ والإثم والمعصية ، وفعله مما لم يسمع له بمصدر منه . والخطايا : الآثام ، ومفرده الخطيئة؛ ومنه قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء٨٢] .
(٣) جاهَرَ بالأمر : صَدَعَ به مُظْهِرًا إياه . والكبائر : الذنوب التي تُوجب لأهلها النار ، وهي المنهيُّ عنها شرعًا كالقتل والزِّنا ، والفرار من الزحف وغيرها من الفِعَالِ القبيحةِ ، ومفردها الكبيرة .
(٤) خُدَعُ : مفردها خَديعةٌ ، وهي المكيدة والمخاتلة بُغْيَةَ إيقاع المكروه دون عِلْمِ مَنْ حِيكَتْ ضِدَّهُ أو له . والإحالة : نمطٌ من الإفراط وشعبة من الإغراق .
(٥) حاد : مال وعدل ، والضمير في « عنه » عائدٌ على « مهلكه » .

[حرف السين]

يا ناعِمَةَ الخَمْسِ[1] ، عَهِدْناكِ بالأَمْسِ ، تُحْجَبينَ عَنِ الشَّمْسِ ، وتَدْمَيْنَ مِنَ اللَّمْسِ[2] ، وَتَرْتَاعِينَ مِنَ الهَمْسِ ، فما حالُكِ في الرَّمْسِ ؟[3] :

باللهِ يا ناعِمَــــةَ الخَمْـــسِ	أَحُلْتِ عَنْ عَهْـدِكِ بالأَمْسِ ؟
قُومُـوا انْظُروا كَيْفَ ضَحا ظِلُّهُ	مَنْ كانَ مَحْجـوبًا عَنِ الشَّمْسِ ؟
وكَيْفَ عــاثَ التُّرْبُ في أَنْمُلٍ	قَـدْ كُنَّ يَدْمَيـنَ مِنَ اللَّمْسِ ؟[4]
كَيْفَ اسْتطــاعَ القَبْرَ في رَوْعَةٍ	مَنْ كانَ يَرْتـاعُ مِنَ الهَـمْسِ ؟[5]
حـــالُكِ فينـا قبلُ مَعْلومَةٌ	إيـهِ ! فما حـالُكِ في الرَّمْسِ ؟![6]

(١) الناعمة : المُنَعَّمَةُ الرقيقة . وعَهِدَ : أَلِفَ . وتدمى : تضمخ بالدم ؛ ومنه قول الحُصَيْنِ ابن حِمام المُرّيِّ (ت ١٠ ق . هـ) [من الطويل] :

فَلَسنا على الأَعْقابِ تَدْمَى كُلومُنا　　وَلَكِنْ على أَقدامِنــا تَقْطُرُ الدِّما

(٢) ترتاعين : تفزعينَ . والهَمْسُ : الصوتُ الخَفِيُّ ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه١٠٨] . والرَّمْسُ : القَبْرُ ، وما يُحْثي على المَيِّتِ من التراب، وقيل : ما دام مستويًا مع الأرض ، ويجمع على أرْماسٍ ، ورموس .

* الشعر من بحر السَّريع

(٣) ضحا : تلاشى وتبدَّدَ وبَعُدَ . والظِّلُّ : ضوءِ الشمس دون شعاع ، وقيل: كل موضع تكون فيه الشمسُ فتزول .

(٤) عاثَ : أسرعَ في الفسادِ بغير رِفْقٍ . والأَنْمُلُ : رؤوس الأصابع ، وقيل : هي المفاصل العليا التي فيها الظفر من الأصابع . واللَّمْسُ : المَسُّ برفقٍ باليد .

(٥) استطاع : تَحَمَّلَ . والرَّوْعَةُ : الفَزْعَةُ والدهشةُ تأخذُ الإنسانَ من أمرٍ جَلَلٍ .

(٦) إيه : كلمة استزادة واستنطاق ، تُبْنى على الكَسْرِ وقد تُنَوَّنُ ... وفي الحديث النبويِّ الشريف أنه لما أنشد شعر أُمَيَّةَ بن أبي الصَّلْتِ (ت ٥ هـ) قال ﷺ : عند كُلِّ بيتٍ : إيهِ . وإنْ وُصِلَتْ نُوِّنَتْ فقلت : إيهٍ حَدِّثنا ؛ وقد وردت في شعر لذي الرُّمَّةِ (ت١١٧هـ) يقول فيه [من الطويل] :

وَقَفنا فَقُلنا إيهِ عَنْ أُمِّ ســالِمٍ　　وَما بالُ تكليمِ الدِّيارِ البَلاقِعِ

أراد حَدِّثْنا عن أُمِّ سالم. انظر تخطئة الأصمعي (ت٢١٥هـ) لذي الرُّمَّةِ في المُحْكَم مادة (أ.ي.هـ).

[حرف الشيّن]

واللَّيْلِ إذا يَغشى[١] ، والصُّبْحِ إذا فَشا[٢] ، والبَرْقِ إذا تمَشَّى ، إنَّ العُيونَ لَتَعْشى[٣] ، وإنّا لنأمَنُ ما نَخْشى ، ما أبْطَرَ الـمُصْرِمَ إذا أمْشى[٤] ، وأعْمى عيْنَ الحكيمِ إذا ارْتَشى[٥] :

أمَا والنُّجومِ الزُّهْرِ واللَّيْلِ إذْ يَغْشى ... وغُـرَّةِ فَجْرٍ في مآخِـرِهِ تُغْشى[٦]
وَبَرْقٍ تمَشّى في فـروعِ غمامَـةٍ ... فأذْهَبَ مِنْ أعْطافِها كُلَّ ما مَشّى
لقـدْ رانَتِ الدُّنيـا على كُلِّ مُقْلَةٍ ... فحارَتْ وهل يُهْدَى إلى قَصْدِهِ الأعْشى[٧]

---

(١) اقتباسٌ قرآنيٌّ للآية الأولى من سورة الليل . ويغشى : أي يُغَطِّي بظلمته كل ما بين السموات والأرض ، ولم يُذْكَرْ معه مفعولٌ به للعلم به .

(٢) توظيف للآية الثانية من سورة الليل ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ . وفشا وتجلّى بمعنى واحد ، وهو إذا انكشف وظهر بضوئه عن ظلمة الليل .

(٣) توظيف لقوله تعالى : ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ ﴾ [البقرة٢٠] ، وقوله أيضًا : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور٤٣] . وتعشى : تعمى أو يضعف بَصَرُهَا ، والعَشا (مقصور) سُوْءُ البَصَرِ بالليل والنهار ، ويكون في الناس والدَّوابِّ والإبل والطير ، وقيل : هو ذَهَابُ البصرِ .

(٤) البَطَرُ : غَمْطُ النعمة والطغيانُ بها ، واسْتُعْمِلَ بمعنى الكِبْرِ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [القصص٥٨] ، وما أَبْطَرَ أي ما أطغى. والمُصْرِمُ : من ساءت حالُه، وفيه تماسُكٌ بَعْدُ ، ومنه : بَقِيَتْ له صِرْمَةٌ من المال ، أي قطعة منه . وأَمْشَى الرجلُ إذا كثرت ماشيتُه ، ومنـه قول النابغـة الذبياني (ت ١٨ ق . هـ) [من الوافر] :

وكل فتًى وإنْ أثرى وأفشى ... سَتُخْلِجُهُ عن الدنيـا مَنونُ

(٥) الحكيم :القاضي ، العَدْلُ الحليم . ارتشى . تَلَقّى ما يحول بينه وبين النطق بالحق .

* الأبيات من بحر الطويل .

(٦) الزُّهْرُ : البيضاء . وغُرَّةُ كلِّ شيءٍ : أَوَّلُه وأكرمُه . ومآخِرُ الشيءِ واحده مُؤَخَّرٌ ، أي نهايته .

(٧) رانَ : غلب وغطّى ، ومنه قوله تعالى:﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين١٤] . والمُقْلَةُ : شحمة العين التي تجْمَعُ البياض والسَّوادَ ، وقيل : بل هي العَيْنُ كلها ، =

وَنِمْنا على مَسْرى الخُطوبِ ورُبَّما | تَوقَّتْ سَوامُ رُتَّعٌ بَعْضَ ما تَخْشى[1]
وما داؤُنا إلاّ غِنًى بَعْدَ حاجَةٍ | كأنَّكَ لم تَنْظُرْ إلى مُصْرِمٍ أمْشى
[٧٩/أ] [فلا تَقْتَبِسْ] مِنْ مُرْتَشٍ نورَ حِكْمَةٍ | فَقَدْ عَمِيَتْ عَيْنُ الحكيمِ الذي يُرْشى

= وتُجْمَعُ على مُقَلٍ . ويُهْدِي : يُرْشِدُ ويَدُلُّ . والقَصْدُ : الغَرَضُ ، أو الغاية . والأعشى : مَنْ ساء بَصَرُهُ من غير عَمًى ، وقيل : هو الذي لا يُبْصِرُ بالليل ، ويرى بالنهار .

وفي عَجُزِ البيت توريةٌ لطيفةٌ ، تستدعي قصة إقدام الأعشى (ت ٧ هـ) على النبي ﷺ مادحًا ، فاعترض طريقَهُ مَنْ حال دونه والنبي ، قائلًا : إنه يُحَرِّمُ عليك الزِّنا والخمر ، فقال : أما الزنا فقد كبرت ، ولا حاجة لي فيه ، وأما الخَمْرُ فلا أستطيع تركها ، وعاد لِيَتَدبَّرَ أَمْرَهُ ، فمات دون إسلام « فحالت المنيةُ دون الأمنية » على حد تعبير المظفر العلوي (ت ٦٥٦ هـ) . وطالع قصيدته هو:

أَلَمْ تَغتَمِض عَيناكَ لَيلَةَ أَرمَدا | وَعادَكَ ما عادَ السَّليمَ المُسَهَّدا
وَما ذاكَ مِن عِشقِ النِساءِ وَإِنَّما | تَناسَيتَ قَبلَ اليَومَ خُلَّةَ مَهدَدا
وَلَكِن أَرى الدَّهرَ الَّذي هُوَ خاتِرٌ | إِذا أَصلَحَت كَفّايَ عادَ فَأَفسَدا

حتى انتهى إلى قوله [من الطويل] :

نَبِيٌّ يَرى ما لا تَرَوْنَ وَذِكْرُهُ | أَغارَ لَعَمري في البِلادِ وَأَنجَدا
لَهُ صَدَقاتٌ ما تُغِبُّ وَنائِلٌ | وَلَيسَ عَطاءُ اليَومِ مانِعَهُ غَدا
أَجِدَّكَ لَم تَسمَعْ وَصاةَ مُحَمَّدٍ | نَبِيِّ الإِلَهِ حينَ أَوْصى وَأَشْهَدا

(١) المَسْرَى : المَسْلَكُ أو الدَّرْبُ . والخُطوب : مفردها الخَطْبُ ، وهو الأمر صَغُرَ أو عَظُمَ ، ومن المجاز : خطوب الدَّهرِ ، أي فوادحه ونوازله . تَوقَّتْ: حُفِظَتْ . والسَّوامُ : المال الراعي ، وأكثر ما يُقالُ للإبل خاصّة . والرُّتَّعُ : الإبل المتروكة ترعى كيف شاءت في خِصْبٍ وسِعَةٍ .

[حرف الصّاد]

ذَهَبَتِ الفُرَص ، وَبَقِيَتِ الغُصَص [1] ، وَتُرِكَتِ العَزائِمُ والرُّخَص [2] ، فأَيْنَ المَلْجأُ والْـمَخْلَص ؟ متى رأيتَ الشَّبابَ يُقْتَنَصُ [3] ، هَيْهاتَ ؛ فاتَكَ القَنَصُ ، فاليومَ تَظمأُ وتَخْمَصُ [4] :

ذَهَبَتْ بِلَذَّتِهـا الفُـرَصْ وَبَقِيتَ تَشْرَقُ بالغُصَصْ [5]
وَخَرَجْتَ عَنْ حَـدِّ الدِّيا نَةِ في العَـزائِمِ والرُّخَصْ
وَظَلِلْتَ تَطْمَعُ في الخَـلا صِ وليس مِثْلُكَ مَنْ خَلَصْ
وَخَضَبْـتَ تَقْتَنِصُ الشَّبا بَ ولَيْسَ مِمَّـا يُقْتَنَصْ ! [6]

---

(١) الفُرَصُ : واحدها الفُرْصَةُ ، وهي الشِّرْبُ والنَّوْبَةُ والنُّهْزَةُ . والغُصَصُ : واحدها الغُصَّةُ والشجى ، وقال ابن دُرَيْد (ت ٣٢١ هـ) : الغُصَّةُ : ما اعترض في الحَلْقِ وأشرق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [المزمل١٣] .

(٢) العزائم : الفرائض التي أوجبها اللهُ على عباده ، وأمرهم باتِّباعها ، ومفردها العزيمة ، ولها معانٍ أخرى تراجع في: تهذيب اللغة ولسان العرب (ع.ز.م) . والرُّخَصُ : ما أَذِنَ به اللهُ لعباده بعد النهي عنه تخفيفًا عنهم ؛ ومنه الحديث النبوي الشريف : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ أن تُؤْتَى رُخَصُهُ ، كما يُحِبُّ أن تؤتى عزائمُه » .

(٣) الملجأ : الملاذُ . والمَخْلَصُ : المَفَرُّ والسَّلامة . ويُقْتَنَصُ : يُسْتَعَادُ ويُسْتَرَدُّ .

(٤) هيهات : كلمة تبعيد بمعنى بَعُدَ ، تُقْرَنُ بالشيء لا يرجى تحققه أو نواله ، ومنه قوله تعالى : ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ [المؤمنون٣٦] ، وقول جرير (ت ١١٠ هـ) [من الطويل] :

فهيهاتَ هيهاتَ العَقيقُ وأهلُهُ وهيهاتَ خِلٌّ بالعقيقِ نُواصِلُهُ

فاتَكَ : ذَهَبَ عنك ووَلَّى . والقَنَصُ : الصَّيْدُ . وتَخْمَصُ : تجوعُ .

* الأبيات من مجزوء الكامل .

(٥) تَشْرَقُ : تشجي وتألم ، والشَّرَقُ بالماءِ كالغَصِّ بالطعام ، وهو أن يقع في غير مَساغِهِ .

(٦) خَضَبْتَ : صَبَغْتَ الشَّعْرَ بالحِنَّاءِ . وتَقْتَنِصُ : تَسْتَعِيدُ وتَسْتَرِدُّ .

فَلْتَقْرَعَنَّ السِّنَّ مِنْ … نَدَم فَقَدْ فاتَ القَنَصْ[1]
واليَوْمَ تَظْمأُ فَوْقَ ما … لَمْ تَحْتَسِبْهُ مِنَ الخَمَصْ !

[حرف الضاد]

طُوبَى لِمَنْ وفَّى الفَرْضَ[2] ، وأَحْسَنَ القَرْضَ[3] ، وخافَ العَرْضَ ، وتأمَّلَ السَّماءَ والأَرْضَ ، وشَدَّ الرَّحْلَ والغَرْضَ[4] ، وحاسَبَ نَفْسَهُ فلم يَرْضَ :

(١) « قرع سِنَّ النَّدَم » مِن أمثال العرب في الندامة ، وقد وظَّفه ابنُ الأبَّار في حرف الطاء من معارضته لرسالة المعري أيضا ، فقال : « وقَرَعَ سِنَّ النَّدَم على شَرِّهِ المُتأبِّطُ ...

وإيَّاكَ والتفريطَ في البِرِّ والتُّقى … فكم قرعَ السِّنَّ الذَّهولُ المُفَرِّطُ »

انظر : معارضة ابن الأبَّار بتحقيقي (مجلة كلية دار العلوم ، إصدار خاص ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م) ص ٥٠ .

(٢) وَفَّى الأمْرَ : أَتَمَّهُ دون نُقصانٍ . والفَرْضُ : ما أوجبه الله تعالى على عباده ؛ وسُمِّيَ بذلك لأنَّ له معالم وحدودًا واضحة ، ومنه قوله تعالى على لسان إبليس : ﴿ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ [النساء١١٨] ، أي قدرًا مقتطعًا محدودا .

(٣) توظيف لقوله تعالى : ﴿ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [الحديد١٨] . والقَرْضُ : ما تعطيه من المال لتُقْضاه ، وقيل ما سَلَّفْتَ من إحسان وإساءة ، ويجمع على قروض ، ومنه قوله عزَّ وجَلَّ : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة٢٤٥] ، وفَسَّرَ أبو إسحاق النحويّ القَرْضَ هنا بالبلاء الحَسَنِ . انظر : التاج (ق.ر.ض) .

(٤) الرَّحْلُ : مَرْكَبُ البعير والناقة ، وهو من مراكب الرجال دونَ النساء ، ويُجْمَعُ على أَرْحُل ورِحَالٍ ، وقد ورد في قول طَرَفَة بن العَبْدِ (ت ٦٠ ق . هـ) [من الرَّمل] :

جازَتِ البيدَ إلى أَرْحُلِنا … آخِرَ اللَّيلِ بِيَعفورٍ خَدِرْ

والغَرْضُ ، بالتحريك : حِزامُ الرَّحْلِ .

* الأبيات من بحر السريع .

طُوبى لِعَبْدٍ أكْمَلَ الفَرْضا وأَحْسَنَ النِّيَّةَ والقَرْضا[1]
يَعْرِضُ بَلْواهُ على رَبِّهِ ويَحْذَرُ المَوْقِفَ والعَرْضا
مُسْتَصْحِبَ العَبْرَةِ مهما رَنا إلى السَّماءِ ابْتَدَرَ الأرْضا[2]
إنْ لَمْ يَنَلْ صالِحَةً وادِعا شَدَّ إليها الرَّحْلَ والغَرْضا[3]
كَمْ ساءَ ظَنًّا بالَّذي سَرَّهُ وحاسَبَ النَّفْسَ فَلَمْ يَرْضا

[حرف الطاء]

يا سائِلَ الشَّطَطِ[4] ، ونائِلَ الخُطَطِ[5] ، وقائِلَ الهُجْرِ والغَلَط[6] ، أمَا خَشِيتَ مِنَ اللَّقَطِ ؟ فكَمْ بَحْرٍ تدفَّقَ مِنَ النُّقَط[7] :

(١) النِّيَّةُ : القَصْدُ ، وقيل : ما يُضْمِرُ الإنسانُ بقلبه من خيرٍ أو شَرٍّ .
(٢) العِبْرَةُ : العِظَةُ والاعتبار لما مضى . ورنا إلى الشيء : أدامَ النظرَ إليه .
(٣) نال فلان من المكارم وادعًا : أي من غير أن يُكَلِّفَ نفسه مَشَقَّةً ، وجاء وادعا أي ثانيا من عِنانِه .
(٤) الشَّطَطُ : الجَوْرُ ، ومجاوزة القَدْرِ في كل شيء ، ومنه الحديث النبوي الشريف : « لها مَهْرُ مِثْلِها ، لا وَكْسَ ولا شَطَطَ » . أي لا نقصانَ ولا زيادة . الصحاح (ش.ط.ط) . والسائل : الطالِبُ والدَّاعِي .
(٥) الخُطَطُ : المناصب الرفيعة ، مفردها الخُطَّةُ ، وهي مفردةٌ شائعةُ الاستخدام في العُدْوَتين (الأندلس والمغرب) ، كخطة القضاء ، وقد قال أبو المطرف أحمد بن عبد الله المخزوميّ [من الخفيف] :

قد عكفنا على الكتابة حينًا وجاءتْ خُطَّةُ القضاءِ تليها

ومنها خُطَّةُ الكتابة والوزارة والسُّوق والمواريث والحِسْبَة والعلامة والاشتغال والإشراف والأحكام ... وغيرها . انظر : الإحاطة في أخبار غرناطة (مواطن متفرقة) .
(٦) الهُجْرُ : القبيحُ من القول ، وقيل: الإفحاش في المَنْطِق ، وقول الخَنا . والغلط : أن تعيا بالشيء فلا تعرف وَجْهَ الصوابِ دون قصد أو تعمُّدٍ .
(٧) اللَّقَطُ : ما التُقِطَ من الشيء ، وهو القليل منه ، والواحدة لَقَطَةٌ . كَمْ : اسم ناقص مُبْهَمٌ ، =

يا ســـائِلًا سَفَهَ الشَّطَـطْ　　إذْ نــالَ زائِلَـةَ الخُـطَـطْ
هَـلّا صَرَفْتَ الفَضْـلَ مِنْ　　هُجْـرِ المَقـــالَةِ والغَلَطْ (١)
وَخَشـيتَ مُلْتَقِـطًا عليـ　　ـكَ مُوَكَّـلًا بالمُلْـتَقَـطْ (٢)
لا تَحْـقِـــرَنَّ صَـغِيرَةً　　إنَّ البُحـورَ مِنَ النُّقَطْ ! (٣)

= مبني على السكون . وله موضعان : الاستفهام والخبر ، تقول إذا استفهمت :كم رَجُلًا عندك ؟ ونصبتَ ما بعده على التمييز . وتقول إذا أخبرتَ : كم درهم أنفقت ؟ وخفضت ما بعده ، تريد التكثير ، نقيض « رُبَّ » التي تفيد التقليل . وتَدَفَّقَ : انصبَّ دَفْعَةً واحدة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق٦] ، أي مدفوق ، وهو مما أخرجته العربُ بلفظ فاعل ، وهو بمعنى مفعول ، والنُّقَطُ : القطرات من الماء والنَّدى ، ومفردها النقطة .

وقد عكس أبو مَدْين التلمساني (ت ٥٩٤ هـ) المعنى فقال [من البسيط] :

وما ذنوبُ الورى في جَنْبِ رحمتِهِ　　وهل يُقاسُ بِفَيْضِ الأبْحُرِ النُّقَطُ

ويشبه معنى ابن أبي الخِصالِ قولَ المعرّي (ت ٤٤٩ هـ) من الوافر :

وقـد يَنْمي كبيرٌ مِن صَـغِـيرٍ　　ويَنْبُتُ مـن نوى القَسَـبِ اللِّيانُ

واللِّيانُ : النخيل ، ومفردها لِينَةٌ .

* الشعر من مجزوء الكامل .

(١) الفَضْلُ : ما تَبَقّى من الشيء . والهُجْرُ : الفُحْشُ . والمقالة : القولُ الفاشي في النّاس .

(٢) المُلْتقِطُ : المُحْصِي ، وهو الملك المُفَوَّضُ برصد أفعال العِبادِ . والمُوَكَّلُ : المُفَوَّضُ بالأمر يُدَبِّرُهُ ويُسَيِّرُهُ .

(٣) لا تحقرنَّ : لا تستصغرنّ، والتحقير: التصغير والتسفيه ، ومن أمثالهم في باب اصطناع المعروف، وإن كان يسيرًا قولهم : « مَنْ حقر حُرِمَ » ، والبيت مأخوذ من قول البحتري (ت ٢٨٤ هـ) [من البسيط] :

لا تَحْقِرَنَّ صَغيرَ العُرْفِ تَبذُلُهُ　　فَقَدْ يُرَوِّي غَليلَ الهائِمِ الثَّمَـدُ

وقريبٌ منه قولُ ابن رشيقِ القيرواني (ت ٤٦٣ هـ) [من البسيط] :

لا تَسْتَطيلُوا عَلى ضَعْفي بِقُوَّتِكُمْ　　إِنَّ البَعُوضَةَ قَدْ تَعدو على الفِيلِ

[حرف الظاء]

[٧٩/ ب] الظَّالِمُ يَفيظ (١) ، وهُوَ على نَفْسِهِ حَفيظ ، ولا يُذْهِبُ كَيْدُهُ ما يَغيظ (٢) ، [يَحْظى الوَشيظ] (٣) ويُجْبَسُ ذو الجَدِّ الحَظيظ (٤) ، لا يَسْتَوي الرَّؤوفُ والفَظُّ الغَليظ (٥) :

ذُو الظُّلْمِ في ظُلْمِهِ يَفيظُ وَهْوَ على نَفْسِهِ حَفيظُ
غِيظَ على كَيْدِهِ ولكِنْ لم يُذْهِب الكَيْدُ ما يَغيظُ

(١) الظالم : الباغي ، والظُّلْمُ : وضع الشيء في غير موضعه . ويفيظ : يموتُ ، ومنه فاظتْ نفسُه أي خرجت ، وقد وردت في شعر الصنوبري (ت ٣٣٤ هـ) يقول [من الكامل] :

فاظَتْ إلى تلكَ الليالي مُهجَتي شوقًا وكان على يديك فُواظي

(٢) يُذْهِبُ : يُزيلُ ويُبَدِّدُ ، ومنه قراءة أبي جعفر المدني ، وهي نادرة ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يُذْهِبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور٤٣] ، والكَيْدُ : المَكرُ والخُبْثُ والحِيلَةُ ؛ ومنه قوله عزَّ وجَلَّ : ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف٥] ، وما يغيظ : أي ما يُغْضِبُ ، والغَيْظُ : الغَضَبُ ، وقيل : أشدُّه ، وقيل: سَوْرَتُه وأوله.

(٣) يحظى حظوة أي ينال المَنْزِلَةَ من ذي سلطان . والوَشِيظُ : الخسيس من الناس ، ويُجْمَعُ على الوشائظ ، والوشيظ من الناس : لفيفٌ ليس أصلهم بواحد ، ومنه قول الأخطَلِ (ت ٩٠ هـ) يمدح عبد الملك بن مروان (ت ٩٦ هـ) [من الطويل] :

علَى ابنِ أَبي العاصي قُرَيشٌ تَعطَّفَتْ لَهُ صُلبُها لَيسَ الوَشائِظُ كَالصُّلبِ

وقول الأبيوَرْدي (ت ٥٠٧ هـ) [من الطويل] :

أُواضِـعَ جفْنِي فَوْقَ آخرَ مِنْ كَرًى متى لَحِقَتْ شأْوَ الصَّميمِ الوَشائِظُ

(٤) يُجْبَسُ : يفتقر ، وقيل : يُمْسِكُ أي يُحالُ بينه وما يستحق . وذو الجَدِّ : صاحب البَخْتِ والحظ في الدنيا ، وقيل : صاحب الغِنى . والحظيظ : الغَنِيُّ الموسِرُ .

(٥) الفَظُّ : الجافي . والغليظُ : الشديد القساوة ، وابنُ أبي الخِصالِ يُوظِّفُ قوله تعالى مخاطبًا نَبِيَّهُ الكريم : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران١٥٩] .

* الشعر من بحر المنسرح .

فاعْمَــلْ ولا تتَّــكِلْ لِـدارٍ　　يَحْظى بها المُلْصَقُ الوَشِيظُ [1]
وتَحْبِسُ الماجِــدَ المُفَــدَّى　　وَهْــوَ على رَغْمِهِ حَظيظُ [2]
لا يَسْتوِي الرَّاحِمــونَ حقًّا　　وَالفظُّ حَيْزُومُـهُ الغَليظُ [3]

[حرف العين]

اسْتفزَّتْكَ الخُدَع ، واسْتَقادَتْكَ البِدَع [4] ، والمَوْتُ لا يُبْقي ولا يَدَع [5] ،

(١) وَكَّلَ فلانٌ فلانًا : إذا استكفاه أمره ثقةً بكفاءته ، أو عَجْزًا عن القيام بأمر نفسه ، والتَّوَكُّلُ : إظهار العجز والاعتماد على الغير المُفْضِيان إلى ضياع الأمر . وللدار معانٍ متعددة ولكن المقصود هنا الدار الدُّنيا ، وقيل : المُلْصَقُ : الرَّجُلُ المقيم في الحَيِّ ، وليس منهم بِنَسَبٍ .

(٢) الماجدُ : الكريم ، قال ابن السِّكِّيت (ت ٢٤٤ هـ) : الشَّرَفُ والمجدُ يكونان بالآباء ... والحسب والكرم يكونان في الرَّجُلِ وإن لم يكن له آباءٌ لهم شَرَفٌ . والحظيظ : الغَنِيُّ الموسِرُ ، وقيل : مَنْ كان ذا حَظٍّ من الرزقِ .

(٣) الحيزوم : وسط الصدر حيث تلتقي الجوانح ، وتُجْمَعُ على « الحيازيم » ، ويُقالُ للرجل إذا تَشَمَّرَ للأمرِ : شَدَّ حيازيمه .

(٤) استفزَّه : خَتَلَهُ حتى ألقاه في مَهْلَكَةٍ ، وقيل : استَخَفَّهُ وطيَّر فؤادَه . والخُدَع : واحدها الخديعةُ ، وهي المخاتلة أو المراوغة لإيقاع المكروه . واستقادتك : استهوتك فخضعت لها ولِنْتَ . والبِدَعُ : واحدها البِدْعَةُ ، وهي الحَدَثُ في الدِّينِ بَعْدَ الإكمال .

(٥) « لا يبقي ولا يدع » تركيب شائع الورود متلازمًا ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴾ [المدثر ٢٦- ٢٨] ، ومثله قول ابن حَمْدِيس الصِّقِلِّيِّ (ت ٥٢٧ هـ) [من البسيط] :

قامَ الدّليلُ ويحيى لا حياةَ لهُ　　إنَّ المنِيَّةَ لا تُبقي ولا تَــذَرُ

وقوله من أخرى [من الكامل] :

وَرَمَى عِداهُ بكلِّ داهيَةٍ　　دهيـاءَ لا تُبقي ولا تذَرُ

أَنْفُ العَزيزِ يُجْتَدَعُ[1] ، ويُسْتَنْزَلُ الأَعْصَمُ الصَّدَعُ[2] :

حتَّى متى تَسْتَفِزُّكَ الخُــدَعُ ... وَكَمْ وَكَمْ تَسْتَقِيدُكَ البِدَعُ[3]

تأْمُلُ والمَوْتُ وَيْحَ نَفْسِكَ لا ... يُبْقِي عـلى آمِلٍ ولا يَـدَعُ[4]

يا شامِخًـا عِـزَّةً بِمَعْطِسِــهِ ... مَهْلًا فَأَنْفُ العزيزِ يُجْتَدَعُ[5]

لا عِصْمَـةٌ لِلْمَنيعِ مِنْ قَـدَرٍ ... لم يَعْتَصِمْ مِنْهُ أعْصَمٌ صَدَعُ![6]

---

(١) الجَدْعُ : القَطْعُ ، وقيل : القطع البائن في الأنف والأذن والشفة ونحوها ، ويقال : جدعه إذا لقَّاه شرًّا وسخرية كمن يقطع أُذُنَ عَبْدِهُ ويبيعه ، وتقول العرب : كلُّ شيءٍ أخطأَ الأنفَ جَلَلٌ أي هَيِّنٌ ، ومنه : جـدعَ اللهُ أَنْفَهُ أي أَذَلَّهُ .

(٢) الأَعْصَمُ : الوَعِلُ الذي في يديه بياضٌ ، ولا يُرى إلا في أشراف الجبال وقُللها ، ويجمع على العُصْم . والأنثى منه عَصْماءُ ، والصَّدْعُ منه : الفَتِيُّ ، ما كان جسمه ليس بعظيم ولا صغير . وقد حَلَّ ابنُ أبي الخِصالِ معقودَ قول الأعشى (ت ٧ هـ) [من البسيط] :

قَد يَترُكُ الدَّهـرُ في خَلقاءَ راسِيَةٍ ... وَهْيًا وَيُنزِلُ مِنها الأَعْصَمَ الصَّدَعا

ويُجَسِّدُ معنى الشِّقِّ النثري في بيتين لأبي إسحاق إبراهيم بن عثمان الغزي (ت ١٠٤٢ هـ) يقول فيهما [من البسيط] :

هي الحـوادثُ لا تُبْقِـي ولا تَـذَرُ ... ما للـبرِيَّةِ من محْتـومِهـا وَزَرُ

لو كان يُنْجِي عـلوٌ مـن بـوائقها ... لم تكسف الشمس بل لم يخسف القمرُ

* الشعر من المُنْسَرِحِ .

(٣) كَمْ : اسم ناقصٌ مُبْهَمٌ ، مبني على السكون ، يستخدم للاستفهام والإخبار : وهو في السياق يُغْنِي عن الكلام الكثير المتناهي في البُعْدِ والطول ، وعنِ الإطالة غير المحاط بآخرها ولا المستدركة .

(٤) الآمِلُ : الطَّامِحُ ، وقد فرَّق علماءُ العربيةِ بين الأمل والرجاء؛ فالأمل : تَوَقُّعُ حصول الشيء ، وأكثر ما يُسْتَعْمَلُ فيما يُسْتَبْعَدُ حصولُه . والرجاء : تَرَقُّبُ الانتفاع بما تقدَّمَ له سَبَبٌ .

(٥) الشامخ : الرافع أَنْفَهُ عزًّا وتكبُّرًا . والعِزَّةُ : الرِّفْعَةُ والمَنعَةُ والشِّدَّةُ والغَلَبَةُ . والمَعْطِـسُ (بفتح الطاء وكسرها) الأنْفُ .

(٦) العِصْمَةُ : الحِفْظُ والوقاية . والمنيع : المَعْقِلُ المُحَصَّنُ .

[حرف الغين]

خَلِّ جَنْبَيْكَ لِباغٍ ، وتجوَّزْ بِبَلاغٍ[١] ، ولا تَسْمَعْ لِلاغٍ ، ذي قَلْبٍ مُراغٍ ، بَيْنَ يسارٍ وفَراغٍ[٢] :

خَــلِّ جَنْبَيْكَ لِبَــاغِ   وتَجَــوَّزْ بِبَــلاغِ
واسْتَمِــعْ ما أَنْزَلَ اللـ   ـهُ ولا تَسْمَــعْ لِلاغِ[٣]
لا يَزِغْ قلبُــكَ واهْجُــرْ   كلَّ ذي قَــلْبٍ مُــراغِ[٤]
فَقَديمًــا أَفْسَــدَ المَــرْ   ءَ يســارٌ في فَــراغِ !

[حرف الفاء]

المَرْءُ على نَفْسِهِ يُسْرِفُ ، والنَّفْسُ طُلَعَةٌ تَسْتَشْرِفُ[٥] ، تُسَرُّ بيومٍ من

(١) خَلِّ : خُصَّ أو دَعْ . والجَنْبُ : شِقُّ الإنسان وغيره . والباغي : الضَّالُّ والظالم والفاجر ، والمعنى : ابْرَحْ أماكن الضالين . وتجوَّز في الأمر : احتمله وأغمض عمّا فيه ، واكتفى به . والبلاغ : ما يُتَبَلَّغُ به .

(٢) اللاغي : الفاحش القول قبيحه ، اسم فاعلٍ من لغا يَلْغُو لَغْوًا . والقلب المُراغي : الشديد الجافي ، وقيل : الذي يُظْهِرُ أمرًا ويُريد غيره . واليَسارُ : الغِنى والسَّعَة في الرزق .

* الشعر من مجزوء الرَّمَلِ

(٣) حضٌّ على سماع القرآن الكريم بدلَ الإصغاء للفاحش من القَوْلِ قبيحه .

(٤) يُزيغُ : يُميل ، والزَّيْغُ : المَيْلُ ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران٨] ، أي لا تملنا عن الهدى والقَصْدِ ولا تُضِلّنا .

(٥) الإسْراف : التبذير وتجاوز الحدِّ في النَّفَقَةِ وغيرها . والطُّلَعَةُ : الكثيرة التطلع إلى الشيء ، والميل إلى هواها تشتهيه حتى تُهْلِكَ صاحبها ، ومنه قول الحَسَنِ البَصْرِيّ (ت ١١٠ هـ) : « إن هذه النفوس طُلَعَةٌ فأقعدوها بالمواعظِ ، وإلا نَزَعَتْ بكم إلى شَرِّ غاية » . وتستشرفُ : تتوق إلى الشيء وتتطلَّع إليه .

عُمرِها يَغرِفُ ، واللَّحْدُ يَحْرُقُ نابُهُ وَيَصْرِفُ [1] ، وإلى اللهِ المَرْجِعُ والمَصْرِفُ ، أَيُنكِرُ كِتابَهُ أم يَعْرِفُ ؟ [2] :

متى يَقْصِدُ المَرْءُ في غَيْرِهِ   إذا كانَ في نَفْسِهِ يُسْرِفُ ؟ [3]
أَرَى النَّفْسَ إنْ بَلَغَتْ غايةً   سَمَتْ بَعْدَ ذلكَ تَسْتَشْرِفُ [4]
وكَيْفَ تُسَرُّ بيومٍ يَمُرُّ   وَمِنْ عُمْرِها أبدًا يَغْرِفُ ؟
[٨٠/أ] ولا بُدَّ لِلْجَنْبِ مِنْ وَجْبَةٍ   إلى مَلْحَدٍ نابُهُ يَصْرِفُ [5]

---

(١) يغرف : يقتطع ويجزُ أي يَمُرُّ . واللَّحْدُ : الشَّقُّ يكون في جانب القَبْرِ ، وقيل : الذي يُحْفَرُ في عُرْضِهِ ، ويُجْمَعُ على لحود وألحاد . ويحرق نابُه : أي سحقه حتى سُمِعَ له صريف وتصويت ؛ ومنه قول زهير بن أبي سُلمى (ت ١٣ ق . هـ) يمدح حُصَيْنَ بن حذيفة [من الطويل]:

أَبى الضَّيْمَ وَالنُّعمانُ يَحْرِقُ نابُهُ   عَلَيهِ فَأَفضى وَالسُّيوفُ مَعاقِلُهْ

(٢) المَرْجِعُ : المآبُ ؛ ومنه قوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴾ [الأنعام١٦٤] ، والزمر ٧ . والمَصْرِفُ : المَعْدِلُ ؛ ومنه قوله تعالى﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف٥٣] ، ومنه قول الشَّنْفَرى الأَسَدِيِّ (ت ٧٠ ق . هـ) [من الكامل] :

يا صاحِبَيَّ هَلِ الحِذارُ مُسَلِّمي   أَو هل لِحَتْفِ مَنِيَّةٍ مِن مَصْرِفِ

والكتابُ: صحيفة الإنسان يُدَوَّنُ بها أفعاله الدنيوية التي يحاسب عليها ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة١٨] .

* الشعر من بحر المتقارب .

(٣) يَقْصِدُ : يَعْدِلُ ، وقَصَدَ في الأمر إذا لم يُجَاوِزْ فيه الحَدَّ ، ورضِيَ التوسُّطَ .

(٤) هو في هذا البيت متأثر بقول أبي ذؤيب الهُذَلِيِّ (ت ٢٧ هـ) [من الكامل] :

وَالنَّفْسُ راغِبَةٌ إِذا رَغَّبتَها   وَإِذا تُرَدُّ إِلى قَليلٍ تَقْنَعُ

وقد استدعاه الإمام البوصيري (٦٠٨ - ٦٩٦ هـ) من بَعْدُ ، وصاغه صياغة حسنة فقال [من البسيط] :

والنَّفْسُ كالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى   حُبِّ الرَّضَاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

(٥) لا بُدَّ من كذا : أي لا فراق منه ، والبُدُّ : العِوَضُ . والجَنْبُ : شِقُّ الجَسَدِ ، ويُعْنَى به هنا الإنسان. والوَجْبَةُ : البَرْكَةُ أو المَصْرَعُ أو الوَقْعَةُ ، وقيل: هي السَّقْطَةُ مع الهَدَّةِ . وقد وَظَّفَ ابنُ أبي الخِصالِ قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ [الحج٣٦] ، ومنه المَثل القائل : « بجنبه فلتكن الوَجْبَةُ » أي الصَّرْعة ، ويُضْرَبُ في الشَّماتة بالرجل أو الدعاء عليه بأن يحيق مَكْرُهُ به .

وَمَنْ كـانَ مُسْتَيْقِنًا أَنَّـهُ ... إلى رَبِّهِ الرَّجْعُ والمَصْرِفُ(١)
فما حالُهُ عِنْدَ وَضْعِ الكِتابِ ... أَيُنْكِرُ ما فيهِ أَمْ يَعْرِفُ ؟

[حرف القاف]

العَمَلُ رِياءٌ ونِفاق ، والجزاءُ لِمَا قدَّمْتَ وِفاق (٢) ، وليس لِغَيْرِ الطَّيِّبِ عند الله نَفَاق ، تالله إنَّ هذه الوُجوه لَصِفاق (٣) :

لَقَدْ خَسِرَ السَّاعي إلى غَيْرِ رَبِّـهِ ... نِفاقًا، وَهَلْ بَعْدَ الرِّياءِ نِفاقُ؟
سَتَلْقى الّذي قـدَّمْتَهُ وذَخَرْتَـهُ ... وِفاقًا ، ألا إنَّ الجَزاءَ وِفاقُ(٤)
تَجَهَّـزْ بزادٍ صـالِحٍ أو بِسَيِّئٍ ... فليسَ لغَيْرِ الطَّيِّباتِ نَفَاقُ!(٥)
بأيِّ وجـوهٍ تَرْتَجي فَضْـلَ رَبِّنـا ... وَلكِنْ وجوهُ الْمُذْنِبينَ صِفاقُ(٦)

---

(١) استيقن من الأمر : تَثَبَّتَ منه وتحقَّق ، والمستيقن : الواثق دون شكٍّ أو رِيبة .
(٢) الجزاء : المكافأة بالإحسان والإساءة . والوِفاق: الملاءمة والموافقة ، وهو اقتباسٌ قرآني من قوله تعالى: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ ٢٤-٢٦] .
(٣) النَّفاقُ خلاف الكساد . وتالله : قَسَمٌ فيه معنى التَّعَجُّب ، وتاؤه منقلبةٌ عن واو القَسَمِ . والصِّفاقُ : واحدها الصَّفيقُ ، ووَجْهٌ صفيقٌ بَيِّنُ الصَّفَاقةِ أي وقح .
* الشعر من بحر الطويل .
(٤) ذخرته : ادخرته لوقت حاجةٍ .
(٥) تَجهَّزَ : تهيَّأ . والزَّاد : الطعام والشَّراب ، وقيل : طعام السفر والحَضَرِ ، وتنسحب هنا على ما ادّخره الإنسانُ لآخرته من حَسَنِ الفِعَال .
(٦) ترتجي : تأمَلُ وتتوقَّعُ ؛ ومنه قول بِشْرِ بن أبي خازم (ت ٢٢ ق . هـ) [من الوافر] :
فَرَجِّي الخَيرَ وَانتَظِري إِيابي ... إِذا ما القـارِظُ العَنَزِيُّ آبا
والمُذْنِبُ : مرتكِب الإثم والمعصية .

[حرف الكاف]

لا حُجَّةَ ولا دَرَك ، لِمَنْ شَهِدَ المُعْتَرَك[1] ، وأَرْجَأَ التَّوْبَ وتَرَك ، أَعْجَز أَنْ يكونَ كالعُصْفورِ اجْتَنَبَ الشَّرَك ؟[2] حتَّى غَلَبَ سكونُهُ الحَرَك ، وأناخَ الموتُ بَعِيرَ عُمُرِهِ فَبَرَك ؟![3] .

مَا لابْنِ سِتِّينَ علـى رَبِّـهِ ... إِنْ وَرَدَ النَّارَ غَدًا مِنْ دَرَكْ
قَدْ أَعْـذَرَ اللهُ إليـهِ وَلا ... عُذْرَ لِشَيْخٍ شَهِدَ المُعْتَرَكْ[4]
لَمْ يَـتْرُكِ الذَّنْـبَ ولـكنَّـهُ ... قَـدْ تَرَكَ التَّـوْبَـةَ فيما تَـرَكْ
كَـبَـا لِفِيـهِ وَيَدَيْـهِ وكَـمْ ... عُصْفُورَةٍ لم تَعْتَلِقْها الشَّرَكْ[5]
حـرَّكَهُ الدَّهْـرُ وإنَّ الَّذي ... حَرَّكَهُ أَسْكَنَ مِنْهُ الحَرَكْ
حَـدا بَعيرَ العُمْرِ حَتَّى إذا ... حَـلَّ بِهِ المَوْتُ مُنِيخًا بَرَكْ[6]

(١) الحُجَّةُ : البرهان . والدَّرَكُ : اللِّحَاقُ . والمُعْتَرَكُ : موضع الحَرْبِ ، وقيل: موضع العِرَاكِ ، ويعنى به هنا يوم العَرْضِ ، حيث تتزاحم الأرْجُل .

(٢) أرْجأ : أَخَّرَ ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة١٠٦] . والتَّوْبُ والتوبة : الرجوع عن المعصية إلى الطاعة ، واجْتَنَبَ : تحاشى . والشَّرَكُ : الفَخُّ ، وقيل : حِبالةٌ يرتبك فيها الصَّيْدُ ، والواحدة شَرَكَةٌ .

(٣) غَلَبَ : استولى قهرًا وغَلَبَةً . والحَرَكُ جمع حَرَكَةٍ ، وكذلك الحركات عن ابن دُرَيْد (ت ٣٢١هـ) في جمهرة اللغة (ح.ر.ك) ، والحركة ضد السّكون . وأناخ الإبل أبركها فبركتْ ، وكل شيء ثبت وأقام فقد بَرَكَ ، أي خضع واستكان . والبعير ما لم يعرفوا ، فإذا مَيَّزُوا قالوا : للذَّكَرِ جمل ، وللأنثى ناقةٌ ، ومثله للإنسان .

* الشعر من بحر السريع .

(٤) أعذر : أي صار ذا عُذْرٍ ، وأَعْذَرَ : ثبت له عُذْرٌ .

(٥) كبا : انكبَّ على وجهه ، والكبوةُ : العَثْرَةُ ، ومن أمثالهم : « لكلِّ جَوادٍ كَبْوَةٌ ، ولكل صارم نَبْوَةٌ ، ولكل عالم هفوة » . وتعتلق : تمسك أو تلتصق .

(٦) حَدَا يَحْدُو حَدْوًا : إذا تبع شيئًا ، وقيل: إذا زجر الحادي خلف الإبل، وقيل: إذا زجرها وساقها. وحَلَّ بالمكان : نزل به وأقام . ومُنِيخًا : اسم فاعل من الفعل (أناخ) .

[حرف اللام]

خَابَ مَنِ احْتَمَل ، وخَالَفَ الإدْلاجَ والعَمَل[1] ، أَنْضى الجَمَل[2] ، وشَقِيَ الحامِلُ ومَنْ حَمَل ، وبَلَغَ البَيْتَ ولم يَبْلُغِ الأمَل :

خابَ مِنَ التَّوفيقِ لمّا احتَمَلْ ... مُخالِفًا إدْلاجَهُ والعَمَلْ
هَوى إلى البَيْتِ -هوَتْ أُمُّهُ- ... لِسُمْعَةٍ أَنْضى عَلَيْها الجَمَلْ[3]
يَشْقى بِهِ الحامِلُ لكِنَّهُ ... أَشْقى مِنَ الحَامِلِ مَنْ قَدْ حَمَلْ
لَمْ تَبْلُغِ البَيْتَ خُطا بالِغٍ ... أَخْلَفَهُ فيهِ بُلوغُ الأمَلْ

---

(١) خاب : خَسِرَ ، وقيل : حُرِمَ ولم يَنَلْ ما طلب . واحتمل وتحَمَّلَ : ارتحل ، وقيل : ارتكب وزرًا . وخالف : آخى ولازَمَ . والإدلاج : السَّيْرُ من أول الليل ، وقيل: آخره أو كله .

(٢) أَنْضى : أَخْلَقَ وهَزَلَ ، والنِّضْوُ من الإبل الذي هَزَلَتْهُ الأسفارُ ، والأنثى نِضْوَةٌ . والجَمَلُ : الذَّكَرُ من الإبل ، وقيل : إذا أربع ، وقيل إذا أَجْذع (أي أدرك سنته الخامسة) ، وقيل : إذا بَزَلَ (انشَقَّ نابُهُ) ، وقيل : إذا أثنى (أي سقطت ثنيتاه الراضعتان ، وثبت له غيرهما) . ومن نادر الاستعمال وقوع لفظة جمل على الناقة ، وهو ما لم يقره ابن سِيْدَه في المحكم (ج.م.ل) .

* الشعر من بحر السَّريع .

(٣) اقتباسٌ قرآنيٌّ من قوله تعالى:﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة ٨ ، ٩] ، وهَوَتْ أُمُّهُ: سَقَطَتْ ، ويُستخدم هذا التعبيرُ في سياقين متعارضين ، هما : الدعاء على الرجل إذا فعل فِعْلَةً منكرة ، كقول غُرَيْقَةَ العبسي (شاعر إسلامي هجّاء) [من الطويل] :

هَوَتْ أُمُّهُ ماذا تَضَمَّنَ قَبْرُهُ ... مِنَ الجودِ والمَعروفِ حينَ يَنوبُ

وعند التعجب والمدح كقول كعب بن سعد الغَنَوِيّ (ت ٥ ق . هـ) يرثي أخاه [من الطويل] :

هَوَتْ أُمُّهُ ما يَبعَثُ الصُّبحُ غادِيًا ... وَماذا يَوَدُّ اللَّيلُ حينَ يَؤوبُ

والسُّمْعَةُ : ما نُوِّهَ بذكره ليُرى ويسمع؛ ومنه حديث عُمَر بن الخطاب(ت٢٣ هـ) رضي الله عنه : « ومن النَّاسِ مَنْ يُقاتِلُ رِياءً وسُمْعَةً » . وعليها : أي من أجلها .

[حرف الميم]

[٨٠/ ب] الشَّيْبُ قَدْ وَعَظَ ونادى مِنْ أَمَم ، لا ناطِقٌ أَوْعَظُ مِن صامِتٍ في فُرُوعِ اللِّمَم[١] ، ونذيرٌ مِنَ الله [قامَتْ بهِ الحُجَّةُ] البَيْضاءُ فَوْقَ القِمَم ، يا عَوْضُ لَقَدْ عُضْتَهُ حَمامَةً مِنْ حُمَم ، وبادَرْتَ - وما تأنَّيْتَ - الحُلى بالغَمَم[٢]:

قَدْ وَعَظَ الشَّيْبُ وناجاكَ بَلْ — ناداكَ فَلْتُصْغِ لَهُ مِنْ أَمَمْ[٣]
لا ناطِقٌ أَوْعَظُ مِن صامِتٍ — قامَ خَطيبًا في فُروعِ اللِّمَمْ
هذا نَذيرُ الله قامَتْ بِهِ — حُجَّتُهُ البَيْضاءُ فَوْقَ القِمَمْ
يا عَوْضُ ما أَعْجَلَ ما عُضْتَهُ — حَمامَةً ناصِعَةً مِنْ حُمَمْ

(١) الشَّيْبُ : بياضُ الشَّعْرِ . ووَعَظَ : نَصَحَ وذَكَّرَ بالعواقب . ومن أمم أي عن قُرْبٍ وكَثَبٍ ، وقال ابن السِّكِّيت (ت٢٤٤هـ): الأَمَمُ بين القريب والبعيد. واللِّمَمُ : جمع لِـمَّةٍ ، وهي الشعر يجاور شحمة الأُذُنِ، ويُجْمَعُ على لمام أيضًا؛ ومنه قول يزيد بن مفرّغ الحِمْيَرِيّ (ت٦٩هـ) [من الخفيف] :

شَدَخَتْ غُرَّةُ السَّوابِقِ فيهِم — في وُجوهٍ إلى اللِّمامِ الجِعـادِ

(٢) الحجة البيضاء : البرهان القاطع . والقمم : الهامات ، واحدها القِمَّةُ . والعَوْضُ : يجري مجرى القَسَمِ ، ويقول بعضهم : هو الدَّهْرُ والزمان .. ولا يكون ذاك؛ فلو كان اسما للزمان لجرى تنوينُهُ ، ولكنه حرف يُرادُ به قَسَمٌ ، قال الأعشى (ت٧هـ) [من الطويل] :

رَضيعَيْ لِبانٍ ثَدْيَ أُمٍّ تَحالَفـا — بِأَسْحَمَ داجٍ عَوْضُ لا نَتَفَرَّقُ

انظر: العين (ع. و. ض) . وقد استخدمها ابن أبي الخصال بمعنى الزمان أو الدَّهْرِ ، وعِضْتُهُ : أبدلته بدل ما ذهب منه . والحمامَة : غُرَّةُ الفَرَسِ ، وغالبًا ما تكون بيضاء . والحُمَمُ : الرماد والفحم ، وكل ما احترق من النار ، والواحدة حُمَمَةٌ . والغَمَمُ : أن يسيل الشعر حتى تضيق الجبهة والقفا ، وهي سمةٌ مكروهة في الخيل ، ورجل أغمّ : أي كثير الشعر ، ومنه قول هُدْبَةَ بنِ الخَشْرَم (ت ٥٠ ق . هـ) [من الطويل] :

فَلا تُنْكَحي إِنْ فَرَّقَ الدَّهرُ بينَنا — أَغَمَّ القَفا والوَجـهِ لَيسَ بِأَنزَعا

* الشعر من بحر السَّريع .

(٣) ناجاك : سارَّكَ .

بادَرْتَ أمْـرًا لَمْ تَخَفْ فَوْتَـهُ   هَلاّ تأنَّيْتَ الحُلى بالغَمَمْ؟[1]

[حرف النون]

يا ساكِنَ القَصْرِ تذكَّرِ الجَنَن[2] ، ومَكْرَ الله لا تأمَنْ[3] ، لا جُنَّةَ إلاّ التُّقى والبِرُّ فلا تُفْتَتَنْ[4] ، لو نَطَقَ مَيْتٌ لقالَ وَجَدْتُ البِرَّ أوقى الجُنَن ، وَضَعْتَ مُنَّتَكَ في كُفْرِ المِنَن[5] ، إنْ كانَ سيئُكَ مُعْجِزًا فلا تُحسِنَن[6] ، وإنْ أَمِنْتَ المَوْتَ فلا تَحْزَنَنْ :

يا ساكِنَ القَصْرِ على غِرَّةٍ   تَذَكَّرِ المَوْتَ وسُكْنى الجَنَنْ
أَمِنْتَ مَكْرَ الله يَغْشاكَ في   لَيْلِكَ أَوْ يَوْمِكَ؟ لا تَأْمَنْ![7]
لا جُنَّـةٌ للنَّـارِ إلاّ التُّـقى   والـبِرُّ فالْزَمْـهُ ولا تُفْتَـتَنْ
لَوْ نَطَقَ المَيْتُ لنـاداكُم :   إنِّي وَجَدْتُ البِرَّ أَوْقى الجُنَنْ

(١) تأنَّيْتَ : اسْتَدَمْتَ .

(٢) القَصْرُ : ما بذخ من البُنيان ، ويُجْمَعُ على قصور ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾ [الفرقان١٠] . والجَنَنُ : القَبْرُ ، ويجمع على أجْنان .

(٣) اقتباسٌ من قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف٩٩] . والمكر الاحتيال والخديعة ، وأضاف صاحب العَيْن « في خِفْيةٍ » ، ومكر الله : إمهاله العبد وتمكينه من أعراض الدنيا ، واستدراجه بما أنعم عليه به في دنياه من صحة البدن ورخاء العيش .

(٤) الجُنَّةُ : السُّتْرَةُ ، وكل ما وقاك ، وتُجْمَعُ على الجُنَنِ . وتفتن : تَغْتَرّ ، وتَضِلُّ عن الحَقِّ .

(٥) المُنَّةُ : من الأضداد ، فهي القوة والضعف أيضًا . والكُفْرُ : نقيض الشُّكْرِ ، وهو جحود النعمة ، ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴾ [القصص٤٨] . والمِنَنُ : مفردها : المِنَّةُ ، وهي الإحسان مطلقًا ، وقيل : الذي تَمُنُّ به على مَنْ لا يستثيبك .

(٦) سَيئُكَ : فِعْلُكَ المسيء .

❊ الشعر من بحر السريع

(٧) يغشاك : يأتيك .

وَضَعْتَ ما أُعْطِيتَ مِنْ قُوَّةٍ　　وَمُنَّةٍ في كُفْرِ رَبِّ المِنَنْ
إِنْ كانَ ما أَسْلَفْتَ مِنْ سَيِّئٍ　　قَدْ أَعْجَزَ اللهَ فلا تُحْسِنَنْ
وإِنْ أَمِنْتَ المَوْتَ فافْرَحْ بما　　أُعْطِيتَ في الدُّنيا ولا تَحْزَنَنْ!

[حرف الواو]

الملوكُ الَّذينَ اعْتلَوْا ، في حُفَرِهمْ قَدْ هَوَوْا ، ما لَهُم - وَقَدْ طَبَّقوا الأرْضَ - انْزَوَوْا ؟[١] ما بالُهُمْ في الثَّرى بَعْدَ النَّضْرَةِ قد ذَوَوْا ؟[٢] لم يَلْوُوا حَقَّ اللهِ وكَمْ غَريمٍ لَوَوْا [٣] . انْظُرْ إلى دارِهِمْ خاليةً خاوِيةً إذْ خَوَوْا[٤] ، وَأْوِ كُلَّ مَنيعٍ أَوَوْا[٥] ، إِنْ لَمْ تَعْتَبِرْ بهم فستَجْتَوي مِنَ العَيْشِ ما اجْتَوَوْا [٦] :

---

(١) عَلَوْا : شرفوا وتكبَّروا . والحُفَرُ : ما يُحْفَرُ في الأرض من شقٍّ وغيره ، وتنسحب في هذا السِّياق على القبور . وهَوَوْا : سقطوا . وطَبَّقوا الأرضَ : أي ذاع صِيتُهُم . وانزووا : جُمعوا ، وضُموا إلى بعضهم وطُرِحوا .

(٢) البالُ : الحال ، ومنه قولهم : ما بالُكَ ؟ . والنُّضْرَةُ : الحُسْنُ ، والرَّوْنَقُ ، وذَوَوْا : ذبلوا وضعفوا .

(٣) لواه بدَيْنِهِ أي مَطَلَهُ ، ومنه قول ذي الرُّمَّةِ (ت ١١٧ هـ) [من الطويل] :

تُسيئِينَ لَيّاتي وَأَنتِ مَليَّةٌ　　وَأُحْسِنُ يا ذاتَ الوِشاحِ التَّقاضيا

والغريمُ تُطْلَقُ على الدائن والمدين . فمن الأول قول كُثَيِّرِ عزَّةَ (ت ١٠٥ هـ) [من الطويل] :

قَضى كُلُّ ذي دَيْنٍ فَوفّى غَريمَهُ　　وَعَزَّةُ مَمْطولٌ مُعنًّى غَريمُها

ومن الثاني قولهم : خُذْ من غريم السوء ما سَنَحَ . والسِّياقُ يتطلب المعنى الأوَّل .

(٤) خَوتِ الدارُ : أقْوَتْ وخَلَتْ من أهلها ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ [النمل٥٢] . ويقال: ساقطة ؛ كما قال عَزَّ وجَلَّ : ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ [الحج٤٥] ، أي ساقطة على سقوفها . وخَوَوْا: هلكوا وبادوا .

(٥) أوِ : فعلُ أمر من الفعل (أوى) ، ومعناه انزل أو حِلّ أو الجأ . والمكان المنيع : الحصين المحمي الممتنع . وأووا : حلّوا به وأقاموا فيه .

(٦) ستجتوي : ستكره وتُبْغِض ، ومنه قول قيس بن زهير العَبْسِيِّ (ت ١٠ هـ) [من الطويل] :

فَقَد جَعَلَتْ أَكبادُنا تَجْتَويهِمُ　　كَما تَجْتَوي سُوقُ العِضاهِ الكَرازِنا

العِضاه : كل شجر يعظم وله شَوْكٌ كالطَّلْح والعَوْسج والسِّدْرِ وغيرها . والكِرْزِنُ : الفأس العظيمة ، المفلولة الحَدِّ ، وذات رأس واحدة .

[٨١/ أ] إنَّ السَّلاطِينَ الَّذينَ اعْتَلَوْا ... في حُفَرٍ هاوِيَةٍ قَدْ هَوَوْا
نادِهِمْ : ما لَهُمْ بَعْدَما ... قد طَبَّقُوا الأَرْضَ مَضَوْا وانْزَوَوْا
ما بالُ أَغْصانِهِمُ ذُبَّلٌ ... وما لَهُمْ تَحْتَ الثَّرى قد ثَوَوْا؟[١]
لَمْ يُلْوَ حَقُّ اللهِ إذْ جاءَهُمْ ... وكَمْ غَرِيمٍ قبْلَهُ قد لَوَوْا
انْظُرْ إلى دارِهِمُ بَعْدَهُمْ ... خالِيَةً خاوِيَةً إذْ خَوَوْا !
وَادْخُلْ بلا إِذْنٍ ولا رِقْبَةٍ ... وَاعْلُ ذُرى كُلِّ مَنيعٍ أَوَوْا !
إِنْ لَمْ تُفِدْ مِنْ حالِهِمْ عِبْرَةً ... فاهْوَ هَواهُمْ واجْتَوِ ما اجْتَوَوْا[٢]

[حرف الهاء]

وَازِنْ بَيْنَ الهَوى والنُّهى[٣] ، واعْلَمْ أَنَّ « إِلى رَبِّكَ المُنْتَهى »[٤] ، والنَّارُ

---

* الشعر من بحر السريع .

(١) ذُبَّل : ذاوية ، دَقَّتْ بَعْدَ الرِّيِّ ، واحدتها ذابِلَةٌ .

(٢) العِبْرَةُ : العِظَةُ والاعتبارُ بما مضى .

(٣) وازِنْ : قارن وقابل ، ووازَنَ الشيءِ بغيره إذا عادله وقابله . والهوى : الغَيُّ ، وقيل: العِشْقُ يكون في مداخل الخيرِ والشَّرِّ ، وقيل : مَحَبَّةُ الإنسانِ الشيءَ وغلبته على قلبه ، ومنه قوله عزَّ وجَلَّ : ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات٤٠] ، أي نهاها عن شهواتها ، وما تدعو إليه من معاصي الله . وكلمة « الهوى » إذا استخدمت مطلقةً فهي مذمومةٌ ، حتى تُنْعَتَ بما يُخْرِجُ معنى الذَّمِّ ، كقولهم : هوًى حَسَنٌ ، أو هوى مُوافق للصّواب .

والنُّهى : الرُّشْدُ والعَقْلُ ، يكون واحدًا وجمعًا ، وأهل النُّهَى : مَنْ ينهاهم عقلهم وفهمهم ودينهم عن مُواقعة ما يَضُرُّهم ، ومنه قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ [طه ١٢٨] . وقد ذهب أبو الحسن اللحياني (٢٠٧هـ) إلى أنَّ النُّهى جمع نُهْيَة ، ومنه قول الخَنْساء (ت ٢٤هـ) [من الطويل] :

فَتًى كانَ ذا حِلْمٍ أَصيلٍ وَتُؤْدَةٍ ... إذا ما الحُبى مِنْ طائِفِ الجَهلِ حُلَّتِ

(٤) اقتباسٌ قرآنيٌّ للآية ٤٢ من سورة النَّجْم ، وفي تفسير الطَّبري (ت ٣١٠هـ) ، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيِّه ﷺ : وأنَّ إلى ربِّك انتهاء جميع خَلْقِهِ ومرجعهم ، وهو المُجازي جميعهم بأعمالهم : صالحهم وطالحهم ، ومُحْسنهم ومُسيئهم .

مَحْفُوفَةٌ بالشَّهواتِ فَخُذْ أَوْ فَذَرْ مِمَّا يُشْتَهى[١] ، أَجْرَأُ مِنَ اللَّيْثِ مَنِ اجْتَرَأَ على اللهِ فيما نَهى ، يَرى الأَمْرَ جِدًّا ويَلْهُو مَعَ مَنْ لَها ، لَوْ صَدَقَتْ عَيْنُكَ لَما تَيَّمَتْكَ المَها[٢] ، ولَوْ كُنْتَ ذا دَهِيٍّ لتهيَّأْتَ لِدَفْعِ ما دَهى[٣] ، أما إِنَّ الحَرِيصَ لَيَبِيعُ النُّهى باللُّهى[٤] ، ويَعْيى عَنِ البَدْرِ ويُتْعِبُ لَحْظَهُ في السُّهى[٥] :

---

(١) توظيف للحديث النبوي الشريف « حُفَّتْ الجَنَّةُ بالمكاره ، وحُفَّتْ النَّارُ بالشهوات » ومحفوفة : مُحاطَةٌ مُكَلَّلَةٌ ؛ وقد اقتبس كثيرٌ من الشعراء هذا الحديث كصفيِّ الدين الحِلِّي (ت ٧٥٠ هـ) في قوله [من مجزوء الكامل] :

يا جَنَّةَ الحُسْــنِ الَّتي ... حُفَّتْ لَدَيْنا بِالمَكارِهْ
إِنِّي لِوَجْهِــكِ عاشِقٌ ... وَلِمَنْظَرِ الرُّقَبـاءِ كارِهْ

انظر آليات توظيف الحديث النبوي في : السيوطي (ت٩١١هـ): الازدهار فيما عقده الشعراء من الحديث والآثار، تحقيق: على حسين البوّاب، منشورات المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م.

(٢) تَيَّمَهُ الحُبُّ أي عبَّدَه وذَلَّلَه . والمهـا : جمع مهاة ، وهي البقرةُ الوَحْشِيَّةُ ، شُبِّهتْ المرأةُ بها سعةَ عَيْنٍ وحَوَرًا .

(٣) ذا دَهِي : أي صاحب دهاء أو بَصَرٍ بالأمور . وتهيَّأ للأمر : استعدّ له ، وأعَدَّ العُدَّةَ لملاقاته . وما دهي: ما فَدح .

(٤) اللُّهى : أفضل العطايا ، مفردها لُهْيَةٌ ولُهْوَةٌ ، ومِنْ أقوالهم « اللُّهى تفتح اللَّها » ؛ فالأولى بضمِّ اللام جمع لُهْوَةٍ ، وهو ما يُجْعَلُ في الرَّحى من الحَبِّ ، والثانية بفتح اللام جمع لَهاةٍ ، وهي اللحمة المشرفة على الحَلْقِ ، ومنه قول عنترة بن شدّاد العَبْسِيّ (ت ٢٢ ق . هـ) [من الطويل]:

إِذا قِيلَ مَنْ لِلمُعضِلاتِ أَجابَهُ ... عِظامُ اللُّهى مِنّا طِوالُ السَّواعِدِ

وقول أبي محمد عبد الجليل بن وَهْبون الأندلسيّ (ت٤٨٠هـ) ، ارتجالًا في معرض إعجاب المعتمد بن عبّاد (ت ٤٨٨هـ) بشعر المتنبي (ت ٣٥٤هـ) [من الطويل] :

لئن جادَ شِعْرُ ابنِ الحُسَيْنِ فإنما ... تُجِيدُ العطايا واللُّهى تَفْتَحُ اللَّها
تَنَبَّأَ عُجْبًا بالقريضِ ولو دَرَى ... بأَنَّكَ تَـرويه إِذًا لتــــأَلَّها

وهي استعارة حسنة ، يعني: إنما تُفْتَحُ تلك اللَّها لأجلِ ما يوضع في فمه من المَآكِلِ الطيبة ، والمراد إنما يُجِيدُ شعرَه ما يأخذه من أموال السلاطين والولاة .

(٥) توظيف للمثل العربي القائل : « أُرِيها السُّها وتريني القمر » ، ويضربُ لمن يُغالِطُ فيما لا يخفى ؛ لأنَّ القمرَ في غايةِ الظهور ، والسُّها في غاية الخفاء . انظر قصة المثل في : مجمع الأمثال للميداني ، وقد وظفه ابن الآبار .

* الشعر من بحر المتقارب .

تَقَـدَّمْ هَـوًى أَوْ تَأَخَّـرْ نُهى / فـإنَّ إلى رَبِّـكَ المُنْتَـهـى
وقَدْ حُفَّ بالشَّهواتِ الجَحِيمُ / فَخُـذْ أَوْ فَـذَرْ كلَّ ما يُشْتَهى
وأَجْـرَأُ مِنْ كُلِّ ذِي لِبْـدَةٍ / جَـرِيءٌ على اللهِ فيمـا نَهى [1]
يَرى الأمْرَ جِـدًّا ولا يَمْتَرِي / وَيلْهو -على العِلْمِ- فيمَنْ لَهَا [2]
ولَـوْ صَـدَقَتْ عَيْنُهُ قَلْبَـهُ / لَمَـا تَيَّمَتْهُ عُيُـونُ المَهى !
ولَـوْ كـانَ ذا مِـرَّةٍ داهِيـًا / لدافَعَ عَنْ نَفْسِـهِ مـا دَهى ! [3]
وقد يُذْهِبُ الحِرْصُ عقلَ اللَّبيـ / ـبِ حتّى يَبِيعَ النُّهى باللُّهى [4]
ويَعْيَ عَنِ البَـدْرِ في تَمِّهِ / ويُتْعِبُ أَحـاظَهُ في السُّهى

[حرف اللام ألف]

عَمَرْتَ دِيارًا وحِـلَلًا ، وعالَيْتَ فَوْقَـكَ حُـلَلًا [5] ، وأَرْسَلْتَ حُجُبًـا وكِـلَلًا [6] ، أَجْـرَيْتَ غِـلًّا وغَـلَلًا [7] ، وسَقَيْتَ نَهَـلًا

(١) ذو اللِّبْدَةِ : الأسد الغزير الشعر مُتلبِّدُه ، واللبدة: الشعر المتراكب بين كتفيه ، ومن الأمثال التي تُضْرَبُ في التناهي والمبالغة : « أجرأ من ذي لِبْدَةٍ » .

(٢) يمتري : يُجادِلُ شاكًّا أو مُرْتابًا ، والامتراء في الشيء ، الشَّكُّ فيه .

(٣) توظيف لقوله تعالى : ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ [النجم٦] . والمِرَّةُ : القوة وشِدَّة العقل .

(٤) الحِرْص : الجَشَعُ . واللَّبيبُ : العاقلُ ، وجمعهُ أَلِبّاء .

(٥) الحِلَلُ : واحدها الحِلَّةُ ، والحِلَّةُ : جماعة بيوت الناس ، وقيل : مَجْلس القوم ومجتمعهم . وعاليت : نشرتَ فوقك . والحُلَلُ بضمِّ الحاء : واحدها الحُلَّةُ ، وهي بُرُودٌ يمانية تطوى وتُنْشَرُ ، زاهية الألوان .

(٦) الحُجُبُ: مفردها حِجاب ، وهو السِّتْرُ والحاجز ، وكل شيء منع شيئًا فقد حجبه ، والكِلَلُ : مفردها الكِلَّةُ ، وهي السِّتْرُ الرقيق يُخاط كالبيت؛ يُتوَقَّى فيه من البعوض ، وتسمى لدى العامة بمصر « الناموسِيَّة » ، ومنه قول لبيد بن ربيعة (ت ٤١ هـ) [من الكامل] :

مِنْ كُلِّ مَحْفوفٍ يُظِلُّ عِصِيَّهُ / زَوْجٌ عَلَـيهِ كِلَّةٌ وَقِرامُهـا

(٧) الغِلُّ بكسر الغين : الحقد الكامن ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الأعراف ٤٣] ، والحجر٤٧ . والغُـلُّ : بضم العين وفتحها : شِدَّةُ العطش وحرارة الجَوْفُ .

وعَلَلًا[1] ، وعَلَّلْتَ فوائِدَ وعِلَلًا ، وتجلَّلْتَ الذَّنْبَ فادِحًا جلَلًا[2] ، فأصْبحْتَ كأطْلالِكَ طَلَلًا ، هَيْهاتَ ! إِنَّ الصِّراطَ لا يَحْمِلُ زَلَلًا ، والنَّاقِدَ بَصيرٌ لا يَقْبلُ خَلَلًا[3] :

خَرَّبْتَ دارَ مُـقـام كُنْتَ تَنْزِلُها | فما عَمَرْتَ دِيارَ الهُـونِ والحِلَلا
فاليـومَ تَخْلَعُ ما عالَيْتَ مِنْ حُلَلٍ | إِذْ لم تُظاهِرْ مِنَ التَّقـوى بِها حُلَلا
لا يَحْجُبُ الموتَ ما أرْسَلْتَ مِنْ حُجُبٍ | ولا يُكِـلُّ وإِنْ كلَّلْتَهـا كِـلَلا
يا جامِدَ الدَّمْعِ لو أنْصفْتَ كُنْتَ حريًّا | أنْ تُجْرِيَ الدَّمعَ لا أنْ تُجرِيَ الغَلَلا[4]
لا تَفْرحَـنَّ بِما أُوتيتَ مِنْ سَعَـةٍ | فَهْيَ الغُلولُ وإنْ سَمَّيْتها غلَلا[5]
ولَوْ دَفَعْـتَ بنَفْس أنْتَ مُهْلِكُها | أوْرَدْتَها نَهَـلًا في الأجْر بَلْ عَلَلا

(١) النَّهْلُ : الشربُ الأولُ ، والعَلُّ : الشربة الثانية ، ومنه قولهم : « علل بعد نهل » ، قال العُجَيْر السّلوليّ (ت ٩٠ هـ) [من الرَّمَل] :

عَلِّلاني إنّما الدُنيا عَلَـلْ | واسقياني عَلَلًا بعد نَهَلْ

(٢) العِلَلُ : مفردها العِلَّةُ ، وهي الحَدَثُ يشغل صاحبه عن وجهه أو حاجته ، وقيل: السَّبَبُ ، ومنه المثل العربي : « لا تعدم خرقاءُ علة » . والفائدة : كل خير يستفيده الإنسان ويستحدثه ، وقيّدَهُ اللَّيْثُ بنُ خالد البغداديّ (٢٤٠هـ) بما أفاء به الله على عبيده . وتجلّلت الذنب : اقترفته . والجَلَلُ من الأضداد ، فيطلق على الأمر العظيم والصغير الهَيِّنُ، والسياق يستدعي المعنى الأوّل.

(٣) الأطلال : ما تبَقَّى من الدِّيار ، وطَلَلا : باليًا . وهيهات: كلمة تبعيد للشيء الذي لا يُرْجَى . والصراط : الطريق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة٦] . أما صراط الآخرة فهو عند أهل السُّنَّةِ جِسْرٌ ممدود على مَتْنِ النَّار (جهنم) أَحَدُّ من السيف وأَدَقُّ من الشعر ، يَمُرُّ عليه الخلائقُ فيجوزه أهل الجنّة قَدْرَ أعمالهم ... وتَزِلُّ وتدحض عند ذلك أقدام أهل النار . انظر : العباب (ص.ر.ط) . والزَّلَلُ : الحجارة الملساء ، ومفردها الزُّلَّةُ . والناقد : مَنْ له بَصَرٌ بالأمر ودِرْبَةٌ . والخَلَلُ : فسادُ الأمر .

* الشعر من بحر البسيط .

(٤) حَرِيّ : خليق .

(٥) الغلول : القيود ، واحدها الغُلّ .

أمَـــا وربِّــكَ والأَوْزارُ عاثِـرةٌ لقـد تجَلَّلْتَ ذَنْبًا فادِحـًا جَلَلا[1]
ماذا يرُوقُكَ مِنْ دارٍ كأنَّكَ قدْ أصْبحْتَ تمْثُلُ في أطْـلالها طَلَلا؟
بَلْ كيْفَ يثْبتُ مَنْ زَلَّتْ بهِ قَـدَمٌ على الصِّراطِ وما إنْ يحملُ الزَّلَلا؟
أمْ كَيْفَ ترْفعُ مُخْتـلًّا تُقـدِّمُـهُ إلى بَصِـيرٍ بهِ لا يَقْبَـلُ الخَـلَلا؟

[حرف الياء]

الحادي الخطيئةَ قد حُدي ، والعادِي مُنِعَ وعُدي[2] ، أين النَّادي الذي انْتُدي ، واليَعْسُوبُ الذي بهِ اقْتُدي ؟ قُتِلَ وما وُدِي[3] ، ورِيحَ به أوْ غُدِي ، لا يَسْمَعُ إنْ دُعي ، ولا يُجْدي إذا اجْتُدي[4] :

حَــــدا وما خَفَّضَ في سُــوقِهِ واعْتَسَفَ الْـمَجْهَـلَ حتَّى حُدِي[5]

---

(١) الأوزار : الآثام ، واحدها وِزْرٌ . والعاثرة : الحُفْرَةُ تُحْفَرُ للأسد كي يقعَ فيها ، وقيل : هي حِبالةُ الصائد .

(٢) الحادي الخطيئة : الحاثُّ على ارتكابها . وحُدِي: اقْتِيدَ . والعادِي : المُسْرِعُ الواثب ، وقيل: الباغي . وعُدِيَ : سُبِقَ .

(٣) النادي : مجلس القوم . وانْتُدى : عَمُرَ بجُلاَّسِهِ . واليعسوب : رئيسُ القومِ وسيدهم . واقتدِىَ : ائتسِي به . ووَدَيْتُ القتيل إذا دفعتُ دِيَّتَهُ .

(٤) الرَّوَاحُ عكس الغُدُوِّ ، والرَّوَاحُ : العَشِيُّ من لَدُن زوال الشمس إلى الليل ، ورُحْنَا رَوَاحًا ، أي سرنا في ذلك الوقت أو عملنا ، ومنه قول العَرْجِيّ (ت ١٢٠هـ) [من الطويل] :

أأنْتَ الذي خَبَّرْتَ أنَّكَ رَاحِلٌ غــداةَ غَـدٍ أو رائحٌ بهجـيرِ

والغُدُوُّ : ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ [النور٣٦] . ودُعِيَ : نُودِيَ عليه . ولا يجدي : لا يُعْطي إذا سأل أوطلب .

* الشعر من بحر السريع .

(٥) حَدَا : أسْرَعَ ، وخَفَّضَ : قَلَّلَ . والسَّوْقُ : الحَثُّ بشِدَّةٍ . واعتسف : سار بغير هداية أو تَوَخِّي حذر ، وقيل : ركوب الأمر من غير قصد ولا تدبير . والمَجْهَلُ : المفازة لا أعلامَ بها ، والأرض لا يُهْتَدَى فيها ، ومنه قولهم : « كم قطعتَ من مجْهَلٍ، ووردتَ من مَنْهَلٍ » .

- **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**: ابن بسّام الشنتريني (ت٥٤٢هـ). تحقيق: د. إحسان عبّاس. دار الثقافة، بيروت ١٩٧٩م.
- **رايات المبرزين وغايات المميزين**: ابن سعيد الأندلسي (ت٦٨٥هـ). تحقيق: النعمان عبد المتعال القاضي. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٩٧٣م.
- **رسائل ابن أبي الخِصال**: تحقيق: د. محمد رضوان الداية. دار الفكر، دمشق ١٩٨٧م.
- **رسائل البلغاء**: محمد كرد علي . مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط٣ ، القاهرة ١٩٤٤م.
- **رسالة التوابع والزوابع** : ابن شُهَيد الأندلسي (ت٤٢٦هـ). جمع وتحقيق وشرح: بطرس البستاني. دار صادر، بيروت.
- **رسالة الغفران**: أبو العلاء المعرّي. تحقيق: كامل كيلاني. ط٣، القاهرة. د. ت. وتحقيق وشرح د. عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف ١٩٦٢م.
- **رسالة مَلْقَى السَّبيل**: أبو العلاء المعرّي (ت٤٤٩هـ). نُشِرَتْ في تضاعيف (رسائل البلغاء) لمحمد كرد علي، القاهرة ١٩٤٤م.
- **زَجْرُ النّابح**: أبو العلاء المعرّي.جمع وتحقيق د. أمجد طرابلسي. مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٦٥م.
- **شرح المختار من لزوميّات أبي العلاء**: ابن السِّيدِ البَطَلْيُوسِيّ (ت٥٢١هـ) . تحقيق: د. حامد عبد المجيد.مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٧٠م.
- **شروح المقامات الحريرية**: أحمد عبد المؤمن الشَّرِيشي (ت٦١٩هـ) . المطبعة الأميرية، القاهرة ١٣٠٠هـ.
- **شروح سِقْطِ الزَّنْدِ**: لثلاثة من الشرّاح: التبريزي (ت٥٠٢هـ) ، البطليوسي (ت٥٢١هـ) ، الخوارزمي (ت٦١٧هـ). تحقيق: د. طه حسين وآخرين. دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٤٥-١٩٤٨م.
- **الصِّلة في تاريخ أئمة الأندلس ومُحدّثيهم وفقهائهم وأدبائهم**: أبو القاسم بن بشكوال (ت٥٧٨هـ). نشر وتصحيح: عزت العطار الحسيني، القاهرة ١٩٥٥م.
- **فهرسة ابن خير فيما رواه عن شيوخه من الدواوين المُصَنَّفَة في دروب العلم وأنواع المعارف**: ابن خير الإشبيلي. (ت٥٧٥هـ). منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٩م. مصوّرة عن الأصل المطبوع في مطبعة قومش بسَرَقُسْطَة عام ١٨٩٣م.
- **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**: الفتح بن خاقان (ت٥٢٩هـ). حققه وعلّق عليه د. حسين يوسف خريوش. مكتبة المنار، الأردن ١٩٨٣م.

- المطرب من أشعار أهل المغرب: ابن دحية الكلبي (ت٦٣٣هـ). تحقيق: إبراهيم الإبياري ورفيقيه، القاهرة ١٩٥٤م.
- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملمح أهل الأندلس: الفتح بن خاقان (ت٥٢٩هـ). تحقيق ودراسة: محمد علي شوابكة. مؤسسة الرسالة، ودار عمّار، بيروت ١٩٨٣م.
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب: عبد الواحد المراكشي (ت٦٤٧هـ). تحقيق محمد سعيد العريان. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٦٣م.
- المغرب في حلي المغرب: ابن سعيد الأندلسي (ت٦٨٥هـ). تحقيق: د. شوقي ضيف. ط٣، دار المعارف، القاهرة.
- نثير فرائد الجمان في شعر من نظم من فحول الزمان: ابن الأحمر (ت٨٠٧هـ). تحقيق: د. محمد رضوان الداية. دار الثقافة، بيروت ١٩٦٧م.
- نَفْحُ الطِّيب في غصن الأندلس الرطيب: المُقّري التلمساني (ت١٠٤١هـ). تحقيق: د. إحسان عبّاس. دار صُادر، بيروت ١٩٦٨م.

ثانياً - المراجع الحديثة :

- ابن شُهيد الأندلسي، حياته وأدبه: د. حازم عبدالله خضر.
- ابن شُهَيْد الأندلسي وجهوده في النقد الأدبي: د. عبدالله سالم المعطاني. منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٩٤م.
- أبو العلاء وما إليه: عبد العزيز الميمني. المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة ١٣٤٤م.
- أبو العلاء المعرّي ونظرة جديدة إليه: د. عبد الحكيم العبد. دار المطبوعات الجديدة، الإسكندرية ١٩٩٢م.
- أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري: د. فايز عبد النبي القيسي. دار البشير للنشر والتوزيع. عمّان ١٩٨٩م.
- الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه: د. مصطفى الشكعة. دار العلم للملايين، ط٦، بيروت ١٩٨٦م.
- الأصول الفنية للشعر الأندلسي (عصر الإمارة): د. سعد إسماعيل شلبي. مطبعة نهضة مصر، القاهرة ١٩٨٤م.
- بديع الزمان الهمذاني (رائد القصة العربية والمقالة الصحفية): د. مصطفى الشكعة. مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة ١٩٥٩م.
- تأثير أبي العلاء المعرّي في الأدب الأندلسي: د. أيمن محمد ميدان . مجلة كلية الآداب. جامعة المنصورة. أغسطس ٢٠٠١م.

- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة): د. إحسان عبّاس. دار الثقافة، ط٥، بيروت ١٩٧٨م.
- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): د. إحسان عبّاس. دار الثقافة، ط٣، بيروت ١٩٧٤م.
- تاريخ المعارضات في الشعر العربي: د. محمد محمود قاسم نوفل. دار الفرقان ومؤسسة الرسالة، ١٩٨٣م.
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب: د. إحسان عبّاس. دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان ١٩٩٣م.
- تاريخ النقد الأدبي في الأندلس: د. محمد رضوان الداية.مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت ١٩٨١م.
- تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري : د. مصطفى عليان عبد الرحيم. مؤسسة الرسالة، دمشق ١٩٧٨م.
- دراسات في الأدب الأندلسي: د. إحسان عباس وآخرين. الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٧٦م.
- الزرزوريّات، نشأتها وتطورها في النثر الأندلسي: د. فوزي سعد عيسى. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٠م.
- الشعر الأندلسي في عصر الطوائف: د. هنري بريس. ترجمة د. الطاهر أحمد مكي. دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠م.
- فن القصة والمقامة: د. جميل سلطان. دار الأنوار، بيروت ١٩٦٧م.
- الفن القصصي العربي القديم، من القرن الرابع إلى القرن السابع: د. عزة الغنام. الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩١م.
- فن المقامات بين المشرق والمغرب: د. يوسف نور عوض. مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة ١٩٨٦م.
- فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي: د. أحمد أمين مصطفى، القاهرة ١٩٩١م (د. ن).
- معارضات البارودي في ضوء الدراسات النقدية الحديثة: د. محمد فتوح أحمد. إصدار مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، القاهرة ١٩٩٢م.
- المعارضات الشعرية (أنماط وتجارب): د. عبدالله التطاوي. دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٨م.
- المعارضات الشعرية، دراسة تاريخية نقدية: د. عبد الرحمن إسماعيل السماعيل. النادي الأدبي الثقافي بجدة، المملكة العربية السعودية (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

- معارضة ملقى السبيل في الأندلس: د. أيمن محمد ميدان . مجلة كلية دار العلوم ، ع٣٩ ، ٢٠٠٦م.
- المقامة: د. شوقي ضيف. دار المعارف، ط٦، القاهرة ١٩٨٧م.
- نثر ابن برد الأصغر، دراسة فنية: د. أيمن محمد ميدان. صحيفة دار العلوم السنة السابعة – العددان الرابع عشر والخامس عشر، القاهرة ١٩٩٩-٢٠٠٠م.
- النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري، مضامينه وأشكاله: د. علي بن محمد. دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٠م.
- النثر الفني في القرن الرابع الهجري: د. زكي مبارك. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٣٤م.
- النثر الفني وأثر الجاحظ فيه: د. عبد الحكيم بلبع . مكتبة وهبة، ط٣، القاهرة ١٩٧٥م.
- نظرات جديدة في غفران أبي العلاء المعري: د. عمر موسى باشا. دار طِلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط١، دمشق ١٩٨٩م.

* * *

القدس : مشاهد الفتح والعِمارة

(استقراء للبُعْد المعماري في « أعلاق ابن شداد »)

د . م . بغداد عبد المنعم (*)

ثمَّة حقائق مختبئة طوتها حكمةُ التاريخ ، ربما لتترك الحاضرَ في واقعيته ولحظته ومشكلته ، غيرَ أنَّ ما يقدمهُ التاريخُ هذه المرة يصلح أن يشكل نقدًا لواقعٍ ، وجغرافية جديدة نسبيًّا ، إذ إن ما يقدمه هو تاريخٌ لبلاد الشام في القرنِ السابع الهجري . ففي هذا الجزء المهم والنادر من كتاب « الأعلاق الخطيرة » يحطُّ المؤرخُ المُجَدِّد ابنُ شدَّاد رِحَالَهُ وأقلامَهُ في لبنان والأردن وفلسطين ، ليقدمَ الخارطةَ السياسية والطُّبوغرافية للمدن الشامية في القرن السابع الهجري.

وكان قدَّم في جزئه الأول بقسمَيْه تاريخ جُنْد قِنَّسْرِين وجُنْد حِمْص وجُنْد دمشق ، وتاريخ مدينة دمشق . لكنه في هذا القسم موضوع هذه البحث يقدم - مع بقية المدن الشامية - مدينةَ القدس منذ ثمانمائة سنة ، ضمن الخارطة التاريخية لذلك الزمان ، وفي تأريخ معماري تناول تكوينات من المدينة ، في حركية تأريخية مثيرة ، كان من بين مضموناتها توصيف التشكيل المعماري المقدسي الذي كان يتغير نسبيًّا خلال الحروب الصليبية والفتوح الصَّلاحية والأيوبية للمدينة .

وسوف نحاول في هذا البحث التقاطَ هذه اللحظة (القرن السابع الهجري) من عمر القدس ، الذي قارَبَ أربعةَ آلاف عام . تاريخ طويل

(*) باحثة في تاريخ الهندسة العربية الإسلامية .

قبل القرن السابع الهجري من عمر هذه المدينة العريقة ، وتاريخٌ شاسع بعده ، وتكويناتٌ معمارية عَلَتْ وتحاورتْ ، وربما تهاوَى بعضُها ثم أُعِيدَ بناؤها مراتٍ عديدة ، لتشكّل تاريخها ، ليس من حيث شكل هذه التكوينات أو مادتها ، ولكنْ من حيث جغرافية مكانها الجبلي بين كتلتي جبال الخليل ونابلس اللّتين تفوقانها ارتفاعًا ، وإن كانت هي أكثر حصانةً وأهميةً .

(الكامل) في تاريخ بلاد الشام .. عدة تحقيقات :

وضع عزُّ الدِّين بنُ شدَّاد المتوفَّى سنة (٦٨٤هـ) كتابَ « الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة » ، وقد حُقّق هذا الكتاب المهمّ وطُبع بكامل أقسامه في سنوات مختلفة ، وقام بتحقيقه أكثر من محقّق ؛ فالدكتور سامي الدَّهَّان يتحدث عن تجربته - التي تعود إلى خمسينيات القرن الماضي - من خلال تحقيقه للجزء الثاني من الكتاب بقسميه : تاريخ دمشق ، ثم تاريخ لبنان والأردن وفلسطين . يقول في مقدمة القسم الثاني من هذا الجزء الثاني : « ولكنَّ أجزاءه تفرقت نُسَخُها في أطراف المعمورة ، فاستلبتْ كلُّ خزانة من خزائن الشرق والغرب جزءًا من كتابه الكبير ، وقام الدارسون بوصف مخطوطات الأجزاء الثلاثة .. وظلوا يتحدثون عنها منذ ثلاثين عامًا في المجلات والمؤتمرات ... »(١) .

وسوف نرصد هنا أقدم الإصدارات والنشرات والتحقيقات التي صدرت لهذا الكتاب ، حتى يتبين لنا مدى العناية والاهتمام به في العصر الحديث :

---

(١) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لابن شدَّاد عز الدين . تاريخ لبنان والأردن وفلسطين . تحقيق سامي الدهان . المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق . ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م . م[١٥] .

كان المستشرق الفرنسي دومينيك سورديل D. Sourdel ، أولَ مَن حقّق الكتاب ، فقد أصدر القسم الأول من الجزء الأول المتعلق بمدينة حلب ، وقام بنشره المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق سنة ١٩٥٣م .

ثم حقَّق الدكتور سامي الدَّهَّان الجزء الثاني من الكتاب بقسمَيْه ، وصدر عن المعهد الفرنسي بدمشق : صدر القسم الأول منه المتعلق بمدينة دمشق سنة ١٩٥٦م ، وصدرت الأقسام التالية (جند دمشق - جند الأردن - جند فلسطين - المزارات في الأجناد الثلاثة) سنة ١٩٦٢م .

ثم حقَّق يحيى زكريا عبارة الجزء الثالث (تاريخ الجزيرة والموصل) ، وصدر بقسمَيْه عن وزارة الثقافة بدمشق سنة ١٩٧٨م . كما حقَّق الجزءَ الأول من الكتاب بقسمَيْه : الأول المتعلق بـ (تاريخ مدينة حلب) ، والثاني ما اشتمل على (جند قِنَّسْرِين وبلاد العواصم والثُّغور وبلاد حمص) ، وصدر عن وزارة الثقافة في دمشق سنة ١٩٩١م . ثم أعادت وزارة الثقافة طباعة هذا الجزء بقسمَيْه سنة ٢٠٠٦م ، بمناسبة احتفالية « حلب عاصمة للثقافة الإسلامية » .

وهكذا نكون قد عرضنا لتاريخ تحقيق هذا الكتاب المهم وسنوات نشره ، ورغم هذه الجهود المبذولة في تحقيقه فإنه بحاجة إلى أن يصدر في طبعة واحدة رصينة تامَّة ؛ لأنه يشكّل أهمّ تاريخ كامل لبلاد الشام ، ليس من الناحية التقليدية فحسب ، بل من الناحية المدنية والمعمارية. فهو يعد وثيقة للبحث التاريخي عن بلاد الشام ومدنها وخارطتها في القرن السابع الهجري .

(جند دمشق - جند الأردن - جند فلسطين)

الخارطة السياسية القديمة :

يتناول القسم الثاني من الجزء الثاني من كتاب « الأعلاق الخطيرة » جند دمشق ، وجند الأردن ، وجند فلسطين ، وهو من أكثر أجزاء الكتاب أهمية وندرة ، فـ « .. لا يقع القارئ على تاريخ للبنان في مدنه وقراه ، ولا يقع على تاريخ للأردن إلا كما جاء هنا ، ولا يكاد يجد تاريخًا لفلسطين منذ الفتح الإسلامي حتى القرن السابع الهجري يحوي المدن والأصقاع ، ويشمل الحديث عن الأماكن الإسلامية والمسيحية مثل ما أورد ابن شدَّاد في كتابه هذا ، فهو كتاب تاريخي يضم تاريخ فلسطين والأردن ولبنان على صعيد واحد »[1].

كانت بلاد الشام حتى عهد ابن شدَّاد تخضع لنظام الأجناد في تقسيماتها منذ الفتح الإسلامي ، والأجناد الشامية خمسة : (جند قِنَّسْرِينَ وفيها حلب ، وجند حمص ، وجند دمشق ، وجند الأردن ، وجند فلسطين).

وجند دمشق كانت تضم (حُورانَ وبُصْرَى وأذْرِعاتِ وعمّان وبَعْلَبك وصَيْدا وبيروت وطرابلس ، ومدن وقرى تَتْبعها) . وجند الأردن وفيها (طَبَرِيّا وبانْياس وصَفَد وشَقِيفُ أرنونَ ، والسواد وبَيْسان وصور وعَكّا وحَيْفا) . وجند فلسطين وفيها (الرَّمْلة وأرسوف والقدس والخليل ونابلس وقَيْسارية ويافا وعَسْقلان وغَزَّة).

(١) الأعلاق الخطيرة ج٢ق٢ . من مقدمة المحقق م[١٦] .

(بن هورين) .. وطلب المخطوطة من مكتبة ليدن :

في بحثهم اللّاهث عن نقطة من التاريخ يستندون إليها في وجودهم على أنهم دولة في أرض فلسطين ، ومن واقع حملة قديمة - جديدة يقوم بها المستشرقون اليهود أو المتصهينون .. نشهدُ التسارعاتِ (البحثية) و(التنقيبية) التي تفتعل البحوثَ والدراسات للتقليل من الأهمية العربية والإسلامية للقدس وتسطيحها ، وتضخيم وجود يهودي - صهيوني ، بل افتعال هذا الوجود ، واستخراجه من تحت التراب أو من فوقه ، أو من ورقة قديمة ، أو من تأويل ، أو من تحميل ، أو من تآمرٍ بحثي ، كل ذلك يجعل ممارسات الكيان الصهيوني الدؤوبة والمستمرة لتهويد القدس شرعية و « مُؤَدْلَجَة » .

ذهب هؤلاء المستشرقون طولًا وعرضًا .. غير أنهم اهتموا اهتمامًا أكبر بفترة (الحملات الصليبية) ، وهي الفترة التي وضع ابنُ شدَّاد فيها كتابه ، وكانوا في ذلك يحاولون أن يجدوا دورًا لليهود في مقاومة الصليبيين في القدس ، كل ذلك لإثبات أن القدس هي مدينتهم ! ولأنه لا دليل على مثل هذا الأمر فقد ذهبوا إلى تجريح الوجود العربي الإسلامي وتَسْطيحه ، فذكر أحدهم (يهانويل سيفان) بأنَّ المسلمين لم يأبَهُوا للاحتلال الصليبي للقدس ! وأصحاب هذا الزعم شرعوا في البحث والتنقيب كي يجدوا شيئًا يساعدهم على اختلاق حضور تاريخي لليهود في القدس ، ليس ذلك فقط بل تسطير مقاومة أبداها (اليهود) في مواجهة الصليبيين .. تُداني - أو تشابه - تلك المقاومة المستمرة التي أبداها العرب والمسلمون .. لكنَّ اليهود لم يكن لهم أدنى حضور سياسي مذكور في تلك الفترة ، بل لم تكن هناك مثل هذه المسألة الغريبة بالمرّة !

وقد ركَّزَ هؤلاء المستشرقون على الناحية الديموغرافية للقدس ، وأنها بقيت طوال العهود الإسلامية مدينة مُهملة بلا هوية عربية إسلامية .. ورغم أن هذا الكلام ليس علميًا ولا يستحق الرد عليه ، فإني أقول: إن البعد المعماري في مدينة القدس وحده يُشَكِّلُ موسوعةً في تاريخ العمارة والفن المقدسي الإسلامي والمسيحي أيضًا ، وبالاعتماد على المرجعيَّات التاريخية العربية فقط .

وهكذا ، ونظرًا لتأكيد المستشرقين على أهمية هذا الجزء من « الأعلاق الخطيرة » فقد حاولَتْ الطلائعُ الأولى من المستشرقين اليهود الذين وصلوا إلى فلسطين - الحصول على نسخة منه بغية نشره . بدأت هذه المحاولات منذ سنة ١٩٤٧م (قبل أن تبدأ التحقيقات العربية وغير العربية للكتاب) في جامعة القدس المحتلة ، وهو ما حاوَلَه المستشرق اليهودي (بن هورين) . وكانت الغاية من اهتمام المستشرقين المبكّر بهذا الكتاب هي نشره وترجمته ، ولكن هذا المستشرق (بن هورين) مات قبل أن يحقق أي شيء من هذا .

غير أننا نذهب إلى ما ذهب إليه د. سامي الدَّهَّان في مقدمة تحقيقه الجزء الثاني من الكتاب ، من أن (بن هورين) كان يبحث عن مرجع يشير إلى وجود يهودي في هذه المناطق ، فكأنه حَسِبَ أن يرى عند ابن شدَّاد إحصاءً بعدد اليهود في كل مدينة ... غير أنَّ ابن شدَّاد لم يذكر في تاريخه أي شيء من هذه الإحصاءات ، إذ إنَّ منهجيته التاريخية كانت بعيدة كل البعد عن أن تهتم بهذا الأمر الطائفي للغاية والجزئي للغاية . ويبدو أنَّ الأمر الذي حَفَّزَ (بن هورين) للاهتمام بذلك هو أن بعض الرحّالة اليهود كانوا يذكرون مثل هذه الإحصاءات ، فلعله توسّم أن يجدها عند مؤرّخ مسلم مرموق مثل ابن شدَّاد ، لكنه لم يجد ذلك !

لا شكَّ أنَّ مدينة القدس غدَتْ هدفًا أوروبيًّا مباشرًا ، استند بعنف إلى الشغف الديني ، منذ سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦م [١] ، وعلى امتداد هذه الفترة نشطَ الرحّالة والمستكشفون الأوروبيون الذين شكّلوا في بعض الأحيان فرعًا استشراقيًّا رفد الخطة الأوروبية العامة في تحميل الشرق على مشروعاتهم !

كانت البِنْية الأوروبية غير المتكافئة والمستندة في حروبها على الشرق الإسلامي إلى سبب ظاهري وحيد « أدْلَجَ » لها مشروعيةَ هذه الحروب وجعلها (مُقَدَّسة) - كان في هذه البنية عدةُ جيوب يهودية ما فتئتْ تُظهِرُ هويتَها بعزلتها الشديدة (الجيتو) ، وتُظهِرُ رغبةً (استشراقية خاصة) داخل الرغبة الأوروبية العريضة ، يحدوها بعنفٍ ، بل بوحشية مَرَضية (شغف ديني) وشغف أيضًا إلى بيت المقدس .

وكان (الجيب الأندلسي اليهودي) مندمجًا إلى حدٍّ حضاري وإنساني في المجتمع الأندلسي المسلم ، حتى إنَّ هؤلاء اليهود الأندلسيين هاجروا بعد سقوط غَرْناطة سنة ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢م هربًا من محاكم التفتيش ، وانساحوا في البلاد العربية والإسلامية .

ويبدو أنَّ رحلة الرحّالة اليهودي بنيامين التُّطِيلي [٢] التي ابتدأها سنة ٥٦١هـ / ١١٦٥م من الأندلس إلى المشرق ، وزار خلالها فلسطين ، وذكر عدد اليهود في كل المدن المشرقية الإسلامية التي زارها ، في عَكّا كان ٢٠٠ يهودي ، وفي اللُّدِّ كان يهودي واحدًا ! وفي نابلس لم يكن يوجد بها يهود ألبتّة ، وكان في الرَّمْلة ٣٠٠ يهودي - هي التي حَفَّزَتْ (بن هورين) للاهتمام

(١) استغرقت الحروب الصليبية ما بين سنتي (١٠٩٦-١٢٩١م / ٤٩٠-٦٩٠ هـ). وهي عبارة عن ثماني حملات عسكرية سبقتها حملة شعبية .

(٢) رحلة بنيامين التطيلي .ترجمها إلى العربية عزرا حداد - بغداد - ١٩٤٥ م .

بمخطوطات أخرى عَلَّه يجد من ورائها شرعية جديدة لحضور دولة الكيان الصهيوني الغريب الذي زرعه الأوروبيون في الشرق الإسلامي بناءً على وَعْد بلفور سنة ١٩١٧ .

خطأ قديم .. بدأ من كارل بروكلمان :

احتملَ هذا الكتابُ منذ أن كان مخطوطًا خطأً أضاف إليه تشتتًا غير تشتُّت مخطوطاته بأجزائها وأقسامها . وهذا الخطأ ناشئٌ من الخلط بين مؤرِّخَيْن تشابها في الشهرة وتقاربا في الزمن .. فثمّة مؤرخان حملا شهرة (ابن شدَّاد) ، والغريب أنَّ كلًّا منهما ألَّف كتابًا في السلطان الذي عاصره . ابن شدَّاد بهاء الدين الذي عاش في زمن صلاح الدين الأيوبي وكنَفِه وضع فيه « النَّوادر السُّلْطانية والمحاسن اليوسفية » ، وهو كتاب مشهور وسيرة عرفها الناس ، وبها غطَّى على ابن شدَّاد عزّ الدّين الذي توفّي بعده باثنتين وخمسين سنة (وُلد بهاء الدّين بن شدَّاد في حلب سنة ٥٣٩هـ وتوفي بها سنة ٦٣٢هـ . أمّا عزّ الدّين بن شدَّاد فقد ولد بحلب سنة ٦١٣هـ وتوفي بالقاهرة سنة ٦٨٤هـ) .

عاش عزّ الدّين بن شدَّاد في زمن السلطان الظاهر بيبرس وألَّف فيه « الرَّوْض الزَّاهر في سيرة الملك الظَّاهر » ، وهي - على ما أعتقد - ما تزال مخطوطة[1] . وحتى كارل بروكلمان - توفي سنة ١٩٥٦م - في كتابه الشهير « تاريخ الأدب العربي » خلط بين الاثنين ، ونسب أحد أجزاء كتاب

---

(١) بل لعله المطبوع باسم « تاريخ الملك الظاهر » ، بتحقيق أحمد حطيط ، ألمانيا الاتحادية ، مطابع مركز الطباعة الحديثة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م . انظر : د. صالحية : المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ٣/ ٣٦٦ (المجلة) .

« الأعلاق الخطيرة » ، ولعلَّه الجزء المتعلق بتاريخ حلب لبهاء الدّين بن شدَّاد [1] .

مَشاهد مقدسية من القرن السابع الهجري :

لن أجري مسحًا تاريخيًّا عن مدينة القدس ، بل سألتقط بضعة مشاهد ، منها مشاهد سياسية تاريخية ، وقليلٌ منها معمارية مدنية كتلك المتعلّقة بالعمارة وتزويد المدينة بالمياه .

مشهد عام :

يقدم ابنُ شدَّاد وصفًا شاملاً للمدينة بوضعها وأبوابها ، فهي مدينة ممتدة طولانيًّا على جبل ، يُصْعَد إليها من كل جانب ، ويذكر لها أبوابًا أربعة في الجهات الأربعة : في الغرب باب المحراب وعليه قُبَّة داود ، وفي الشرق باب الرحمة وكان يظلُّ مغلقًا في زمن ابن شدَّاد لا يُفتح إلا في عيد الزيتون إلى مثله ، وفي الجنوب باب صهيون ، وفي الشمال باب الغُرابِ . والداخل من باب المحراب يتوجّه من الغرب إلى الشرق في دَرْبٍ ضيقة فيغدو في كنيسة القيامة ، ويصف ابنُ شدَّاد عمارتها بأنها من عجائب الدنيا[2] .

أمَّا الآن فلمدينة القدس سبعةُ أبواب مستعملة وثلاثة مغلقة ، والسبعة المستعملة هي : باب العمود أو باب دمشق ، وهو في منتصف الحائط الشمالي لسور القدس ، ثم باب السّاهرة ويقع في الحائط الشمالي لسور القدس ، وباب الأسباط الذي يقع في الجزء الشرقي من السور ، ثم باب

(١) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي . نقله إلى العربية د. عبد الحليم النجار . جامعة الدول العربية . دار المعارف – مصر – ١٩٧٧ م – ج٦ ص ١٢ وص ١٣ .

(٢) المصدر السابق ص١٩٨–١٩٩ .

المغاربة ، وباب النبي داود (صهيون) وهما في الحائط الجنوبي لسور القدس ، وباب الخليل في الحائط الغربي ، والباب الجديد الذي افتتح في نهاية القرن التاسع عشر عند زيارة الإمبراطور الألماني غليوم الثاني لمدينة القدس . والأبواب المغلقة ومنها باب الرحمة ، والباب المزدوج ، والباب المثلّث .. ويعتقد أنها جميعًا قائمة منذ العهد الأموي . إذن فقد تغير عدد الأبواب وأماكنها وتغيَّرَتْ نسبيًّا أسماؤها .. وحديثًا أضاف الحضورُ التاريخي والسياسي الغربي اسمًا رومانيًّا لبعض الأبواب ؛ فباب الساهرة عندهم هو باب هيرودوس ، وباب الأسباط هو باب إسطفان.. !

المقدمة من مشهد قديم رفيع .. العُهدة العمرية :

نقل ابن شدَّاد النصَّ التاريخي [1] المتعلِّق بفتح القدس عن البلاذُرِي ، ولعلَّه أحد النصوص المشهورة : « قدِمَ أبو عبيدة على عمرو بن العاص وهو يحاصر إيلْياءَ سنة سِتَّ عشرةَ ، فطلب أهلها من أبي عبيدة الأمان والصُّلْح على ما صُولِحَ عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج ، على أن يكون متولِّي العقد لهم عمر بن الخطاب بنفسه . فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك . فسار عمر رضي الله عنه حتى نزل بالجابية من دمشق ، ثم صار إلى إيلْياء فأنفذ صُلْحَ أهلها ، وكتب لهم بذلك ، وذلك في سنة سبعَ عَشْرةَ » .

وهذا المشهد المقدسي القديم يوردهُ ابنُ شدَّاد لألَقِه الشديد ، ذلك أنه يساوي بين كبرياء المنتصر وعدلِهِ ، وهذا المشهدُ لا يتحقّق إلّا إذا كان صادرًا عن تمكُّن وقوّة عميقة تَدْعَمُها أصولٌ حضارية وثقافية وأخلاقية ، عندئذٍ يبدو الأمر مختلفًا فيحلُّ الالتزام بالكلمة والميثاق محلَّ الحروب

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، نُشر في مصر سنة ١٩٠١ ، ص ١٤٥ .

والمعاركِ ، وتحلّ الرّقة والعدل محلّ القوّة ، مشهدٌ فريدٌ قد لا نراه في التاريخ إلّا نادرًا ، لكننا رأيناه عندما نزل عمر بن الخطّاب ﵁ إلى إيلْياء (بيت المقدس) ، ليُنْفِذ الصلح بنفسه .

حالةٌ نموذجية جمَعَتْ السياسةَ إلى العدالة الرفيعة .. في هذه الحالة ارتحلَ الخليفةُ القوي العادل صاحب المنجَزات التأسيسية والاستراتيجية عمر بن الخطاب صوبَ بيتِ المقدس لينجزَ الصُّلحَ بنفسه مع أهل إيلْياء في نَصٍّ عُرِفَ بـ « العُهْدَة العُمَرية » . ولكن أين تكمنُ العدالةُ الرفيعةُ في هذا المشهد ؟ إنها تكمنُ أولًا ، في حضور الخليفة نفسه مليبًا رغبة الأهالي ، وذلك بُعَيد الانتصار الكبير الذي حقَّقهُ المسلمون في معركة اليرموك ، وكان في المنطقة حينذاك عددٌ غيرُ قليل من قادة المسلمين كان بإمكانهم القيام بهذه المهمّة . وثانيًا ، في كون الخليفة رفض أن يُصلِّيَ في كنيسة القيامة حتى لا يصبح ذلك تقليدًا إسلاميًّا بعد حين ، ويُظْلَمُ المسيحيون في مكان عبادتهم . وثالثًا ، الاحترام العميق لهذه المدينة الحضارية العريقة .

إذن فإنه يُمْكِننا أن نُصنِّفَ سلوكَ الخليفة عمر بن الخطّاب في هذا المشهد بأنّه سلوك ينتمي إلى بُنية سياسية مُنتصرة ذات محتوى ثقافي وأخلاقي جازمٍ في عدله المطلق .

المشهد الأول : استرداد بيت المقدس وعمارة الفتح :

ينْصَبُّ حديثُ ابنُ شدَّاد على الأحداث التي حدثت بمدينة القدس قبيل الفتح الصَّلاحي للمدينة واستردادها من الصليبيين ، فيبدأ من خارج أسوار القدس : نَصَبَ صلاح الدين يوسف بن أيوب المنجنيقات ، « وسلّط على سوره النُّقوبَ ، مما يلي واديَ جهنَّم - الذي يقع في الجنوب

والجنوب الغربي للقدس – إلى أن تسلَّمه يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ثمان وثمانين » [1] ، يعني سنة ٥٨٨ هـ .

ثمة رسالة [2] قيّمة يوردها ابن شدَّاد للقاضي عبد الرحيم بن علي البَيْساني المعروف بالقاضي الفاضل [3] في فتح القدس ، وسوف أستند إليها لأنها تقدم شرحًا مفصَّلًا يتحوَّل في النهاية إلى شرح معماري وفنّي. ولن أتناولَها بشكل كامل ، بل سأجتزئ منها بما يشرح حادثة الفتح ، ذلك الشرح الميداني ، فهو يذكر الأماكن والإجراءات ... إلخ .

مخزن فوضوي للفرنجة ومرتزقتهم .. قبيل الاسترداد الصلاحي :

ليست المدينة إلا بأبعاد أساسية ، منها البعد الدِّيمُوغرافيُّ ، ذلك الذي يَشي بحركيّتها ومقدار ما يمكن أن يصدر عنها من فعل عسكري أو مدني .

---

(١) الأعلاق ، مصدر سابق ص ٢٠٣ .

(٢) وردت هذه الرسالة في الأعلاق ، المصدر السابق من ص ٢٠٤ إلى ص ٢١٠.

(٣) ولد القاضي عبد الرحيم بن علي البيساني المعروف بالقاضي الفاضل في عسقلان . وتوفي سنة ٥٩٦ هـ ، وردت ترجمته وأشعاره ورسائله في : (خريدة القصر وجريدة الدهر ، للعماد الأصفهاني – قسم شعراء مصر ، نشره أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس بمصر ١٩٥١م – ١/ ٣٥ وما يليها) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٢٨٤ ، وطبقات الشافعية للسبكي ٤/ ٢٥٣ ، وكذلك في الدارس في تاريخ المدارس ، لعبد القادر بن محمد النعيمي ، تحقيق الأمير جعفر الحسني بدمشق ١٩٤٨ – ١/ ٨٩ ، والأعلاق الخطيرة لابن شدَّاد ، الجزء المتعلق بتاريخ مدينة دمشق ص ٣٠٩ . وأما الرسالةُ التي نقصدها هنا والتي أوردها ابن شدَّاد في هذا الجزء من « الأعلاق » فقد وردت في ترجمة صلاح الدين الأيوبي عند ابن خلكان في وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، طبعة القاهرة ١٣١٠ هـ ، وعند القلقشندي في صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، طبعة مصر ١٩١٣ – ١٩١٨ ، ٨/ ٢٨١ ، وعند مجير الدين الحنبلي في الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، طبعة المطبعة الهبية بمصر ١٢٨٣هـ . وقد كتب القاضي الفاضل هذه الرسالة بخطه ومن إنشائه ، ووجهها إلى الخليفة على يد ضياء الدين بن الشهرزوري .

وهكذا عَبَّرَ القاضي الفاضل عن هذه القضية في مبدأ رسالته ، فهذا الوضعُ لا بد أن تكون الدولة الصَّلاحية قد بحثته بجديَّة خلال التحضيرات العسكرية وغير العسكرية لعمليات استرداد المدن والأراضي من الفِرنجة القادمين من أوروبا ، يقول : « ولما لم يبقَ إلا القدس اجتمع إليها منهم كل شَريد طَريد ، واعتصم بمَنَعَتِها كل قريب منهم وبعيد ، وظنوا أنها من الله مانِعَتُهم ، وأن كنيستها إليه شافعتهم ، فلما نزلها الخادم رأى بلدًا كبلاد ، وجمعًا كيوم التَّناد ، وعزائم قد تألَّبت وتآلفت على الموت فنزلت بِعَرْصَتِه ، وهان عليها مَوْرِد السيف وأن تموت بِغُصَّتِه »[1] .

يقدِّم النصُّ السابق معلومة مهمَّة تؤكِّد أن مدينة القدس قُبيلَ أن يستردَّها صلاح الدين (٥٨٣هـ-١١٨٧م) كانت ملجأً فوضويًا للفرنجة والجيوش المرتزقة التي انضوت تحت شعارات دينية عريضة ، فتذهب إلى الموت في سبيل ذلك. وبالرغم من تحوُّل المدينة إلى معسكر شاسع مُشْبَع بالرَّغبات التَّطرفية التي وَلَّدتها وأَجَّجَتْها أوروبا في هذا الوقت المبكّر ، ودفعت بها خارج أرضها تنشر إرهابًا واسعًا في المشرق العربي الإسلامي ، وذلك قبل زمن طويل جدًّا من ظهور هذا المصطلح وظلاله السياسية والإعلامية في مطلع القرن الحادي والعشرين .

وقد أدرك صلاح الدّين ومنظومة دولته التَّرديَ والضَّعْف الذي وصلت إليه هذه التجمعات الصَّليبيَّة ، كما أدرك أن هذه المساحة الجبلية الصغيرة (مدينة القدس) هي النقطة الوحيدة التي بقيت لهم وبقوا فيها ، فما كان أمامه إلا الحصار والاستمرار في دكّ الأسوار ، وإن هو إلا زمنٌ لن يكون طويلًا .

(١) الأعلاق ، المصدر السابق ص ٢٠٤ .

المعاينة والاستطلاع الميداني لمحيط المدينة :

ينتقل القاضي الفاضل بعد ذلك في رسالته ليسجّل المعاينة الميدانية التي قام بها صلاح الدين ومستشاروه العسكريون والسياسيون - أو منظومات دولته - لمحيط مدينة القدس قبل أن يضع خطةَ الحصار وآليّته ، « فزاوَلَ البلد من جانب ، فإذا أودية عميقة ، ولُجُجٌ وَعرة غريقة ، وسور قد انعطف عطف السوار ، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار ، فعدل إلى جهة أخرى كان للمطامع عليها مُعَرَّج ، وللخيل فيها مُتَوَلَّج »[1] . رسم هذا الاستطلاع كما ورد في النصِّ طُبُوغْرافيةَ المنطقة المحيطة بالمدينة ، وكذلك وضَعَ تصورًا عن أشكال التحصينات ودرجة مَنَعَتِها ومقاومتها ، حتى يتم اختيار النقطة الأكثر ضعفًا والمواتية لبدء الحصار ومن ثم الهجوم ، فقد أسفر الاستطلاع عن مدينة جبلية تحيطها الأودية العميقة ، وحولها تحصيناتٌ رَصينةٌ مرتفعة مكوّنة من عناصر العمارة العسكرية التقليدية في ذلك الزمان (الأسوار والأبراج) .

بدء الحصار وآلياته :

يتقدَّم النصُّ في الحدث الذي يقوم بتسجيله على نحو متنوّع ومثير إلى حدٍّ ما ، مما يسمحُ لنا بمقارباتٍ ، من خلاله ، تعطيه ملامحَ واضحة : « فنزل عليها وأحاط بها ، قرُبَ منها وضرب خَيْمته بحيث يناله السلاح بأطرافه ويزاحمه السورُ بأكتافه ، وقابلها ثم قاتلها ، ونزل عليها ثم نازلها . وبرز إليها ثم بارزها ، وحاجزها ثم ناجزها ، فضمَّها ضمَّة ارتقب بعدها الفتح ، وصدع جمعها فإذا هم لا يصبرون على عبودية الحد من الصَّفْح ،

(١) المصدر السابق ص ٢٠٥ .

فراسَلُوه ببذل قطيعة إلى مدة ، وقصدوا نظرة من شدة وانتظار النَّجْدة ، فعرفهم الخادم في لحن القول ، وأجابهم بلسان الطَّوْل »[1] .

ويُظهر نصُّ القاضي الفاضل أن من آليات الحصار الصَّلاحية للقدس التَّـتَرُّسَ قريبًا جدًّا من الأسوار ومن مَرْمَى أسلحة الفِرِنْجة ، واستطلاع المدينة والتمكن منها نظريًّا ثم موقعيًّا : (قابلها ، نزل عليها ، برز إليها ، حاجَزَها) ، وهي الأفعال الأولى من الجمل الثنائية التي ذكرها في النصّ السابق ، وهي تدل على الفعل التالي التنفيذي الذي يليها : (قاتلها ، نازلها ، بارزها ، حاجَزَها) ، ولعلها دقة لفظية توازي دقة الفعل والتنفيذ ... ومن ثَمَّ كسر التجمُّع الدفاعي المواجه .. وعن ذلك يميلُ الفِرنجة إلى المناورة والخداع بطلب مهلة ، وأما صلاح الدين فلم يكن ليميل معهم هذه المَيْلة ، ولديه سِجِلٌّ طويل من تحقيق الأهداف المتوالية ، وكان آخرها هو هذه المدينة المهمّة .

آلية الهجوم وأدواته .. وفسيفساء الحدث :

يواصل القاضي الفاضل نصَّه ، وإذا كان الأسلوب الأدبي القائم على السَّجْع قائمًا بجلاءٍ ، فإن القاضيَ جعله وسيلةً جذَّابة إلى درجة ليست مُمِلّة ولا مَمْجوجَة ، لفرز تفاصيل الحدث وتقديمه في جُمل قصيرة واضحة يرصفها ليشكّل منها فُسَيفِساء الحدث ، فكأنه يقدم لقطات متوالية من عدة نقاط متقاربة : « وقَدَّمَ المنجنيقات التي تتولى عُقُوبات الحصون عصيُّها وحبالها ، وأوتر لهم قسيَّها التي تضرب ولا تفارق سهامَهَا نصالُها ، فصافحت السور فإذا سِهامُه في ثنايا شُرفاتها سِواك ، وقدَّم النصر نَسْرًا من

(١) المصدر السابق ص ٢٠٥ .

المنجنيق يُخْلِدُ إخلاده إلى الأرض ، ويعلو علوه إلى السِّماك »[١] .

كانت المنجنيقات هي الصفُّ الأول من الجيش الصَّلاحي المواجه مباشرة لأسوار القدس ، وحينذاك بدتْ كم هي صغيرة هذه السهام فوق لوحة السور والأبراج . وإنَّ النصَّ لَيَشِفُّ عن وصف دقيق لآلية عمل المنجنيق ومقذوفاته التي تعلو إلى ارتفاع شاهق لتهبط بتسارع كبير فوق هدفها .. فتبدو من أجزاء هذه الآلة العسكرية من زمن الدولة الصَّلاحية (العِصِيّ - الحبال - الأوتار - القِسِيّ - السهام - النِّصال) ، ونلاحظ الشُرفات بوصفها عنصرًا معماريًّا يدخل في تكوين السور والأبراج .

نقب السور ودكّ حجارته :

يسير حدَثُ فتح القدس بصورة متنامية ، ويحدث الانتقال من الحصار إلى الهجوم ، ثم انهيار التحصينات ودخول المدينة : « فَشَجَّ مدارعَ أبراجها ، وأسْمَعَ صوتُ عَجِيجَها صُمَّ أعلاجها ، ورفع مُثار عَجَاجها ، فأخلى السورَ من السيارة والحَرْبَ من النظّارة ، فأمكن النَّقَّاب أن يُسْفِر للحرب النِّقاب ، وأن يعيد الحجر إلى سيرته الأولى من التراب ، فتقدم إلى الصخر فمضغ سَرْدَه بأنياب مِعْوَله ، وحَلَّ عَقْدَه بضربه الأخرق الدال على لطافة أنْمُلِه ، وأسمع الصخرة الشريفة حنينَه باستقالته ، إلى أن كادتْ ترِقُّ لمقالته ، وتبَرَّأَ بعضُ الحجارة من بعض ، وأخذ الخرابُ عليها مَوْثِقًا فلن يبرح الأرض »[٢] .

أعتقد أنَّ أسلوب النصِّ ، وإن كان يبدو مصنوعًا أو متكلِّفًا ، هو إلى

(١) المصدر السابق ص ٢٠٥-٢٠٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٦ .

الدقة أقرب ، وإنما يبقى لكل زمن طرائقه في التَّعْبير ، ولكل كاتب أسلوبه ، ويمكن أنْ نطلق على هذا الأسلوب في الكتابة ابتداءً : الأسلوب التأريخي الكلاسيكي إن أحببنا امتطاء القالبية المصطلحية الغربية ، فالكاتب في هذا الأسلوب يُشكل نصَّه تشكيلًا رصينًا مليئًا قويًّا ، وهو بالعمق أسلوبٌ أدبي ، ألا ترى قوله - على سبيل المثال - : فاستخرج من حجارة السور (حنينًا ورِقةً) .

وعلى كلٍّ فإن أسوار القدس بدأت بالتَّداعي ، وكان في هذا المشهد سقوط أبراج السور سقوطًا مريعًا بصوت هائل وانتشار غبار الانهيار والتفتُّت .. وهذا الضَّجيج الصَّوتي والهوائي والخطر أبعدَ السائرين والناظرين من الفِرنجة فوق الأسوار ، وحدثت فجوة في السور ودُكَّتْ الحجارةُ حتى تحولت إلى شكلها الترابي الأول ، ولعل النِّـقَاب (أداة من المنجنيق) هي التي تابعت تكسير الصُّخور من خلال حديدة كبيرة مزوَّدة بأسنان مُدَبّبة (أنياب) . ولا ننسى مقدار المرح في هذا النصّ ، وهو ما يدل على قوة تعبيرية تعكس ثقة وهدوءًا ويقينًا وتمكنًا عسكريًّا .

دخول القدس .. ومفاوضات التسليم :

هذا الحصار الذي ظهرت فيه المنجنيقات وظهرتْ دقةُ تنفيذه ، فتَح بابًا إلى المدينة : « وفتَح من السور بابًا ، سدَّ من نجاتهم أبوابًا ، وأخذ يَفُتُّ في حَجَرِه ، فقال عنده الكافر : يا ليتني كنت ترابًا ، فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدُّور ، كما يئس الكفار من أصحاب القبور ، وجاء أمر الله وغرَّهم بالله الغَرور » (١) .

(١) المصدر السابق ص ٢٠٧ ، ص٢٠٨ . وكان القائد العسكري الصليبي في القدس عند الفتح الصلاحي يُدْعَى : غي دي لوزينيان .

وهي ليست مفاوضات بالمعنى الدقيق ، بل محاولات من قبل الفِرِنجة للتقليل من الخسائر والقتلى .. وقد طلب ذلك من المسلمين قائدهم (ابن بارزان !) ، ولكن المسلمين كانوا دومًا مبتعدين عن العنف في كل مواجهاتهم التاريخية ، وكانت هذه إحدى المرَّات التي اشتُهرتْ بذلك ، وبالفعل فإن الأمراء في الجيش الصَّلاحي أشاروا إلى الابتعاد عن العنف وحقن الدماء لأن الفَتْح قد تمَّ لهم .

الشكل المعماري للقدس حين الفتح الصّلاحي - نصٌّ في تاريخ العمارة :

يبدو أنَّ الاهتمام بالمدينة وتكوين نصٍّ يصفها ليؤرِّخ لها ، شَكَّل اهتمامًا محوريًّا لكلٍّ من ابن شدَّاد والقاضي الفاضل ، والأخير يصفها حين انتُزعت من الفِرِنجة : « حَمَوْها بالأَسَل والصِّفَح ، وبنوها بالعَمَد والصُّفَّاح ، وأودعوا الكنائس بها وبيوت الديوية والاسبتارية منها كل غريبة من الرُّخام الذي يطرد ماؤه ولا ينطرد لَألأوه ، قد لطف الحديدُ في تجزيعه ، وتفنّن في توشيعه ، إلى أن صار الحديدُ - الذي فيه بأسٌ شديد - كالذهب الذي فيه نعيم عَتيد ، فما ترى إلا مقاعدَ كالرياض ، لها من بياض الترخيم رَقْراق ، وعمدًا كالأشجار لها من التنبيت أوراق »(١) .

وأقيمت أول صلاة جمعة في المسجد الأقصى في الرابع من شعبان من سنة الفتح نفسها(٢) . والأَسَل والصفح هي الرماحُ والسيوف ، وأما العمارة فكانت رفيعة ومنمّقة ، فتشكّلت من الأعمدة والجدران التي كُسيت بالحجر الرقيق العريض الأبيض (الصفاح) ، وكانت هذه المواد تتردد في

(١) المصدر السابق ص٢٠٨ - ص٢٠٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٩ .

كل التكوينات المعمارية التي أقامها الصليبيون في القدس . واستخدمت مادة الرخام على نطاق واسع . كما يشير النصُّ إلى استخدام الحديد المشغول على نحو واسع ، فامتدّت إليه إيحاءاتٌ زخرفية مثلما امتدت إلى تِيجان الأعمدة ، فخرجت الأوراقُ والأزهار من صَمْت الحجر ، وحوَّلَتْ الأعمدة إلى أشجار ، إلى كائن حي مُصَدِّرٍ للجمال .

علينا أن نشهد بقوّة هذا التجرُّدُ والعدل عند هذا القاضي الذي دعاه إلى وصف (عمارة الأعداء) هذا الوصف الراضي الرائق ، فكشف بذلك عن نفسية سوية نقية ، خالية من العُقَد والتَّطرُّف ، تنظر إلى العمارة نظرة مُشبعة بتحسُّس الجمال والبحث عنه ، بعيدًا عن أي أغراض أو افتعال أو توتر ، وهي حقيقة رافقت التاريخ العربي الإسلامي العسكري والحضاري ، فكان أقرب إلى الرحمة والعدل مع الأعداء والخصوم في السلم والحرب .

قدس ما بعد الفتح .. ودويلات الأمراء الصلاحية .. عودة الصليبيين:

بعد الفتح أقطع صلاح الدين البلادَ بين أولاده ، وكانت القدس لعزّ الدّين جُرْديك النُّوري [1] .

كان من هؤلاء الأمراء العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان أخو الناصر صلاح الدين، وكانت له الديار المصرية . ثم اتفقوا على أن تَبْقَى فلسطين للعزيز ، والأردن للأفضل ، وعاد العزيز إلى مصر [2] . ثم تحدثُ خلافات

(١) المصدر السابق ص ٢٢١ . وهو الأمير عز الدين جُرديك صاحب القدس ، من مماليك السلطان نور الدين ولقبه النوري ، صحب أسد الدين شيركوه إلى مصر .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٢ .

جديدة ، فعندما مَلَكَ الملكُ العادلُ مصر أقطع دمشق والأردن وفلسطين لولده الملك المعظَّم شرف الدين عيسى ، واستمر ذلك إلى حين وفاة الملك العادل سنة ٦١٥هـ ، وخلال هذه الفترة نفسها وصل الصَّليبيون إلى دمياط وحاصروها ، فطلب الملك الكامل أخو الملك المعظّم صاحب فلسطين من أخيه أن يعطيَه القدس وكوكب والطُّور ليعطيَها للفرنج مقابل دمياط [١] ! ثم حدثت المفاوضات بين الملك الكامل والصَّليبيين ، وكانوا قد وصلوا إلى عكَّا ، وقائدهم فِرِدْرِيك ، فطلب من الملك الكامل أن يسلِّمَه القدسَ وجميعَ ما فتحه صلاح الدين [٢] .

وبعد أن تشاور الملك الكامل مع أُمرائه سلَّم القدس إلى الإمبراطور الصَّليبي ، وكان ذلك سنة ٦٢٦هـ ، وانسحب هو وجيشه وأمراؤه إلى تلّ العُجُول بين عكّا والعائديّة . وتبقى القدس بيدهم إلى أن يتوفَّى الكامل بدمشق سنة ٦٣٥هـ ، وتغدو دمشق بيد الملك الجواد مظفَّر الدين يونس بن مَوْدود ابن الملك العادل ، وتحصل بينه وبين الملك الصَّالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل مُقايَضاتٌ ، وهذه المرّة مُقايضة دمشق بسِنْجار ! فيصل دِمَشْقَ ، ثم نابُلسَ سنة ٦٣٧هـ ، ويقبض الملك الناصر على الملك الصَّالح ويحبسه في الكَرَكِ ، ثم يجمعُ جيشًا عظيمًا يحاصرُ به القدس من جديد في السنة نفسها .. وكان الفرنج قد قاموا بتحصينات إضافية في أسوار القـدس ، فأقاموا برجـًا جـديدًا أطلقوا عليه اسم (برج داود) وحَصَّنوه ، لكن الملك الناصر دكَّه بالمنجنيقات ، وفتَح القدس مجددًا [٣] .

(١) المصدر السابق ص ٢٢٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

رسالة الناصر إلى المستنصر بشأن القدس .. رسالة في تكنولوجيا العمارة !

الناصرُ فاتح القدس ثانية (الناصر داود بن عيسى) ، والمستنصر هو الخليفة العباسي المستنصر بالله أبو جعفر المنصور الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين ، توفّي سنة ٦٤٠هـ ، وهو الخليفة العباسي قبل الأخير ، ويبدو أنَّ هذا الخليفة كان متنورًا ومختلفًا وإن كان في زمن صعب ومتشابك ، فغدت بغداد في عهده مدينة عظيمة ، وهو الخليفة الذي بنى المدرسة المستنصرية الشهيرة .. لكنَّ التّتار داهموا بغداد في عهده أيضًا .

وأما هذه الرسالة المهمّة فقد ذكر ابن شدّاد أن الناصر كتبها بيده وهي من إنشائه ، وكونه فعل ذلك بنفسه إنما يدل على أمر ذاتي وأمر عام بآنٍ معًا : الأمر الذّاتي هو غِبْطة وفرحة عارمة سكبَتْ الحماسةَ في قلب الناصر ليكتب (رسالة الفتح) إلى الخليفة المتميز (المستنصر) في زمن اجتمع فيه فوق أرض المشرق العربي الصّليبيون والتّتار ، وأما الأمر العام فهو أنه كتبَ له هذه الرسالة ليُعْلِمَه بأن الجناح الغربي من دولة الخلافة غدا مُؤَمَّنًا ومُسَيْطَرًا عليه بمدينته المركزية (القدس) التي بقيت سلطتُها القائمة تدل على الوضع والحالة السياسية القائمة في بلاد الشام كلّها .

وبعد مقدمة الرسالة الرَّصينة يبدأ الناصر بإطْلاع الخليفة على وضع مدينة القدس من خلال تحليله للأحداث : « .. طالعَ المقام الشريف بأمر الهُدْنة وانقضاء مدَّتها ، وانفساخ عقدتها ، وعند ذلك أخلى الفرنج - خذلهم الله - القدسَ الشريفَ من سكّانه ، وانتقل كلٌّ منهم عن وطنه إلى ما صيَّره من أوطانه ، وأقام به كند من كُنُودهم - جمع كند أي (كونت Conte) : تخريج عربي للكلمة استخدمه المؤرّخون العرب ، وهو أمير الجيش ومقدّم

من جنودهم – وهو فارس مشهور من فرسانهم كان قد عَمَّرَ قلعة القدس في مدة الهُدْنة وحَصَّنها ، وملأها بالعُدد والآلات وشَحَنها ، ووصلها ببرج يقال له « برج داود » النبي عليه الصلاة والسلام ابتناه لنفسه مسجدًا ، واتَّخذه لخلوته معبدًا »[1] .

وأهمُّ ما ذُكِر في الرسالة هو التَّطوراتُ المعمارية العسكرية التي أحدثها الفِرنجة في المدينة ؛ من إعادة ترميم القلعة ، وبناء برج عالٍ على الأسوار ، ووَصْله بالقلعة بوساطة نفق . ومما يَلْفِت الانتباه أنَّ الناصر يتابع بعد ذلك وصف البرج كأنه المهندس أو المعماري ! « وهو برج عظيم المقدار والحجم . مُبارٍ في المَنعة الجبل .. قد بُني بالصُّفَّاح والعَمَد ... وهو من أسفله إلى ثلثه قد صُبّ فيه الحجرُ والكَلْس صبًّا . ورُدِم بقوة ... »[2] . وهو إذ يُقدِّم هذا الوصف القويّ الجليل فإنما ليذكر بعد قليل كيف أنه استطاع تدمير هذه الأسوار واختراق مَناعاتِها وحصاناتها ، والانتصار على الجموع الرَّهيبة التي احتشدت له خلف الأسوار وقاتلَتْه[3] .

غير أنَّا لنا قراءةً إضافية في هذا النص ، وهي القراءة المدنية أو المعمارية ، من حيث موادُّ البناء وآلية التعمير : فقد كان من مواد البناء المذكورة في الرسالة الملكية : الصُّفَّاح ، وهي البلاطات الحَجَرية الرقيقة التي تستخدم في التَّكْسية الخارجية ، ومن العناصر المذكورة أيضًا (الأعمدة) ، ويشرح الملك الناصر أنَّ البرج تشكَّلَ من أساس ذي ارتفاع كبير جدًّا وصل إلى ثلث العمود المتشكّل من الكَلْس المغموس فيه قِطَعٌ من الحجر ، الذي لسيولته ولُدُونَتِه تم صَبُّه صبًّا بغرض تنفيذ أساس مليء متجانس وصلب

(١) المصدر السابق ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٢٧ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٢٧-٢٢٩ .

وكبير الأبعاد . ويشرح الدائرة الخارجية للبرج بتشكُّلها من تناوب الأعمدة والجدران التي جرى تكسيتها بذلك البلاط الرُّخامي الرقيق والمتين (الصُّفَّاح) .

ويُتابع الملك الناصر في رسالته شرح الآلية التي اتّبعها في دكِّ الأسوار المُحصَّنَة المُجدَّدة ، فقد نصب صفًّا طويلًا ومتقدمًا من المنجنيقات ، وكان في جيش الناصر فريقٌ اسمه (النَّقّابون) متخصِّصون بنَقْب الأسوار والآليات اللازمة لذلك ، وفريقٌ اسمه (الزَّرّاقون) متخصِّصون بتحضير القنابل المشتعلة وإرسالها إلى الأسوار والأستار[1] . ويسجل الناصر في رسالته الملَكية كيف استمر الهجوم والاقتحام حتى تجسَّد الفتحُ : « وأخذ العبدُ القلعةَ وتسَلَّمَها ، وافترع ذروتها العليا وتسنَّمها ، وتبرجتْ له أبراجها المصونة وتجلَّتْ ... »[2] .

وأما العبد فهو الملك الناصر .. وأما القلعة العروس المتجلية فهي لُبُّ القدس ومركز قيادتها . ولا يفوتُ الناصر ذكر مبادئ سرت في الحضور العسكري العربي الإسلامي ، تلك مبادئ الرحمة واللِّين والإنسانية ، وهو ما حدث حقًّا بُعَيد فتحه القدس ، حين لجأ عدد من أفراد جيش الفِرنجة إلى (برج داود) في سور القدس خوفًا وطمعًا بالخروج بأرواحهم وأسلحتهم . غير أن الناصر يُسجّل في رسالته أنه لم يوافقْ على ذلك ، بل وَجّه النَّقابيين لإيجاد نُقوب في جدران البرج ومن ثم إحراقه من الداخل ، فلما وجد اللّاجئون ذلك طلبوا الخروج بأرواحهم فقط ، فأُخْلِي سبيلهم[3] .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٠ .

وبعد ذلك كأنه يسائل الخليفة أو يستشيره بين أن يهدم القلعة أو يبقيها موئلًا للمسلمين [1] . وأمَّا برج داود فقد اتخذ فيه قرارًا بأنْ « يغضَّ من طَرْفه ويجدَع أنفه ، ويقلِّل من ارتفاعه ، ويسهِّل من امتناعه ، ويجعله مسجدًا للركوع والسجود ، لا مَعْقِلًا للجموع والحشود ، ومعبدًا يلتزم بمزاره ، لا حصنًا يُعتصَم بأسواره ... » [2] .

والناصر هنا يُنْهي الحالةَ العسكرية لمدينة القدس ويحولها إلى مدينة (مدنية) ، ويجسد من خلال ما ذكره في رسالته بضعة مبادئ كانت - باعتقادي - تشكّل الإطار العام للهوية المعمارية الإسلامية ، كان في هذه الهُوية الابتعاد عن التطاول والارتفاعات الفارعة في البناء .

ويمكن أنْ نلاحظ بسهولة كيف أن البناء الوحيد المرتفع في المدينة العربية والإسلامية القديمة هو (المئذنة) .. فليس لبناء بحدّ ذاته تكبُّر وترفُّع .. والملك الناصر يريد أن يغض من طرف (البرج) وأن يجدع أنفه ، وفي النهاية يريد أن يحولّه إلى مسجد في مدينة حقيقية وليس إلى تحصين عسكري في معسكر. وبهذه المبادئ المعمارية الإنسانية يختم الناصر رسالته إلى الخليفة العباسي المستنصر .

ثم .. بيبرس وعمارة في القدس :

بقيت القدس بيد الملك الناصر حتى حدثتْ دورةٌ جديدة من الاتّفاقات والمهادنات بين أمراء الأيوبية والفرنج .. فدخل الفرنجُ القدسَ مُجددًا ، وبقي الأمر كذلك حتى الفتح الخوارزمي للمدينة بالاتفاق مع

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣١-٢٣٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٣ .

الملك الصَّالحَ نجم الدين ، وهو الفتح الثالث للقدس في فترة الحملات الصليبية سنة ٦٤٢هـ .. لكنَّ ثمة انتصارًا عريضًا يجتاحُ المشرقَ العربي حينَ ينكسر الاجتياحُ التَّتَريُّ في عين جالوت سنة (٦٥٨هـ-١٢٥٩م) ، ويكون موقعُ المعركة في تُخوم القدس ، وتكون القيادة لمظفَّر الدِّين قُطُزَ ، وتغدو البلاد في النهاية بما فيها القدس في سلطة السُّلْطان الظاهر ركن الدين بيبرس الذي سرعان ما يبدأ بعمارتها ، ففي سنة ٦٥٩هـ يضع بيبرس خطّة مالية ومشروعات للاعتناء بعمارة الحرم النَّبوي في المدينة المنوَّرة والقدس .. لكنه اهتمَّ أيضًا بالعمارة الخدمية التي تعيد للمدينة حيويّتها الاجتماعية ورَوْنَقها الحضاري ، فكان من التكوينات المعمارية التي بُنيت في عهده الخان الذي جعله خارج المدينة ووراء أسوارها ، ووضع له بابًا نقله من القاهرة ، وبنى أيضًا فرنًا وطاحونًا .

مشهد (زيارات القدس) :

يوردُ ابنُ شدَّاد مصطلحَ (الزيارات) للتعبير عن العمارة المهمَّة دينيًّا التي عكف الناسُ على زيارتها ، ولعله مصطلحٌ مستحدَث في زمن ابن شدَّاد ، وقد يكونُ ذلك بسبب نشوء حالة كثيفة من العمارات التي تُزار .

أُولى الزيارات التي يذكرها الصَّخْرة المشرَّفة ، وبعد أن يشرح قداستها وما عرف عنها ، يقدم وصفها الهندسي وأبعادها : « وعلوها مقدار ذراعَيْن ، ودائرها يزيد على أربع أذرع ، وتحت القُبَّة مَغارة الأرواح ، ذكروا أنَّ أرواح المؤمنين يجمعها الله فيها ، وينزل في هذه أَربعَ عشْرةَ درجةً ، ويقال إن بهذه المغارة قبر زكريا عليه الصلاة والسلام »(١) .

(١) المصدر السابق ص ٢٨٦ .

ويذكر أن الرُّواق المحيط بالصَّخْرة يقوم على ستةَ عشرَ عمودًا رخاميًّا، وثمانية أركان لها أربعة أبواب من الحديد، ويحيط بالصخرة نفسها درابْزِين من الحديد ارتفاعه قامتان.

ويعدّ نصُّ ابن شدَّاد المختصر عن الصخرة مهمًّا؛ لأنه وصَفَ الصخرةَ في زمن الاحتلالات الصليبية المتوالية والفتوحات الأيوبية المتوالية أيضًا، فهو يقدِّم عمارة إسلامية من القرن الهجري الأول تحمل دلالةً عظمى ... فكل الاختبارات الأثرية التي أجريت على عمارة القُبَّة أكدَّتْ أنَّ عمارة الصخرة بكامل أساساتها وجدرانها الخارجية هي من إنشاء الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (بدأ بناءَها سنة ٦٨هـ / ٦٨٨م، وأكمله سنة ٧٢هـ / ٦٩١م)، وهي بناءٌ متجانس لا يضمُّ أيَّ بقايا بناء قديم[١].

وما زال بناء القُبَّة قائمًا بشكله وواجهاته الأموية في ساحة الحرم القدسي جنوبيّ شرقيّ القدس، بجدرانه المثمَّنة الخارجية، وبالسقف المحيط بزُنّار القُبَّة المائل باتجاه الجدران الخارجية. ومن العناصر المهمَّة في القُبَّة تلك الفسيفساء: نثاراتٌ دقيقة من الزُّجاج والحجَر والصَّدَف الخضراء والزرقاء على خلفيّة جداريّة ذهبية، تلك الزخرفة التجريدية الرفيعة تُشَكِّل خطًّا منسجمًا رفيعًا في تاريخ الفن الإسلامي الخالص والمبكِّر.

ثم ينطلق المؤرخُ مباشرة إلى المسجد الأقصى، ويذكر أن محراب عمر بن الخطّاب لم تغيره الفرنجُ[٢]، ومن قُبَّة الأقصى يبدأ ويخبر عن آخر تجديداتها

(١) انظر: - ريتشموند، قُبَّة الصخرة المشرفة، أكسفورد، ١٩٢٤.
- كرسول، فن العمارة الإسلامية المبكرة، أكسفورد، ١٩٦٩.
- الموسوعة الفلسطينية، هيئة الموسوعة الفلسطينية، ط١، مج٣، دمشق، ١٩٨٤.

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٦.

المعمارية أنها تمّت سنة ٤٢٦هـ في عهد الإمام ابن العزيز (الظّاهر لإعزاز دين الله) صاحب مصر .. والقُبَّة نُفّذَتْ تَكْسِيَتُها بالفصوص المذهّبة ، وكذلك الكتابة والنُّقوش ، ويذكر ابن شدَّاد أنها بقيت كما هي لم تغيرها الفرنج . والحقُّ ما ذكره ابن شدَّاد عن هذا المسجد الذي بُني للمرة الأولى في عهد عبد الملك بن مروان في سنة (٧٢هـ / ٦٩١م) . وثمة قول آخر أن الذي بناه هو الوليد بن عبد الملك . وعلى كل حال هو من عمارة القرن الهجري الأول أيضًا مثل قُبَّة الصَّخْرة ، غير أنَّ معالمه تغيَّرَتْ مراتٍ عديدة .. ومع الاحتلالات الصليبية أقام الفِرنجة في جانب منه كنيسة وفي الجانب الآخر مقرًّا للاسبتارية[1] ومستودعًا للأسلحة في جهته الغربية . ومع التَّحْرير الصَّلاحي للقدس أُعيد بناؤه ، وجُدِّدَ المحراب ، ووضع المنبر النُّوري الشهير الذي صنعه نور الدّين زَنْكي في حلب (٦١٤هـ / ١٢٣١م) .

وبشكل عام يعدُّ الشكل الحالي للمسجد الأقصى هو شكله الأيوبي ، مساحته الداخلية (٨٠ × ٥٥) ، وفيه سبعة أرْوِقة : أوسط ، وثلاثة في كل من الجانبين الغربي والشرقي ، وما زالتْ الأرْوِقة الغربية للمسجد محكمة وشامخة تمتدُّ من الجنوب إلى الشمال ، والقُبَّة تتصدَّر بيت الصلاة ، وللمسجد أحدَ عشرَ بابًا . لقد ظلّ المسجد الأقصى يحتلّ مكانة سامقة لدى المسلمين ، فقد استمر حتى ١٩٦٧م مقرًّا للدرس ومنارة للعلم ، ومنبرًا للاحتفالات السياسية العربية والإسلامية .

ومن هذه الزيارات يذكر ابنُ شدَّاد مغارةً يُقال لها مَهْد عيسى ، وهي

---

(١) الاسبتارية منظمة أسسها الصليبيون في السنة التي احتلوا فيها القدس(٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م) جمعتْ بين الرهبنة والعسكرية ، أنشأت المشافي للاعتناء بالمرضى والحجاج المسيحيين ، وأصبح لها نفوذ واسع في جميع أوروبا . والداوية أو (فرسان الهيكل) مثل الاسبتارية .

عند السور القبلي وأحد أرْوِقة المسجد الأقصى[1] . وقُبَّة السِّلْسلة وهي شرقيّ قُبَّة الصَّخْرة وملاصقة لها ، سداسية الرّقبة ، وهي أيضًا عمارة أموية ، وكانت تستخدم لحفظ أموال المسلمين كما هي الحال في قُبَّة المال الموجودة في صَحْن المسجد الأموي في دمشق .

ويتابع عن أهمّ عمارات القدس : « كنيسة اليعاقبة ، ويذكر أن بها بئرًا يقال إن المسيح - عليه الصلاة والسلام - اغتسل منها ، وآمنت السَّامرة على يده عندها »[2] . وحاليًا مقرُّ هذه الكنيسة في القدس (اليعقوبية أو السُّريانية الأرثوذكسية) في كنيسة مُرْقُس. ومن الكنائس يذكر أيضًا كنيسة السَّلِيق ، ويذكر مقولة كانت دارجة تفيد بأن السَّيد المسيح - عليه الصلاة والسلام - رُفع إلى السماء من موقع هذه الكنيسة[3] . ويذكر أيضًا « كنيسة صهيون ، يقال إن المائدة نزلت على عيسى والحواريين بها »[4] . ثم وادي جهنم ، وبه قبر مريم أمُّ عيسى - عليهما السلام - ينزل إليه في ستٍّ وثلاثين درجة ، وفيه الأعمدة الرُّخامية المنيعة الصلبة[5] .

وخارج القدس زيارةٌ أيضًا : (عَيْن سُلْوان) ، يقال إن ماءها مثل ماء زمزم ، وأنها تخرج من تحت قُبَّة الصخرة وتمرّ بالوادي جنوبي القدس[6] ، وكانت (سُلْوان) قريةً مجاورة لسور القدس من الجهة الجنوبية ، ولا تبتعد

(١) ذكر الداعية المسيحي يوستين مارتير أنَّ مريم ولدت المسيح ووضعته في مزود في مغارة قريبة جدًّا من القرية . وفي سنة ٣٣٠م بنى الإمبراطور قسطنطين الروماني كنيسة فوق المغارة دعيت بكنيسة القديسة مريم ، ثم أعاد بناءها جوستنيان بشكلها الحالي وأصبحت تدعى كنيسة المهد .

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٨٧ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٨٨ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٨٨ .

(٦) المصدر السابق ص ٢٨٨ .

عنه إلا بضعة أمتار ، لكنها اليوم من أحياء القدس ، وعيون مائها (عين أمِّ الدرج - بركة سُلْوان - البركة التَّحْتانية - بئر أيوب - عين اللوزة) المصدر الوحيد للمياه في القدس . ولعل اليبوسيين أقدم مَنْ جَرَّ مياه سُلْوان عبر نفق إلى داخل مدينة القدس .

كانت تلك بضعةَ مشاهِد مَقْدسية من لحظات القرن السابع الهجري ، اعتمادًا على مصدرٍ كُتب في ذلك القرن المليء بضجيج المعارك ، حيث كانت القدس عاصمةَ تلك المواجهات وعاصمةَ ذاك القرن ، فهي المدينةُ التي حملت أهمَّ حدثَيْن عالميين في تلك الفترة : الاندحار الصَّليبي وإيقاف الاجتياح المغولي ... وكانت القدس في كلا الحدثين عربية وإسلامية في صنع الأحداث وفي تشكيل المدينة . ولقد لهث المستشرقون اليهود للإيحاء بأن القدس بقيت زمنَ الاحتلالات الصليبية مدينةً ذات طابع عالمي (كوزمو بوليتي) !! فتلك بالنسبة لهم خطوة مهمّة في مشروعهم الدائم لمحو الملامح العربية والإسلامية من وجه المدينة وروحها ، إذ بالنسبة لهم لأن تكون القدس ذات طابع عالمي أو حتى بيزنطي - خيرٌ ألف مرة من أن تكون ذات طابع عربي إسلامي ، لكنها كانت وستبقى عربيَّة إسلامية ، وسيبقى ذلك غُصَّة في حلوقهم إلى ما شاءَ الله.

* * *

المكتبة الخالدية في القدس
(الحَراك التراثي في قلب المدينة)

عصام محمد الشَّنْطِي (*)

توطئة :

شاركت فلسطينُ العربية المنطقةَ ، في النشاط الثقافي ، الذي انبعث في القرن التاسع عشر الميلادي ، وما حوله . فنشأت ثلاث مكتبات كبرَى للمخطوطات في البلاد . أوّلها المكتبة الأحمدية في جامع أحمد (باشا) الجزَّار[1] ، في مدينة عكَّا ، عام ١١٩٦هـ / ١٧٨١م . والثانية مكتبة يافا الإسلامية في جامع يافا الكبير ، عام ١٢٢٧هـ / ١٨١٢م . والثالثة المكتبة الخالدية في بيت المقدس ، عام ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م .

والحقّ أن المكتبة الخالدية لم تكن الوحيدة في مدينة القدس ، بل عُرِفت مكتبات أخرى فيها ، بعضها ما زال قائمًا ، وبعضها كان قد أُنشئ منذ العصر الأيوبي ، حتى العصر العثماني ، وآلت إلى التفرّق والتشتت ، وأصبحت أثرًا بعد عين ، من مثل مكتبة الفخرية التي كانت تضمّ نحو عشرة آلاف مخطوطة . ومكتبة آل قُطّينَة التي تبعثرت مخطوطاتها . ومكتبة آل الموقِّت التي نُقلت بعض مخطوطاتها إلى المكتبة الخالدية ، وبعضها الآخر إلى دار الكتب بدمشق . ومكتبة عالمِ فلسطين الشهير عبد الله مُخْلِص (ت ١٣٦٧هـ / ١٩٤٧م) المحتوية على ما يزيد على ثلاثة آلاف مجلد ،

(*) خبير معهد المخطوطات العربية ، جامعة الدول العربية ، مدير سابقًا .

(١) من أُمراء الدولة العثمانية (ت ١٢١٩هـ / ١٨٠٤م) .

منها مئة وعشر مخطوطات . وقد نُقلت إلى دير القربان خشية أحداث فلسطين المريعة عام ١٩٤٨م . والمتداوَل أن اليهود دمّروه أثناء القتال قاصدين المكتبة فيه ، فضاعت عن بكرة أبيها .

وإن نسيت فلا أنسى مكتبة الشيخ محمد الخليلي (ت ١١٤٧هـ / ١٧٣٤م) الذي كان يجمع المخطوطات شراءً بحُرِّ ماله ، وشريف كسبه ، وبالحقّ والإنصاف ؛ وذلك بقصد إبقاء المخطوطات في بيت المقدس ، بعد أن لاحظ خروج كثير منها ، تُباع بأبخس الأثمان . وقد أوقف المكتبة على ذرّيته وذرّية ذرّيته ، وعلى طلبة العلم من أهل بيت المقدس ، والمترددين على المسجد الأقصى ، وقُبَّة الصخرة . ويُقال إن مكتبته حين أوقفها بوثيقة كتبت عام ١١٣٩هـ ، بلغت سبعة آلاف مخطوطة . ويبدو أنها أول مكتبة عامّة يوقفها أحدُ سكان القدس على طلبة العلم ، وأن تَؤول - آخر الأمر - إلى الزاوية المحمدية المشهورة في صحن الصخرة . وأوقف لها ريعًا يكفل وجود ناظر لها ليحافظ عليها ، ويُنفق منه للحفاظ على مخطوطاتها وصيانتها ترميمًا وتجليدًا .

ووُضعت مؤَخَّرًا في غرفة ضيِّقة بها قبر الشيخ محمد الخليلي ، حيث مكتبة المسجد الأقصى . ونَذكر أنه لمّا أُريد فهرستها تطوّعاً في عام ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م رُوِّع المتطوعون لأنّ معظم المخطوطات النفيسة مفقودة ، وأن عددًا كبيرًا منها تالف[1] . ومعروف أن أبواب المكتبة وُجدت محطَّمة من قِبَل الجيش الإسرائيلي عام ١٩٦٧م ، ونُهب منها الكثير ، وما بقي منها ، وهو نحو ٣٦٠ مخطوطة ، قَدَّمته العائلة عام ١٩٧٩م ، هدية إلى مكتبة المسجد الأقصى .

(١) انظر وثيقة مقدسية تاريخية ، ص ٤ وما بعدها .

ونلحظ من مكتبات القدس المندثرة، أن بعضها يعود إلى أُسر مقدسية مرتبطة بالمدينة، ويشتغل أفرادُها بالعلم والتدريس. ويحتلّ بعضهم مكانة في مدينتهم كقضاةٍ شرعيين، وخطباء في المسجد الأقصى، وبالتالي كانوا يحرصون على اقتناء المخطوطات كأداة ثقافية علمية لا غنى عنها.

فضلاً عَمَّا كان للمدينة من مكانة متميّزة، فهي عربية ذات طابع ديني. وهي قصبة البلاد، وكانت من أكثر المدن عُمرانًا بفلسطين. وقد بقيت تتفوّق على غيرها بنشاط متميّز في الحياة العلمية(1). وكانت مَزارًا لرحَّالة كُثْر من أجانب وأتراك وعرب. نَذكر منهم الرَّحَّالة المغربي أبا سالم العَيَّاشي الذي دخلها نحو عام ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م.

وكان يُشَدُّ إليها الرِّحَال للصلاة في المسجد الأقصى، وقُبَّة الصخرة، والإقامة فيها، بعضهم للاعتكاف والتبتُّل، أو عقد حلقات للدرس. وكانت المدينة على صلة بالجامع الأزهر، في القاهرة جنوبًا، وفي الشمال بالجامع الأُموي، بدمشق الشام. وكان طلبة العلم يتوافدون منها ومن سائر بلاد فلسطين إليهما لتلقّي العلم والمشاركة فيه، ثم يعودون محمَّلين بالمخطوطات إلى مدنهم وقُرَاهم، وإلى القدس خاصة، على نحو ما ذكرنا من اهتمام عائلاتها العريقة بهذه الكنوز التراثية.

ولسنا بصدد التفصيل في مَن ورد على القدس من علماء، لعقد حلقات للدرس، وهم من الكثرة بمكان، فضلاً عن حلقات للدرس متواصلة يعقدها علماء مقدسيون. وأكتفي - في هذا المقام - بذكر أبي حامد الغزَالي (ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م) الذي وَفَدَ إليها متعبّدًا متبتّلاً،

---

(1) الحياة العُمرانية والثقافية في فلسطين، في القرن السابع عشر، ص ١٣٦.

واعتكف فيها ما اعتكف ، ثم ألقى دروسًا كانت حلقاتها زاخرة بالطلاب للأخذ عنه[1] .

وكذلك أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي الإشبيلي (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) الذي وَفَدَ إلى بيت المقدس طلبًا للعلم . وأخذ عن علمائها ثلاثة : علم الكلام ، وأصول الفقه ، ومسائل الخلاف . والتقى فيها بجماعة من علماء خُراسان كأبي علي الصَّاغاني ، وأبي سعيد الزَّنجاني وغيرهما ، فأخذ عنهم عِلمًا كثيرًا[2] .

وما دام حال القدس على نحو ما وصفنا ، فطبيعي أن تكون عامرةً بالمكتبات ، غير المكتبة الخالدية ، موضوع البحث . وغالبها محيطة بالمسجد الأقصى ، وقُبَّة الصخرة ، مبانيها عتيقة ، ومواضعها ضيّقة . نذكر منها ، ممَّا لم يندثر ، مكتبة المسجد الأقصى تحتوي على نحو ٧٠٠ مخطوطة . ومؤسسة إحياء التراث ، التابعة لدار الفتوى بالقدس ، تحتوي على ٦٠٠ مخطوطة ، ومن المصوَّرات ٣٧٠٠ ، ومن الوثائق المهمَّة نحو مليونين ، و ٢٧٠٠ سجلّ . ومكتبة الأنصاري المحتوية على مخطوطات لم تُحصَر بعد ، فضلاً عن عدم فهرستها ، غير ١٥ ألف كتاب مطبوع ، وما يزيد على أربعين ألف دورية . ومكتبة آل البُدَيْري تحتوي على نحو ٧٠٠ مخطوطة . ومركز النشاشيبي للثقافة والتراث (المكتبة الحسينية) فيها نحو ٣٠٠ مخطوطة . ومكتبة آل الخطيب المحتوية على مئتي مخطوطة . ومكتبات جامعة القدس

(١) ألقى دروسه في المدرسة الناصرية (نسبة إلى نصر المقدسي) ، التي عُرِفت بعد دروسه فيها بالمدرسة الغَزَاليّة نسبة إليه - الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ٢/ ٣٤ .

(٢) قانون التأويل ، ص ٩١ - ١٠٢ ، وانظر ص ١١٨ فيها إشارة إلى مخطوطة موقوفة في الصخرة المقدّسة ، اطَّلعَ عليها .

فيها نحو ٣٠٠ مخطوطة . ومكتبة البخاري الغنية ، مع المخطوطات العربية ، بالمخطوطات الأُوزبكية والتركية والفارسية . ومكتبة الرجبي تحتوي على خمسين مخطوطة . ومكتبة العجلوني تحتوي على خمسين مخطوطة . ومكتبة « أبو اسبيتان » تضم ٧٠٠ مخطوطة ، وخزانة الشيخ طاهر أبي السعود تضم ٣٥ مخطوطة . فضلاً عن أديرة القدس الزاخرة بها .

وواضح من هذا السَّرْد المُكثَّف لمكتبات القدس ، اهتمام المدينة وعائلاتها بالاشتغال بالعلوم العربية الإسلامية ، وبالتالي عُرِفوا باقتناء المخطوطات التي تُعَدُّ وعاءَها المعروف . على أن المكتبة الخالدية ظلت في طليعة المكتبات المقدسية الخاصة ، على نحو ما نُفرد الحديثَ عنها .

(١)

النشـأة والتكوين :

مَرَّت ذكرى مضيّ مئة عام على تأسيس هذه المكتبة الثرية ، دون أن يُلتفَت إلى الاحتفال بهذه المناسبة . وربما يعودُ هذا التقصير إلى انشغال أهل هذا التراث بالمِحَن التي تعرّضت إليه هذه المكتبة ، من قِبَل الصهيونيّ المحتلّ ، على نحو ما سنذكرها في حينه . غير أنّ هذه المِحَن التي تعرّضت لها المكتبة ، ما هي إلّا أُنموذجًا ولونًا من ألوان المِحَن وأشكالها المختلفة التي تتعرض لها مدينة القدس بخاصة ، وفلسطين في عمومها .

ومعروف لدَى الباحثين أن نشأة هذه المكتبة وتكوينها مكتبةً عمومية ، في هذا المكان الذي هي فيه الآن ، كان عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م . وأنَّ الذي لمَّ شعثها وافتتحها هو الشيخ راغب الخالدي (ت ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م) ،

وهو أحد أعيان القدس ، ورئيس محكمة الاستئناف الشرعية . وكان ذلك بناءً على توصية والدته قبل وفاتها ، أن يَعْمُرَ المكان المتهدّم من مالها ، ويُجعَل مكتبة . وهو مكان مرموق يُطِلُّ على البُراق ، القريب من أحد أبواب المسجد الأقصى وقُبَّة الصخرة ، وابنها الشيخ راغب هو الذي أطلق عليها هذا الاسم ، وافتتحها في ذلك العام رسميًا ، وأوقف ريعًا يكفُل صيانةَ المكتبة ، ومكافأةً لناظرها المشرف عليها . ووَضع لها نظامًا يحفظ محتوياتها ، وفَتَح أبوابها لاطّلاع العلماء والباحثين .

وصادف أن نُفي عالِم المخطوطات ، وباعث نهضة بلاد الشام ، الشيخ طاهر الجزائري ، إلى القدس ، بأمر من السلطنة العثمانية . وكان صديقًا للشيخ راغب ، فاتّفقا أن يستدعيا أبا الخير محمد محمود الحَبَّال الدمشقي ، لفهرسة مخطوطات المكتبة ، فأخرج في العام نفسه « برنامج المكتبة الخالدية العمومية »(1) .

ورغم أهمية عام تأسيس المكتبة الذي ذكرناه ، يمكن للمدقِّق المحقِّق أن يعود بهذا التأسيس إلى الوراء نحو مئتي عام ، ذلك أن مخطوطات كثيرة كانت في حوزة أفراد العائلة المقدسية العريقة آل الخالدي ، المنتسبين إلى الصحابي خالد بن الوليد بن المغيرة القُرشِي . وهي من العائلات المقدسية المعنية بالمخطوطات ؛ لأن علماءَها ومشايخها كان معقودًا لهم في القدس مناصبُ القضاء والإفتاء والمشيخة والتدريس في أشهر المدارس المبثوثة بجوار المسجد الأقصى وقُبَّة الصخرة ، منذ نحو القرن السابع الهجري

(1) القدس ، مطبعة جرجي حبيب حنانيا ، في ٧٨ صفحة . وأُعيد طبعه في عمَّان ، مطبعة الشرق ومكتبتها ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .

(الثالث عشر الميلادي) . وبلغوا من عُلوِّ الصيت أن استُدعيَ بعضهم ليشغل منصب قاضي القضاة في مصر ، وبَعضهم مارس القضاء في المدينة المنوَّرة .

وطبيعي ، والحال كذلك ، أن يتنبّه أحد مشايخها العلماء للبدء في جمع هذه المخطوطات ، وكان ذلك عام ١١١٣هـ/ ١٧٢٠م ، على يد مَنْ نَعُدُّه مؤسسَ نواة المكتبة الخالدية ، وهو محمد صنع الله الكبير (ت ١١٣٩هـ / ١٧٢٦م) . فقد بَدَأ في جمع بعض هذه المخطوطات ، ووَقفَهَا على ذُرِّيتهم ، وعلى علماء قُبَّة الصخرة وطلبتها . ثم أتى ، مِن بعده ، أبناءٌ من العائلة وأحفادها ، حَذَوْا حَذْوَ هذا الجدّ الجليل ، يضيفون إليها خزائن مَنْ يُتوفَّى مِن أفراد العائلة . ويُذكر أن سيدات العائلة شاركت في وقف مخطوطاتهنّ للمكتبة المذكورة .

(٢)

أهمية المكتبة ونفائسها :

حازت المكتبة منذ إنشائها شهرة ليست في القدس حسب ، ولكن في فلسطين عامة ، والبلاد العربية والأجنبية .

وكُنّا قد ذكرنا أن الشيخ طاهر الجزائري قد كان في القدس ، وعاصر نشأة المكتبة وتكوينها ، فقال في تقريظ مخطوطاتها : [من الطويل]

أَقولُ وقد عاينتُ كتبًا نفيسةً ... تروقُ ذوي الألبابِ وَهْيَ مُنى النَّفْسِ
أَيا طالبًا أقصى المعارف راغبًا ... لنيلِ العُلا بادِر لمكتبةِ القُدْسِ

ومن أقدم مَنْ زارها من علماء فلسطين المعروفين عبد الله مُخْلِص ، عام

١٣٣٦هـ / ١٩١٧م . ولفتَ نظرَه نوادرُ المخطوطات فيها ، مع نفائس المطبوعات .

وهو أول مَنْ لفت الأنظار إليها ، بعد عيسى إسكندر المعلوف ، عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ، في مقالته (القدس وتواريخها العربية) ، المنشورة في مجلة المقتبس[1] . وما ذكره حبيب الزَّيَّات في كتابه « خزائن الكتب في دمشق وضواحيها » ، المطبوع في القاهرة سنة ١٩٠٢م .

فنشر عبد الله مُخْلِص مقالةً في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق[2] ، ذكر فيها نبذة عن المكتبة . ولم يعجبه مكانها العتيق والضَّيِّق . يقصد أنها أجدى لهذه النَّفَاسة أن تكون في مكان أرحب وأنسب . وبالتالي تكلَّم عن بعض نفائس هذه المكتبة .

فهو من أوائل الباحثين اعتناءً بمخطوطات المكتبة الخالدية ، خاصةً ما نشره من اختيارات ونفائس لفت الأنظار إليها . ونَعلم أن المكتبة لم يكن قد صدر لها فهرسًا إلَّا سنة افتتاحها الرسمي (١٣١٨هـ / ١٩٠٠م) الذي لا يتضمن إلَّا نحو ثُلث محتواها في ما بعد ؛ لأنها لم تكن - آنذاك - قد اكتملت مجموعاتها بعد ، فضلاً عن أنَّ ذاك الفهرس (البرنامج) كان عاجلاً وقاصرًا عن أن يؤدّي غرضه المرجوّ .

لقد تفحّص عبد الله مُخْلِص المخطوطات التي وصفها بعد أن رآها بعينيه ، وقلّبها بيديه ، وعَدَّ منها نحو خمسين مخطوطة . وكنتُ قد فصَّلتُ في

(١) ٨/ ٥٧٤ .

(٢) نفائس الخزانة الخالدية في القدس الشريف ، المجلد ٤ ، ١٩٢٤م ، ص ٣٦٦ - ٣٦٩، ٤٠٩ - ٤١٣ . وانظر المخطوطات العربية في فلسطين ، ص ٦٣ - ٧١.

توصيفه لاختياراته ، الأمر الذي دلَّ على درايةٍ عميقةٍ في فهرسة المخطوطات ، ودقةٍ عند ذكر عناصر الفهرسة المهمَّة التي تُعين الباحث على الكشف عن قيمتها ونفاستها[1] .

وحين نشر محمد كرد علي كتابه الشهير « خطط الشام » ، في ست مجلدات ، حرص على ذكر بعض نفائس المكتبة الخالدية بالقدس ، وذكر منها عشر مخطوطات[2] ، متأثرًا في ذلك باختيارات عبد الله مُخْلِص التي تحدَّثنا عنها آنفًا .

وذكرها اللبناني فيليب دي طرازي ، في كتابه « خزائن الكتب العربية في الخافِقَيْن »[3] ، عام ١٩٣٦م .

ويأتي دور الباحث الجادّ د. محمد أسعد طَلَس ، الدمشقي ، الحلبي الأصل (ت ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م) الذي كتب عام ١٩٤٥م خمس مقالات عن نفائس المخطوطات في بيت المقدس[4] . وخصَّ المكتبة الخالدية بحديث مفصَّل : نشأتها ، نفائسها . ونَذكر أنه وصفها بـ « أعظم دور كتب القدس » .

وكان حديثُه عن مخطوطات المكتبة حديثَ شاهد عِيان . ومِن توصيفه نَمَّ عن اطلاعٍ واسعٍ على التراث العربي المخطوط ، وقُدرةٍ على أن يضع يده على المؤلَّفات ذات الأصالة ، وعلى النُّسَخ الفريدة ، أو النفيسة . وذَكر من

---

(١) جهود مبكِّرة في التعريف بمخطوطات فلسطين ، ص ١٣٥ - ١٣٩ .

(٢) ٦/ ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٣) ١/ ١٤٢ - ١٤٣ .

(٤) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد ٢٠ ، ١٩٤٥م ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ ، ٣٤٤ - ٣٤٧ ، ٤٤٠ - ٤٤٨ ، ٥٢٨ - ٥٣٦ ؛ والمجلد ٢١ ، ١٩٤٦م ، ص ٤٩ - ٦٠ . وانظر المخطوطات العربية في فلسطين ، ص ٨ - ٦٢ .

مخطوطاتها على هذه الشاكلة من المعرفة مئة وثمان ، عَرَضها مصنَّفة على وَفْق موضوعاتها . وبالمناسبة نَلْحَظُ اهتمامه بالمخطوطات العلمية البحتة ، كالفلك على سبيل المثال .

وقد بلغ من علوّ صيت هذه المكتبة ، أن قصد زيارتها كثير من المستشرقين ، منهم إغناطيوس كراتشكوفسكي Ignati Kratchkovski (ت ١٩٥١م) الباحث الروسي ، الذي زار بلادَنا سورية ولبنان وفلسطين ومصر . وفي كتابه الممتع « مع المخطوطات العربية »[١] ، ذكر المكتبة الخالدية ، وقال عنها : « وهناك في القدس ، في مكتبتها المهملة التي تُسمَّى بالخالدية »[٢] . وألحق بالكتاب صورة فوتوغرافية مؤرَّخة في ١٣ نيسان (إبريل) ١٩١٠م ، يظهر فيها أربعة أشخاص كانوا من جُلساء كراتشكوفسكي في القدس ، أحدهم جميل الخالدي ، الذي عُرِّف في الصورة بأنه صاحب المخطوطات[٣] .

ويبدو أن إشارة كراتشكوفسكي هذه نبَّهت المشرفين على المكتبة إلى حاجتها إلى الاهتمام بأمرها . ومن ثَمَّ علا نجمها ، فانطلق إليها غيرُ مستشرق ، نذكر منهم مرغوليوث[٤] Margoliouth الذي أهداها حين زارها مجموعة من كتب التراث العربي .

ومن زوّارها أيضاً ماسينيون[٥] Massignon ، وكاله[٦] Kahle ،

(١) طبعة دار التقدم ، موسكو ، ١٩٦٣م .

(٢) ص ٥٦ .

(٣) ص ٤٠ - ٤١ .

(٤) بريطاني ، أتقن العربية ، ت ١٩٤٠م - المستشرقون ٢/ ٧٧ .

(٥) فرنسي ، ت ١٩٦٢م - المستشرقون ١/ ٢٦٣ .

(٦) ألماني ، ت ١٩٦٤م - المستشرقون ٢/ ٤٤١ .

وغويتين[1] Goitein ، وجيب[2] Gibb . ولهم في سجِّل المكتبة الخاص كلماتٌ حافلة بالإعجاب والتشجيع .

ونذكر أن في المكتبة من المخطوطات ، على وَفْق آخر إحصاء لها ، نحو ألفَي عنوانٍ[3] ، ونحو ستة آلاف كتاب مطبوع ، منها ١٦٠٠ بلغات أجنبية .

وحين نعود إلى هذه المقتنيات من المخطوطات يظهر لنا ما تتمتع بها من نفاسة ، تعجز عن الوصف ، وذلك لحُسْنِ اختيار مشايخ الخالدية في الحرص على اقتنائها . فيلفت نظر العالِم عبد الحيّ الكَتَّاني (ت ١٣٣٣هـ / ١٩١٤م) مجموعة نادرة بخط تقي الدين علي بن عبد الكافي السُّبْكي (ت ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م) فيقول : « ظفرتُ في المكتبة الخالدية ببيت المقدس ، لَمَّا زرته عام ١٣٢٤هـ / [١٩٠٦م] ... وهي مجموعة قيِّمة لا ثمن لها ، من النَّفاسة بمكان »[4] .

إنَّ المُقلِّب في فهرس المكتبة الحديث يلحظ كثرة نوادرها من مصنَّفات علماء التراث العربي في مختلِف العلوم . وبالتالي لا تخلو من مؤلَّفات علماء القدس وأئمتها ، من مثل الشيخ محمد بن محمد الطَّيِّب التافلاّتي ، المغربي الأصل ، مفتي القدس ، ومن علمائها الأعلام ، تصانيفه ناهزت الثمانين . توفي بها ودُفن في ثراها عام ١١٩١هـ / ١٧٧٧م[5] .

(١) يهودي ، نشر الجزء الخامس من أنساب الأشراف ، للبلاذري ، القدس ١٩٣٦م - المستشرقون ٢/ ٤٥٥ .

(٢) بريطاني ، من أعلامهم ، خَلَفَ « مرغوليوث » ، ت ١٩٧١م - المستشرقون ٢/ ١٢٩ .

(٣) بالعودة إلى فهرس مخطوطات المكتبة الخالدية - القدس ، نجد أنَّ عدد العنوانات الموصوفة - على وجه الدِّقَّة - ١٩٨٥ .

(٤) فهرس الفهارس والأثبات ، ٢/ ١٠٣٧ .

(٥) ترجمته في : سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، ٤/ ١٠٢ - ١٠٨ .

وكذلك علماء آل الخالدي الذين صنَّفوا مؤلَّفاتٍ قيِّمة ، حُفظت في المكتبة في شكل مخطوطات ، ووثائق ورسائل كُتبت بخطوطهم ، وهي تكشف عن الظروف الاجتماعية المحيطة ببيت المقدس ، آنذاك . وفيها أيضًا بعض الوثائق التركية (العثمانية) والفارسية .

أما المصاحف ففيها عِدّة ، منها مصحف مُذهب مُتقَن الزخرفة والخط ، يعود تاريخه إلى العهود الأُولى من الفترة العثمانية .

ومطبوعاتها من الطبعات الأُولى للتراث العربي ، التي طَرَقَت مختلِف الموضوعات . ومنها ما هو بالإنجليزية والفرنسية . وبها نُسَخ من الإنجيل باللغتين العربية والإنجليزية .

(٣)

المِحَن والتَّحدِّي :

منذ أن سقطت القدس الشرقية في أيدي الصهيونية ، في اليوم المشؤوم ، الخامس من شهر يونيه (حزيران) عام ١٩٦٧م ، والمحتلُّ يتحيَّن الفُرَص لوضع يده على مخطوطات القدس ، خاصة المكتبة الخالدية .

ولمَّا لاحت الفرصة بوضعهم نظامًا عسكريًا يبيح لهم السيطرة على ما أسمَوْه ممتلكات الغائبين ، ومصادرتها . وكان قد خرج بعض أبناء آل الخالدي في القدس خارج البلاد ، في عامي ١٩٤٨م ، و ١٩٦٧م ، شأنهم شأنَ سكَّان فلسطين بعامة ، الذين خرجوا إما لتجنّب مذابح الصهيونية ، أو طلبًا للعلم في جامعات أوروبا وأمريكا .

فانتهزت إسرائيل هذه الدعوَى الباطلة ، وأخذوا في مصادرة الأحياء الإسلامية القريبة من حائط البُرَاق ، وطَردوا سكان حيّ المغاربة المجاور للمسجد الأقصى وقُبَّة الصخرة . وطالت المصادرة مبنى المكتبة ، ونحو أربعين عَقَارًا ، كان وقفًا لآل الخالدي . وأَلصق الجيشُ الإسرائيلي على باب المكتبة بيانَ المصادرة ، بزعمهم - كما قلنا - إنها من ممتلكات الغائبين .

وأقام آل الخالدي الموجودون في القدس دعوَى مضادَّة ، وقدّموا وثائق تدحض بيانَ المصادرة ، وبُطْلان ادِّعاء الحكم العسكري . وصدر قرار المحكمة - بعد مماطلة - لصالح المكتبة ، وهكذا أُنْقِذت من محنة أُولى ، ولكن بقي الطابق العلوي للمكتبة في حوزة الجنود الإسرائيليين .

وفي أواخر السبعينيات أَخَذَ مدنيون يهود يحلّون بالتدريج مكان الجيش الإسرائيلي . وبهذا تمكنَّت طليعة تلاميذ مدرسة تَلْمودية تابعة لحركة دينية من غُلاة المتعصبين ، من الطابق العلوي . ثم شرعوا في بناء طابق ثالث ، وفَتْح نوافذ تُطلُّ على ساحة المكتبة ، يقذفون إليها ردم البناء وقاذوراتهم . وكان الهدف من كلِّ هذه المضايقات الاستيلاء على المكتبة بعد إخفاق بيان المصادرة .

وبإزاء ذلك أَلَّف أبناء آل الخالدي في الداخل والخارج ، وكثير منهم أساتذة أكاديميون في أشهر جامعات إنجلترا وأمريكا ، صندوقًا للصرف على المكتبة لحمايتها من الأخطار المحدِقة بها . وأقاموا دعوى ثانية في المحاكم الإسرائيلية . وكذلك القيام بإجراء يتحدّى هذا الاعتداء على المكتبة ، بترميم البناء والمخطوطات وفهرستها . وحكمت المحكمة في أواخر عام ١٩٨٧م ، لصالح المكتبة ، وأَمَرت بسدِّ النوافذ ، وإزالة الردم ، والإقلاع عن إلقاء القاذورات مجدَّدًا .

واعترضت المدرسة التَّلْمودية الغَالِية على ترميم البناء ، لحجج واهية . ومرة ثالثة حكمت المحكمة لصالح المكتبة ، والسَّماح لها بالشروع في الترميم المرجوّ . وماطلت بلدية القدس ، وكلهم إسرائيليون ، على منح المكتبة تصريحًا بالترميم . ولم تبدأ أعمالُ الترميم ، إلَّا في أواخر الثمانينيات ، بسبب هذه المعوّقات والمماطلات .

ولم تأتِ هذه الانتصارات للمحافظة على كِيانَ المكتبة بسهولة ويُسْر ، دون أن تتعرض لنهب أو استيلاء . وكانت « جمعية أصدقاء المكتبة الخالدية في القدس » ، التي سُجِّلت عام ١٩٨١م في الولايات المتحدة الأمريكية جمعيةً مُعفاة من الضرائب ، قد التحق بعضويتها - غير أبناء العائلة - كبار المستشرقين وبعض المتنفّذين من المتعاطفين الأوروبيين والأمريكيين . وكان هؤلاء يتّصلون بوزارة الخارجية الأمريكية ، والقنصل العام الأمريكي بالقدس ، من أجل ردّ هذه المِحَن والمكايد الصهيونية حِيَال المكتبة .

وحتى لا أُطيل ، وأُتَّهم بالإملال ، فإنني أَنقل للقارئ الغَيُور ، التغلّبَ على المعوّقات كافّة ، وتمّ ترميم المبنى من الداخل والخارج ، وتزويده بأجهزة للحراسة ، وضبط الحرارة والتبريد ، ومكافحة الرطوبة ، وآلات تصوير ، وأجهزة كمبيوتر وفاكس .

وحُدِّثت محتويات المكتبة من خزائن ومناضد مناسِبة للباحثين . ورُمِّم كثير من مخطوطاتها وأغلفتها . وتَمَّ اكتشاف كثير من المخطوطات والوثائق التي كانت مُخبَّأة في سقف المكتبة . وصدر فهرس ضخم يصف مخطوطاتها ، وهو عمل جيد تناولته أيدٍ مختلفة من الخبراء للتحرير والمراجعة[1] ، وذلك

(١) منهم كاتب هذا البحث الذي أنجز ٦٥٪ من الفهرس ، تحريرًا ومراجعة .

بدعمٍ من مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، في لندن ، لمؤسِّسها وممولّها الشيخ أحمد زكي يماني .

وبأموال صندوق جمعية أصدقاء المكتبة ، ومنحة من الحكومة الهولندية ، ومنظمة اليونسكو الدولية ، وغيرهما ، تَمَّ تصوير المخطوطات على ميكروفيلم ، وترميم شقتين مجاورتين للمكتبة لاستضافة الباحثين ، وإقامتهم أثناء عملهم في المكتبة .

وكذلك ترميم مبنى واسع مقابل المكتبة ، وهو وقفٌ لآل الخالدي ، ليتَّسع لمطبوعات المكتبة ، وفصلها عن المخطوطات ، وقاعة لعرض أهم وثائقها ، وأخرى لاطِّلاع الباحثين ، وثالثة لعقد ندوات علمية ، وإلقاء المحاضرات ذات العلاقة بالتراث العربي الإسلامي في القدس . ويأمل المشرفون على المكتبة إخراج فهرس شامل للمطبوعات ، وآخر للوثائق المعدودة بالآلاف .

وهكذا ، بالهمّة العالية ، والتصميم والتحدّي ، تحوَّل مشروع المكتبة ، التي عُدّت أم خزائن المخطوطات في فلسطين ، إلى مركز علمي مرموق ، ينشغل بالبحوث ، وإلقاء المحاضرات ، ونشر الكتب المحقَّقة ، والدراسات المعمَّقة ، في مكانٍ بجوار المسجد الأقصى وقُبَّة الصخرة ، في مبانٍ لائقة لنفاسة مقتنياتها ، متَّسعةٍ من بعد ضيق ، وتجديدٍ من بعد قِدَم .

* *

أهم المصادر والمراجع

- إتحاف الأعزّة في تاريخ غَزَّة ، عثمان مصطفى الطَّبَّاع الغزّي (ت ١٣٧٠هـ / ١٩٥٠م) ، تحقيق ودراسة عبد اللطيف زكي أبو هاشم ، غَزَّة ، مكتبة اليازجي ، الطبعة الأُولى ، ١٩٩٩م ، ٢/ ١٣٢ .
- الأُنْس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، لأبي اليُمْن مجير الدين العُلَيْمي الحنبلي (انتهى من تأليفه ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م) ، عَمّان ، مكتبة المحتسب ، ١٩٧٣م .
- برنامج المكتبة الخالدية العمومية ، القدس ، مطبعة جرجي حبيب حنانيا ، ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م . وأُعيد طبعه في عَمّان ، مطبعة الشرق ومكتبتها ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- جهود مبكِّرة في التعريف بمخطوطات فلسطين ، عصام محمد الشَّنْطِي ، بحث ضمن ندوة التراث العربي المخطوط في فلسطين ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م .
- الحياة العُمرانية والثقافية في فلسطين ، في القرن السابع عشر (١٠١٠ - ١١١٢ هـ) ، د. إحسان عباس ، بحث في مجلة : المستقبل العربي ، بيروت ، العدد ٦ : ٣/ ١٩٧٩ ، من صفحة ١٣٣ - ١٤٧ .
- خزائن الكتب العربية في الخافِقَيْن ، فيليب دي طرازي ، بيروت ، وزارة التربية والفنون الجميلة ، ١٩٣٦م .
- خزائن الكتب في دمشق وضواحيها ، حبيب الزَّيَّات ، القاهرة ، ١٩٠٢م .
- خِطط الشام ، محمد كرد علي ، دمشق ، مطبعة المفيد ، ١٩٢٨م .
- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، المرادي ، مكتبة المثنَّى ، بغداد ، مصوَّرة عن طبعة بولاق ١٣٠١هـ .
- فهرس الفهارس والأثبات ، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات ، عبد الحي بن عبد الكبير الكتَّاني ، باعتناء د. إحسان عباس ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
- فهرس مخطوطات المكتبة الخالدية - القدس ، إعداد نظمي الجعبة ، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، لندن ، الطبعة الأُولى ، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م .
- قانون التأويل ، لابن العربي ، تحقيق محمد السليماني ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٠م .

- المخطوطات العربية في فلسطين ، جمع وتقديم د. صلاح الدين المنجد ، بيروت ، دار الكتاب الجديد ، الطبعة الأُولى ، ١٩٨٢م .
- المستشرقون ، نجيب العقيقي ، القاهرة ، دار المعارف ، طبعة رابعة موسعة ، ١٩٨٠ - ١٩٨١م .
- مع المخطوطات العربية ، إغناطيوس كراتشكوفسكي ، طبعة دار التقدم ، موسكو ، ١٩٦٣م .
- معاهد العلم في بيت المقدس ، د. كامل جميل العسلي ، عمّان ، الجامعة الأُردنية ، ١٩٨١م ، ص ٣٧٩ - ٣٨٨ .
- المُفصَّل في تاريخ القدس ، عارف العارف ، القدس ، ١٩٦١م .
- المكتبة الخالدية في فلسطين [كنز مخبوء] ، إياد أحمد الغوج ، مقالة في مجلة الفيصل ، الرياض ، العدد ٢٩١ ، رمضان ١٤٢١هـ/ نوفمبر - ديسمبر ٢٠٠٠م ، ص ٤١ - ٤٨ .
- المكتبة الخالدية في القدس (١٧٢٠ - ٢٠٠١م) ، وليد أحمد سامح الخالدي ، بيروت ، أول مارس ٢٠٠٢م - ٧٥ ص . وكان هذا الكتاب المستقل قد كُتب مقدمةً لـ فهرس مخطوطات المكتبة الخالدية - القدس ، صدر عن مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، لندن ، الطبعة الأُولى ، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م .
- وثيقة مقدسية تاريخية : تتضمن ترجمة الشيخ محمد الخليلي ، وبحث في الوقف والحكر والخلو ، وثَبَت بمخطوطات الشيخ الخليلي ، وأحوال القدس في القرن الثامن عشر الميلادي ، تحقيق إسحاق موسى الحسيني ، وأمين سعيد أبو ليل ، القدس ، مطبعة دار الأيتام الإسلامية ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

* * *

المُستَملَح من كتاب « التكملة » للذهبي (تحقيق السيد هارون الجزائري) ...

نقد : د. بشار عواد معروف (*)

صدر عن عالم الكتب في بيروت والدار العثمانية في عمّان سنة ٢٠٠٨م كتاب « المُسْتَملَح من كتاب التكملة » لمؤرّخ الإسلام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٦٧٣ - ٧٤٨هـ) ، وهو مختصره لكتاب « التكملة لكتاب الصِّلة » لابن الأبّار البَلَنْسي المتوفّى سنة ٦٥٨هـ ، بعناية السيد هارون بن عبد الرحمن آل باشا الجزائري ، بلغت صفحاته (٥٤٣) صفحة ، منها مقدمة في (٣٢) صفحة ، وفهارس استغرقت (٧٥) صفحة .

ومن المعلوم في بدائه العقول أن علم تحقيق النصوص إنما يهدف إلى تقديم نصٍّ صحيح مطابق لما كتبه مؤلِّفُه ، وتوثيقه نسبةً ومادّةً ، وذلك عن طريق جَمْع النُّسَخ والمقابلة بينها . أما إذا وصلت إلينا النُّسْخة التي كتبها المؤلِّف بخطّه ، وارتضاها في حياته فلا فائدةَ بعد ذلك من النُّسَخ الأخرى ؛ لأنها إنما انتُسخت منها . ويبقى جهد المحقِّق في هذه الحال : القراءة الصَّحيحة ، والضَّبْط الجيد ، والتَّعْليق على النصِّ بما يوضِّح دلالته التي قصدها مؤلِّفه .

وكتاب « المُسْتَملَح » وصل إلينا بخطِّ الذَّهبي ، وخَطُّه معروفٌ ، وقد ذهب من النُّسْخة أوَّلُها ، وبقيَ منه (١١٨) ورقة ، والذاهب منه لعله لا يزيد على (٢٧) ورقة ، وقد كنتُ حققتُ هذا الكتاب ، ونشرتْه دار الغرب الإسلامي في مطلع سنة ٢٠٠٨م .

(*) أستاذ متفرغ في مركز إحياء التراث العلمي العربي - جامعة بغداد .

وحين إطّلعت على نشرة السيد هارون بن عبد الرحمن آل باشا الجزائري ، لاحظت مخالفاتٍ صريحةً لأصول علم تحقيق النصوص ؛ من زيادة على النص ، وسقط منه ، وتعليقات تدلُّ على عدم تعمُّقٍ في هذا الفن ، وتصحيف وتحريف بلغ من الكثرة بحيث لا يمكن إحالته على سبب من الأسباب مما يثير الاستعجاب ، وسأكتفي بضرب أمثلة على كل مفصل من هذه المفاصل ، ذلك أنَّ نقد الكتاب من أوله إلى آخره ربما يحتاج إلى مجلَّد لا يقلُّ في عدد صفحاته عن هذه النشرة .

أولاً - الزيادات على النص بما ليس منه :

بيَّنا قبل قليل أن تحقيق النص يهدف إلى تقديم نص صحيح مطابق لما كتبه مؤلِّفه ، فإذا وصل إلينا الكتاب بخطّ مؤلِّفه ، وتيقنّا من صحّة خطّه ونسبته إليه ، فلا يجوز بعد ذلك الزيادة على هذا النص أو الحذف منه ، فإذا ما وجد المحقِّق ضرورةً لذلك ، وضع الزيادة بين حاصرتين ، للإبانة عن أن هذه الزيادة ليست من النص ، أو التعليق في الهامش بما يشاء من ذلك .

وقد لاحظت أنَّ المحقِّق زاد على النُّسْخة زياداتٍ كثيرة نقلها من الأصل المختصر ، أو من كِيسه من غير إشارة إلى ذلك ، وهو أمر مخالف لأصول التحقيق ، من نحو وضعه عناوين لم يكتبها الذهبي ، مثل :

ص ٣٣ : حرف الجيم ، باب جابر .

ص ٣٤ : باب جودي .

ص ٣٥ : باب جابر .

ص ٣٥ : الأفراد .

ص ٣٦ : حرف الحاء ، باب الحسن .

ص ٣٨ : حرف الميم ، باب محمد .

ص ١٨٨ : من اسمه موسى .

ص ١٩١ : الغرباء .

ص ١٩١ : من اسمه مروان .

ص ١٩٢ : من اسمه مصعب .

ص ١٩٣ : الغرباء .

وهلمَّ جرًّا إلى آخر الكتاب ، ولم يُشِرْ أيَّ إشارة إلى أن هذه الزيادات لا أصل لها في النُّسْخة الخطّية ، وهو أمر عجيب لم نعهده في تحقيق آخر .

كما أنه كان يزيد على النصِّ زياداتٍ يظن أنها قد سقطت من الأصل ، وهو أمر أعجب من سابقه ، إذ كيف يُتصوَّر أن لفظة تسقط من نسخة المؤلِّف ! وإنما يستعمل مثل هذا التعبير حينما يسقط شيء من النُّسّاخ حال النَّقْل من نسخة المؤلِّف أو نسخة أخرى نقلوا منها ، فمن ذلك:

ص٥٥ : كتب الذهبي : « محمد بن رزق المريني ، أبو عامر . عن أبي علي الغسَّاني » ، فزاد المحقِّق من كيسه إلى النص : « روى » عن أبي علي الغساني ، وكتب في الحاشية معلقًا على لفظه « روى » بقوله : « في الأصل ساقطة ، والمثبت من التكملة » ، فكيف يُتصوَّر سقوط اللفظة من النصِّ وهو بخطّ مؤلّفه ، إضافة إلى أن النصّ مستقيمٌ من غير هذه اللفظة ، وهو أسلوب متّبع عند الكثيرين من مؤلفي كتب التراجم .

وأعاد مثل هذا في ص٥٦ فزاد لفظة « روى » أيضًا على أحد النصوص ، وقال في الحاشية معلقًا : « في الأصل ساقطة ، والمثبت من التكملة » ، وسار على هذا المنوال في كل الكتاب ، كما في الصفحات ٦٠ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١١٣ ... إلخ .

ومن ذلك زيادته لفظة « قلت » إلى بعض ما زاده الذهبي على « التكملة » كما في ص ١٥٣ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٨٢ ، ٢٠٨ ... إلخ . مع أن الذهبي يذكرها تارة ويهملها تارة أخرى ، فلا تجوز الزيادة على النص الذي كتبه المؤلِّف والقول: « في الأصل ساقطة والمثبت من عندنا » ، فهذا عجيب ومخالف لأبسط قواعد تحقيق النصوص ، ولو تتبعنا ذلك لطال الكلام ، وفي ما قدّمنا كفاية للفَطِن اللَّبيب .

ثانيًا - غياب القدرة على فهم مصطلحات الكتابة :

إن من أصول التحقيق العلمي الرَّصين قدرة المحقِّق على فهم طرائق المؤلِّفين والنُّساخ في الكتابة والعلامات التي يستعملونها للحذف ، ذلك أن ترميج عبارة أو جملة أو ترجمة ما قد يشوّه جمالية النُّسْخة ، ولذلك استعملوا إشارات تدل على الحذف ، فمن ذلك أنَّ الذهبي كتب في الورقة (٤أ) ترجمةً هذا نصُّها :

« محمد بن شدَّاد أبو عبد الله ابن الحدَّاد الطُّلَيْطِلي . روى عن الحافظ ابن عبد السلام المعروف بابن شَقّ اللَّيْل ، وعنه محمد بن إبراهيم » .

ثم حذفها بكتابته في أولها: « لا » وفي آخرها « إلى » ، وهي الطريقة التي يستعملها كثير من المؤلِّفين والنُّسّاخ لحذف ما يريدون حذفه . ومما يؤسَف عليه أن المحقِّق لم يتنبّه إلى هذا الأمر ، لقلّة درايته بمثل هذه الأمور ، فأثبت الترجمة في طبعته (ص٤٦ رقم ٣٢) .

ومن ذلك أيضًا قول المحقِّق في (ص٧٩) هامش (٢): « جاء في الأصل: وكتاب في الطب كتاب سمّاه الشفاء ، وكتاب في ... » ، وقد حذفنا كلمة «كتاب» الثانية ، لما وافق ما في «التكملة». مع أن الذهبي - يرحمه الله -

قد ضرب بعلامة حذف على هذه اللفظة ولم يتنبّه المحقِّق إلى هذا الصَّنيع ، مع إقرارنا بغلط هذا الفعل لو صح وجوده ؛ لأن النُّسْخة بخطّ المؤلِّف .

ثالثًا - موقفه من زيادات الذهبي على ابن الأبّار :

لم يفهم المحقِّق طبيعة اختصارات الذهبي ، فمن المعلوم أن مختصرات الذهبي لم تكن اختصارات عادية يغلب عليها الجمود والنقل ، بل إن المطَّلِع عليها الدّارس لها برَوِيّة وإنعام نظر يجد فيها زيادات كثيرة وتعليقات نفيسة ، واستدراكات بارعة ، وربما تصحيحات وتصويبات لمؤلف الأصل إذا عرف وهمه أو غلطه ، إضافة إلى مقارنات تدل على معرفته وتبحُّره في فن الكتاب المختصر[1] . ومن ثم فإن تعليقات الذهبي على الكتاب هي جزء لا يتجزأ من النص ، فلا يجوز حذفها وكتابتها في الحاشية كما فعل المحقِّق في كثير منها ، إلا في حالات نادرة من نحو تعليق على نصٍّ أو تصحيح له في أثناء النقل من الأصل ، وهو في الجملة قليل .

وقد اضطرب المحقِّق اضطرابًا شديدًا في هذا الأمر ، فكان يثبت النص في الأصل ، ويحذفه فيكتبه في الحاشية تارة أخرى ، ولم يدرك أن صَنيع الذهبي - سواء أكان كتب هذا النص في حاشية نسخته أو في نهاية الترجمة - جزء من النص ؛ لأنه ربما عاد إلى هذا الاختصار فأثبت على نسخته ما رآه مناسبًا من الزيادات ، وهذا هو عين صَنيعه في كتبه الأخرى ومنها مثلًا « المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله ابن الدُّبَيْثي » الذي حقَّقه شَيْخُنا العلَّامة مصطفى جَوَاد يرحمه الله .

وهكذا وجدنا المحقِّق يكتب في الحاشية ما نقله المؤلِّف عن ابن الزُّبير

(١) ينظر كتابنا: الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام ، ص١١١ فما بعدها (القاهرة١٩٧٦م) .

في ترجمة محمد بن عبد الحقّ القُرْطبي (ص٨٠ هامش ١) ، وما زاده في ترجمة اللَّبْلي (ص ١١٦هـ١) ، وترجمة أبي عبد الله الجيّاني من ابن مَسْدِي (ص١٣١هـ٣) ، وترجمة أبي عبد الله الغسّاني من ابن مَسْدِي أيضًا (ص١٤٤هـ٢) ، وترجمة ابن اليتيم الأندلسي نقلًا من ابن مَسْدِي وابن الزُّبير (ص١٤٦هـ٢) ، وغيرها كثير ، فأفسد المتن بهذا الصَّنيع .

رابعًا - كثرة السقط :

إن من نعم الله على المحقِّق أن تصل إليه نسخة الكتاب المحقَّق بخطّ المؤلِّف ، فيتخلَّص من عَناء المقابَلة بين النُّسَخ ، والترجيح بين القراءات ، وتعليل الترجيح ، لمحاولة الوصول إلى ما كتبه المؤلِّف .

وقد وصل إلينا كتاب « المُسْتَملَح » بخطّ مؤلفه الذهبي ، وخطُّه مُتقَنٌ مليحٌ لمن عرفه وأدمن قراءته ، فيتعيَّن على المحقِّق عندئذٍ تجويد المقابلة وقراءة النص قراءة صحيحة .

أما الأخ المحقِّق فلم يفعل من ذلك شيئًا ، لذلك جاءت طبعته تزخر بالسَّقَط ؛ من إهمال المقابلة ، والتصحيف والتحريف من سوء القراءة وقلة المعرفة . وفي ما يأتي نماذج من السقط الذي وقع في طبعته ، له مئات نظائر :

وأول الغيث من الترجمة الأولى التي نشر المحقِّق نموذجًا منها في طبعته (ص٣٣ ، الترجمة:١) حيث جاء فيها: « وأخذ علم العربية بمعرفتها ، وقعد لإقرائها » ، والصواب: « وأخذ علم العربية عن أبي القاسم ابن الرَّمَّاك ، وأبي الحَسَن بن مُسَلَّم ، وعُنِي بها وتحقَّق بمعرفتها ، وقعد لإقرائها ». والنصُّ أوضح ما يكون في ما نشره المحقِّق نفسه في ص٣١ من طبعته ، وهو آخر النماذج من المخطوط والورقة الأولى منه !

وجاء في ص٣٦ ، الترجمة ٧ : « أبو علي الرهيبل » ، والصواب : « أبو علي ابن الرهيبل » .

وفي ص٣٦ س١٤ : « سَمَّعَهُ سنة ثلاث وخمسين ، ورواه سنة وسبعين » وصوابه: « سَمِعَهُ منه سنة ثلاث وخمسين ، ورواه سنة اثنتين وسبعين » .

وفي ص٣٨ س٨: « محمد بن عبد الله بن مفوز بن عبد ربه المَعافري » ، وصوابه: « محمد بن عبد الله بن مُفَوّز بن غَفُول بن عبد ربّه المَعافري » .

وفي ص٤١ س٦: « توفي ثلاث وثلاثين وأربعمائة » ، وصوابه: « توفي سنة ثلاث ... إلخ » .

وفي ص٤٢ س١٢: « وتوفي سنة ثمان ... » ، وصوابه: « توفي في آخر سنة ثمان ... » .

وفي ص٥٠ س٥: « وأقرأ بها سنة ... » ، والصواب: « وأقرأ بها في سنة ... » .

وفي ص٥١ س٥: « توفي في صفر سنة ثمان وخمسمائة » ، والصواب: « توفي في صفر سنة ثمان عشرة وخمس مئة » .

وفي ص ٥٢ س٦: « نافذًا في الأحكام » ، والصواب: « كان نافذًا في الأحكام » . ولم يسأل نفسه كيف نَصَبَ « نافذًا » .

وفي الصفحة والسطر نفسه: « ووليها أبوه » ، والصواب: « ووليها أبوه وجَدُّه » .

وفي ص ٥٣ س١٤: « سمع أبا علي » ، والصواب: « سمع أبا علي الصَّدَفي » .

وفي ص ٥٥ س ٩ : « وأبي عبد الله حمدين » ، والصواب: « وأبي عبد الله بن حمدين » .

وفي ص٥٧ س٦: « روى عنه القاضي » ، والصواب: « روى عن عمّه القاضي » .

وفي ص ٥٨ س٧: « وأخوه الفضل » ، والصواب: « وأخوه أبو الفضل » .

وفي ص٦١ س١٤: « روى عن أبي علي الصَّدَفي لما حجَّ » ، والصواب: « روى عن أبي علي الصَّدَفي ، وبالثَّغْر لما حجَّ » ، والثغر هنا: الإسكندرية .

وفي ص٦٣ س٣: « أجاز سنة ثمان » ، والصواب: « أجاز سنة ثمان وثمانين » .

وفي ص ٦٦ س٤: « أخذ القراءات عن أبي عبد الله بن سعادة ، والقاسم بن فِيْرُّه » ، والصواب: « أخذ القراءات عن أبي عبد الله بن سعيد بذاته ، وتصدَّر ببلده للإقراء ، وعنه أخذ شيخنا أبو عبد الله بن سعادة ، والقاسم بن فِيْرُّه » .

وفي ص٦٨ س١٠: « توفي نصف ربيع الأول » ، وصوابه: « توفي في نصف ربيع الأول » .

وفي ص٦٩ س٥: « أبو عبد الله بن أبي الفَهْمي » ، وصوابه: « أبو عبد الله بن أبي زيد الفَهْمي » .

وفي ص٧١ س٧: « محمد بن الحسن بن محمد بن سعيد ، أبو عبد الله المقرئ » ، وصوابه: « محمد بن الحسن بن محمد بن سعيد ، أبو عبد الله الداني المقرئ » .

وفي ص٧٤ س٩: « توفي سنة ثمان وأربعين » ، وصوابه: « وتوفي سنة ثمان وأربعين شابًّا » .

وفي ص٧٥ س٣: « وسمع من أبي جعفر » ، وصوابه: « وسمع من أبي محمد بن أبي جعفر » .

وفي ص٧٧ س٤: « محمد بن عبد الرحمن بن يعيش » ، وصوابه: « محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن يعيش » .

وفي ص٧٨ س٢: « وأبي القاسم الجنان » ، وصوابه: « وأبي القاسم ابن الجنان » .

وفي ص٧٩ س٨: « وله في اللُّغة حسن » ، وصوابه: « وله في اللغة كتاب حسن » .

وفي ص٨٣ س٣: « وأبا العباس بن العَرِيف » ، وصوابه: « وصحب أبا العباس بن العَرِيف » .

وفي ص٨٣ س٦: « ساوىَ بها بعضَ الطرق » ، وصوابه: « ساوىَ بها في بعض الطرق » .

وفي ص٨٣ س١٠: « وهو آخر من تلا على ابن النَّحاس » ، وصوابه: « وهو آخر من تلا الروايات على ابن النَّحَّاس » .

وفي ص٨٧ س١٨: « حدَّثنا عنه جماعة شيوخنا » ، وصوابه: « حدثنا عنه جماعة من جلّة شيوخنا » .

وفي ص٨٨ س١: « محمد بن عبد الله بن ميمون بن إدريس العَبْدَري القرطبي » ، وصوابه: « محمد بن عبد الله بن ميمون بن إدريس ، أبو بكر العَبْدَري القرطبي » .

وفي ص٩١ س٤: « محمد بن سعيد بن محمد بن سعيد بن أحمد بن مدرك »، وصوابه: « محمد بن سعيد بن محمد بن سعيد بن أحمد بن محمد بن مدرك ».

وفي ص٩٢ س١٤: « محمد بن أحمد بن سليمان »، وصوابه: « محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان ».

وفي ص٩٣ س١٣: « وكان أديبًا متصرفًا »، وصوابه: « وكان أديبًا كاتبًا متصرفًا ».

وفي ص٩٥س١: « أبو بكر أبي الحسن اللَّمْتُوني »، وصوابه: « أبو بكر ابن أبي الحسن اللَّمْتُوني ».

وفي ص٩٦ س١٦: « عن أبيه جعفر البِطْرَوْجِي »، وصوابه: « عن أبيه، وأبي جعفر البِطْرَوْجِي »[1]، ولم يكن أبا جعفر أبًا للمترجَم.

وفي ص٩٧ س٣: « محمد بن أحمد بن عبد العزيز »، وصوابه: « محمد ابن أحمد بن محمد بن عبد العزيز ».

وفي ص ٩٨ س ٤: « أبو عبد الله المِيْرتُلي »، وصوابه: « أبو بكر وأبو عبد الله المِيْرتُلي ».

هذه نماذج من صفحات قليلة تدل على أن المحقِّق لم يعتن بالمقابلة على الأصل، وهي أولى عمليات التحقيق العلمي الدقيق، ولو شئنا التقصيَ لطال الكلام وسوَّدنا عشرات الصفحات من ذلك.

---

(١) البِطْرَوْجِي: نسبة إلى بِطْرَوْش، بالكسر ثم السكون وفتح الراء، وسكون الواو وشين معجمة: حصن في طريق قرطبة كثير العمارة شامخ الحصانة. الروض المعطار للحميري، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ط ٢، بيروت ١٩٨٠، ص ٩٣. (المجلة).

خامسًا - التقييد والضبط :

لقد خلَت الطبعة المذكورة من التقييد والضبط ، مع إدراكنا أن تحقيق كتب التراجم إنما يتحقق في ضبط نصوصها وتقييدها بالحركات ، لتُقرأ قراءة سليمة ؛ لأن الأسماء شيء لا يدخله القياس ، وليس هناك شيء قبله يدلُّ عليه ، ولا شيء بعده يحدّد ضبطه وتقييده .

والضبط إنما يقوم على دعامتين رئيستين ، أولاهما : حسن قراءة المخطوطات ، ومعرفة خطوطها ، وكيفية رسم كل حرف عند ناسخ معين ، وثانيتهما : المعرفة التامة بموضوع الكتاب بحيث لا يقع المحقِّق عند الإشكال بما لا يستطيع له ترجيحًا أو إيجاد حل علمي مقبول .

أما تقييد الأسماء والمواضع الأندلسية فيحتاج إلى خبرة مضافة قلّما تتحصّل إلا عند القلة القليلة من الذين درسوا وتتبعوا ونَظَّموا عملهم وقيّدوا ما وجدوه في المخطوطات الصحيحة مقيدًا بيد المؤلِّفين أو النُّسّاخ المتقنِين الثِّقات ، إضافة إلى تتبُّع كتب المشتبه المعنية برفع الارتياب عن كل ما يشتبه من الأسماء والأنساب والألقاب والبلدان .

وقد عَنَّ للمحقِّق في أحايين نادرة أن يقيّد بعض الألفاظ أو الأسماء ، فجاءت مجانبةً للصواب تدل على قلة خبرة في اللغة والأسماء ، من نحو ضبطه للفظة « يختلف » بالبناء للمجهول: « وكان يُخْتَلَفُ إليه في علم العربية أولادُ الأكابر » ، والصواب: « يَخْتَلِفُ » ، كما هو ظاهر (ص٣٨ س٦) وضبطه « مفوِّز » بتشديد الواو وكسرها كما في (ص٥٢ س١) ، وصوابه: « مفوَّز » كما هو معروف ، وضبطه اسم « طِرَاد الزينبي » بتشديد الراء وفتحها « طرَّاد » ، وقد قيدته كتب المشتبه ومعجمات اللغة بزِنة كتاب كما هو مشهور ، وقوله في ص ٦١ س١٥ : « تغلَّب عليه الزهد » ،

والصواب: « يَغْلِبُ عليه الزهد » . وقوله في ص٧٠ س٤ : « وكان محقِّقًا باللغة والأدب ، وللحديث » ، وصوابه: « وكان متحققًا باللغة والأدب والحديث » ، وقوله في ص٧١ س١ : « الكياء » ، وصوابه: « إلْكِيا » ، وتعني: الكبير ، ونحو ذلك مما يطول ذكره وتعداده ، فضلًا عن تحريف وتصحيف في الأسماء جاوز الحد كما سيأتي بيانه ، لا يمكن إحالته إلا على قلة الخبرة بهذا العلم الجليل .

سادسًا - التصحيف والتحريف :

أما التصحيف والتحريف وسوء القراءة فهو شيء جاوز الحدّ ، ولم نجد للمحقق عذرًا سوى قلة المعرفة وعدم الاهتمام ، فمن ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

ص٣٩ س١٣ : « سار إلى سَرَقُسْطَة بآخره » ، وصواب العبارة: « نزل سَرَقُسْطَة بأخَرَةٍ » .

ص٤٠س٢: « صاحب التاريخ في الدولة العامرية » ، وصواب العبارة: « صاحب التاريخ وبهاء الدولة العامرية » .

ص٤١ س٩: « شاعرًا مغلقًا يشارك في الطب » ، وصواب العبارة: « شاعرًا مُفْلِقًا شارك في الطب » .

ص٤٢س٥: « يُعرف بالشبانيسي » ، وهكذا في المطبوع في التكملة الأبّارية ، أما الذهبي فكتب بخطّه : « يعرف بالشَّبانسي » .

ص٤٢س٩: « محمد بن عبد الله بن مرثد » ، والصواب: « مرشد » بالشين المعجمة ، وكذا هو في التكملة ١/ ٣١٤ ، والذيل لابن عبد الملك ٦/ ٣١٧ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ٩/ ٧١٦ .

ص٤٣ س٤ : « تآليفه » ، والصواب: « تواليفه » .

ص٤٣ س٦: « فأخرجاه منها ، وكان سبب العداوة » ، وصواب العبارة: « وأخرجاه منها ، وكان ذا سبب العداوة » .

ص٤٣ س٧ : « وابن الحزم » ، والصواب: « وابن حزم » .

ص٤٣ س١١ : « أحد الفقهاء بلده » ، والصواب: « ببلده » .

ص٤٤ س٩: « عن أبي عمرون ومن بَلَنْسِيَةَ » ، والصواب: « عن أبي عمرو من بَلَنْسِيَةَ » .

ص٤٦ س٦: « وأبا مُطرِّف بن حجاف » ، والصواب: « وأبا المُطرِّف ابن جَحَّاف » .

ص٤٦ س١٢: « وأبو إسحاق وجماعة » ، والصواب: « وأبو إسحاق ابن جماعة » .

ص٤٦ س١٣: « توفّي في نحو السّبعين وأربع مئة » ، والصواب: « توفّي في نحو التّسعين وأربع مئة » ، وكذلك هو في تاريخ الإسلام ١٠/ ٦٦١ ، والذي قبله توفّي سنة سبع وثمانين وأربع مئة ، ومعلوم أنّ ابن الأبّار يرتّب الأسماء على الوفيات .

ص٤٧ س١١ : « ذكره ابن الدّبّاغ في طبقات الفقهاء » ، والذي بخطّ المؤلّف: « الطبقات للفقهاء » .

ص٤٧ س١٤ : « وله تآليف » ، والصواب: « وله تواليف » كما بخطّ المؤلّف .

ص٤٨ س٥ : « أخذ عنه أبو عبد الله بن أبي إسحاق الرّيّي » ، صوابه:

« اللُّرِّي » من مدينة « لريه » ، وكذلك هو في « تاريخ الإسلام » بخطّه أيضًا ١١/١١٦ .

ص٤٨ س٩: « ويعاني الكتابة » ، والصواب: « وتعانَى الكتابة » .

ص٤٨ س١٠: « وكتب الناس تاريخه على سوء وصفه » ، والصواب: « على سوء رَصْفه » .

ص٤٩ س١٣: « وحدثوا عنه بالكتب » ، والصواب: « وحدثوا عنه بالكتاب » ، وهو كتاب « تقييد المُهْمَل » لأبي علي الغَسَّاني الذي ذكره المؤلِّف قبل هذا بسطر واحد .

ص٥٠ س٧ : « المعروف بابن الخياط » ، وصوابه: « الحَنَّاط » ، وهي كذلك في المصدرين اللذين أحال عليهما: « التكملة » ١/ ٣٣٩ و « معجم أصحاب الصدفي » (٨٥) الذي يسميه غلطًا: معجم ابن الأبّار ، فماذا أفاد من ذكر هذين المصدرين؟

ص٥٠ س١٢: « محمد بن أحمد بن فارناس » ، وصوابه: « فرناس » ، كما بخطّه هنا وفي « تاريخ الإسلام » ١١/ ٢٧٩ و « التكملة » ١/ ٣٤٠ ، وهما المصدران اللذان أحال عليهما .

ص٥٢ س٤: « محمد بن عُبيد الله بن حسين » ، والذي بخطّ المؤلِّف : « عبد الله » ، فكان يتعين الالتزام به والتعليق عليه ، فالظاهر أنه كان « عبد الله » في النُّسْخة التي اختصر الذهبي منها ، أما في المطبوع من « التكملة » ١/ ٣٤٣ ، وابن عبد الملك في الذيل ٦/ ٣٣١ فهو « عبيد الله » ، وأما النّباهِي فذكره في « المَرْقَبة العليا » « عبد الله » أيضًا ، والمهم إثبات ما أراده المؤلِّف وما كتبه بخطّه .

ص٥٣ س١١: « واختصّ له »، والصواب: « واختصّ به ».

ص٥٤ س٢: « وحضروا قراءة كتاب سيبويه »، والصواب: « وحضر » بصيغة المفرد، كما هو بخطّه، وكما يقتضيه سياق العبارة.

ص٥٤ س٣: « توفّي في المحرّم سنة إحدى وعشرون »، والصواب: « وعشرين ».

ص٥٤ س٨: « محمد بن يوسف بن فيرة »، والصواب: « فِيرُّه » بالتثقيل والضم، وهو اسم أعجمي تفسيره: حديد (ينظر توضيح ابن ناصر الدين ٧/ ١٣٩-١٤٠).

ص٥٥ س٩: « وأبي عبد الله حمدين »، وصوابه: « وأبي عبد الله بن حمدين »، وكما في « التكملة » ١/ ٣٥٠، و« تاريخ الإسلام » ١١/ ٤٩٤، وهما المصدران اللذان أحال عليهما.

ص٥٥ س١١: « وألّف كتاب الشجاع » وأعاده في الفهرس، ص٥١٥ تأكيدًا منه لصحّته، وهو تحريف صوابه: « الشِّجاج »، كما هو بخطّ الذهبي هنا وفي « تاريخ الإسلام » ١١/ ٤٩٤، وأصل « التكملة » ١/ ٣٥٠، ولا أدري من أين أتى بها.

ص٥٦ س٦: « وعنه ابن عبد الكبير »، وأحال على « التكملة » و« معجم ابن الأبّار » (يعني: المعجم في أصحاب القاضي الصَّدَفي)، والصواب: « وعنه ابنه عبد الكبير »، كما في الأصل، وكما في المصدرين اللذين أحال عليهما.

ص٥٨ س٢: « أبو عبد الله البزار »، هكذا آخره راء مهمَلة، ولم يكن الرجل بزارًا، بل كان بزازًا، كما بخطّ المؤلِّف هنا وفي « تاريخ الإسلام » ١١/ ٧٤٦، وكما في أصله « التكملة » ١/ ٣٥٤.

ص٥٨ س٦: « أبو محمد بن العثماني » ، و: « بن » لا أصل لها بخط المؤلِّف .

ص٥٨ س٧: « وأخوه الفضل ، وأجازه الإسكندريون » ؛ فالأول صوابه: وأخوه أبو الفضل ، والثاني من التحريفات الطريفة التي تُقيّد ليُتَندَّر بها لأن الصواب: « وابن جارة: الإسكندريون » ، فالمذكورون كلُّهم من أهل الإسكندرية جمع الذهبي نسبتهم ، أما ابن جارة هذا فهو مخلوف ابن علي بن عبد الحقّ التميمي القَرَويّ ثم الإسكندراني المعروف بابن جارة المتوفَّى بالإسكندرية سنة ٥٨٣هـ ، وهو مترجم في « التكملة المُنْذِريّة » ١/ الترجمة ٢٠ ، وفي « تاريخ الإسلام » ١٢/ ٧٦٧ وغيرهما .

ص٥٨ س١٤-١٥ وص٥٩ س١: « وأخذ عنه الناس ، ووجدت سماع عبد المنعم بن الخلوف له على كتاب « الرعاية » لمكّي . توفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسة مئة » . ولفظة « توفي » لا وجود لها في الأصل ، فهي من كيس المحقِّق ، ولا تصحُّ البتَّة ، بل أفسدت النصَّ فجعلت تاريخ قراءة كتاب « الرعاية » لمكّي تاريخًا لوفاته ، وبحذفها يستقيم النص ، وهو كذلك في الأصل ، أعني كتاب ابن الأبّار: « ووجدت سماع عبد المنعم بن الخلوف منه وخطّه له بذلك على كتاب « الرعاية » لمكّي في سنة اثنين وثلاثين وخمسة مئة » (١/ ٣٥٥) ، ونقله الذهبي كذلك في « تاريخ الإسلام » ١١/ ٥٧٩ ، وفي « معرفة القراء الكبار » ١/ ٤٨٣ ، وقال ابن عبد الملك: « وكان حيًّا سنة ثنتين وثلاثين وخمس مئة » (الذيل ٦/ ٤٣٤) ، فما فائدة ذكر المصادر في الحاشية من غير مقابلتها بالنص؟!

وجاء في ترجمة محمد بن أحمد بن عثمان البرياني (ص٥٩ س٤): « أخذ عنه أبو عبد الله بن قابل » ، وصوابه: « أبَو عبد الله بن نابل » بالنون كما جاء

بخطّ المؤلِّف في النُّسْخة الخطية ، وكذلك هو بخطّه في « تاريخ الإسلام » ١١/ ٦٠١ ، وفي « الذيل » لابن عبد الملك ٦/ ١١ ، وتحرّف في المطبوع من « التكملة » لابن الأبّار فتابعه من غير رَوِيَّة .

وجاء في ترجمة محمد بن الحسين بن أحمد المَيُورْقي (ص٦١ س١٥) قوله: « تغلَّب عليه الزهد والصلاح » ، وصوابه: « يَغْلِبُ عليه الزهد والصلاح » .

وجاء في ترجمة محمد بن علي بن عطية البَلَنْسي (ص٦٤ س٢) قوله: « منافس فيما كتب إلى اليوم لحسن وِراقته » ، وهو تحريف صوابه: « يُتَنَافَسُ » ، كما بخطّ المؤلِّف ، وبه تستقيم العبارة .

وجاءت نسبة محمد بن عبد الرحمن بن محمد الإشبيلي أبي الحسن ابن عظيمة عنده: « العبدري » (ص٦٤س٤) ،وصوابها « العَبْدي » فلم يكن الرجل عبدريًّا ، وإنما هو « عبدي » كما في جميع مصادر ترجمته التي أشار هو إليها في تعليقه !

وجاء في ترجمته أيضًا (ص٦٤س٨): « واشتهر بالصرف » وصوابه: « واشتهر بالصِّدق » ، وفي أصل ابن الأبّار: « فعرف مكانه من الصدق والعدالة » ، فلا أثر للصرف أو النحو في ترجمته .

وجاء في ترجمة محمد بن عبد الله بن محمد أبي جعفر الخُشَني المُرْسي (ص٦٥س٣) « وكان فقيها مبررًا في تدريسه » والصواب: « مبرزًا » بالزّاي .

وفي الترجمة المذكورة أيضًا (ص٦٥ س٦): « لمسك الناس عن الشر » ، والصواب: « ليمسك » كما بخطّ المؤلِّف .

وجاء في ترجمة محمد بن محمد بن علي أبي عامر العكّي الشاطبي المعروف بابن منكرال (ص٦٧ س٣): « وعنه أخذ أبو بكر بن مفوّز » ، وعلق في الحاشية على « أخذ » بقوله: « في الأصل ساقطة ، والمثبت من التكملة » ، فكيف تسقط والنُّسْخة بخطّ المؤلِّف ، فلا سقط في النص ، والصواب: « وعنه القاضي أبو بكر بن مفوَّز » .

وفي ترجمة محمد بن إسماعيل بن محمد بن عبد الملك الجمحي أبي عامر القسطنطيني (ص٦٧ س٩): « قلت لم يرو عنه راويًا » ، والصواب: « لم يذكر عنه راويًا » .

وجاء في ترجمة محمد بن يحيى بن أفلح الأموي ، أبي بكر الإشبيلي النحوي (ص٦٧ س١١): « وله كتاب في العروض » ، والصواب كما بخطّ المؤلِّف: « وله كتاب عروضٍ » .

وفي ترجمة محمد بن مسعود بن عبد الله الخشني ، أبي بكر بن أبي ركب الجياني (ص٦٨ س٧): « وكان من جلة النحاة ... متصرف » والصواب: « متصرفًا » .

وجاء في ترجمة أبي عبد الله محمد بن جعفر القرطبي (ص٦٩ س٢): « وقد قرأ بغرناطة » ، والصواب: « أقرأ » وفرق بين اللفظتين .

وفي ترجمة أبي بكر محمد بن عبد الملك الشَّنْتَرِيني (ص٩٦ س١٤): « فنزل مصر ، فأقرأ بها ، وصنّف » ، والصواب: « وحَدَّثَ » بدلًا من « وصنّف » .

وجاء في ترجمة محمد بن إدريس المخزومي ، أبي عبد الله البَلَنْسي (ص٧٠ س٤): « وكان محققًا باللغة والأدب ، وللحديث » ، والصواب: « وكان متحققًا باللغة والأدب والحديث » .

وفي ص٧٠ س٨: «أبو عبد الله بن الحلال المرسي»، وصوابه: «الخلال» بالخاء المعجمة.

وفي ترجمة محمد بن أحمد بن إبراهيم الجَيَّاني (ص٧٠ س١٣): «ويعرف بالبغدادي لسُكانها»، والصواب: «لسُكْناها».

وجاء في ترجمته أيضًا (ص٧١ س١): «وحجَّ فلَقِي أبا الحسن الطبري الكياء»، والصواب: «وحَجَّ فلَقِي أبا الحسن الهَرَّاس إلْكِيا»[1].

وجاء في ترجمته أيضًا من طرائف التحريف (ص٧١ س٤-٥): «قدم علينا فاسًا وأخذنا منه. ولد سنة سبعين وأربع مئة»، والصواب الذي ليس فيه ارتياب: «قدم علينا فاسَ، وأخبرني أنه ولد سنة ... إلخ»!

وجاء في ترجمة محمد بن خلف بن صاعد الغَسّاني، أبي الحسن اللّبْلي «أبي القاسم بن النَّحاس»، والصواب: «النخاس» بالخاء المعجمة، وهو مشهور، وقال المؤلِّف الذهبي في «المشتبه» (ص٦٣٣): «وبمُعْجَمة خلق كثير منهم: ... وأبو القاسم خلف بن إبراهيم القرطبي ابن النخَّاس خطيب قرطبة ومقرئها»، وقال ابن الجَزَري في «غاية النهاية» (١/ ٢٧١): «خلف ابن إبراهيم بن خلف بن سعيد الإمام أبو القاسم ابن النخاس القرطبي عُرِف بالحَصَّار، أستاذ رحال ثقة ... ولد سنة سبع وعشرين وأربع مئة، ومات في صفر سنة إحدى عشرة وخمس مئة». وقيّده (المحقِّق) بالحاء المهملة في جميع المواضع التي ورد فيها من نشرته (مثلًا ص٧٥ س٢، وص ٨٣ س٥، ١٠، ١٤، وص٨٩ س٥، وص٩٩ س٤ ... إلخ).

---

(١) إلْكيا الهَرَّاس: علي بن محمد بن علي الطبري، عماد الدين أبو الحسن، الفقيه الشافعي المفسّر المدرّس بالنظامية، من كتبه «أحكام القرآن». توفّي سنة ٥٠٤هـ. وفيات الأعيان ٣/ ٢٨٦. (المجلة).

وجاء في ترجمة محمد بن عبد الله بن البراء، أبي عبد الله البَلَنْسي (ص٧٤ س٨): « فقيه، حافظ، متصرفًا »، والصواب: « متصرف » ولا أدري كيف نصبها!

وجاء في ترجمة محمد بن أحمد بن عبد الرحمن ابن الصَّيْقَل الفِهْري (ص٧٥ س١٠): « روى عنه أبو بكر بن سفيان وعدَّة »، والصواب كما بخطّ المؤلِّف: « وغيرُه ».

وجاء في ص٧٧ س١٠: « محمد بن أبي بكر بن أبي الخليل، أبو بكر التميمي المرّي »، ولم يكن الرجل مريًّا، وإنما هو من أهل المرية، فهو: « المريي ».

وجاء في الترجمة المذكورة (ص٧٧ س١١): « أخذ القراءات بإشبيلية عن سُرَيْج » هكذا بالسين المهملة، وصوابه: « شُرَيْح » بالشِّين المعجمة، وهو شريح بن محمد بن شريح، الإمام أبو الحسن الرُّعَيْني الإشبيلي المقرئ، خطيب إشبيليّة المتوفَّى سنة ٥٣٩هـ، وهو مترجم في الصِّلة البشكوالية (٥٣٥) وتاريخ الإسلام للذهبي ١١/ ٧٠٥ وغيرهما.

وجاء في الترجمة المذكورة أيضًا (ص٧٧ س١٢): « وكان من أهل الفهم والسقط »، ولم يسأل (المحقِّق) نفسه كيف يجتمع « الفهم » و « السقط » في مترجم، والصواب الذي ليس فيه ارتياب كما بخطّ المؤلِّف: « وكان من أهل الفهم والتيقُّظ ».

وجاء في ترجمة محمد بن أحمد بن محمد بن سفيان السلمي المُرْسي (ص٧٨س٤): « توفي إلى سنة سبع وخمسين »، ولم يسأل (المحقِّق) نفسه عن: « توفي إلى » وهل سمع بمثل هذا التعبير في العربية؟ والصواب: « بقي إلى سنة سبع وخمسين ».

وجاء في ترجمة محمد بن عبد الله بن سفيان التُّجِيبي الشَّاطبي (ص٧٨ س٧): « له مجموع في رجال الأندلس » ، والصواب الذي كتبه الذهبي بخطّه: « له مجموعُ رجال الأندلس » .

وجاء في ترجمة محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الداني الأموي (ص٧٩ س٢): « يعرف بابن الشقر » ، والصواب: « الأشقر » .

وجاء في ترجمته أيضًا (ص٧٩ س٥): « توفي سنة سبع وخمسين » ، والصواب: « توفي سنة تسع وخمسين » ، ولو تنبّه إلى أن المترجم الذي قبله توفّي سنة ثمان وخمسين لَعَرف غلَطَه ، فإن الأسماء مرتّبة على الوَفَيات .

ومن طرائف التحريف المتندَّر به أنه ذكر بيتين من الشعر في ترجمة محمد بن إبراهيم بن المنخل المهري الأديب (ص٨٠ س٩-١٠) جعل الشطر الأول من البيت الثاني عجزًا للأول ، وجعل عجز الأول الشطر الأول للبيت الثاني ، وهو صنيع عجيب ، على هذه الصورة:

مضت لي ستٌّ بعد سبعين حِجَّة فيا ليت شعري أين وكيف ومتى
ولي حركات بعدها وسكـون يكون الذي لا بد أن سيكـون

وصوابها كما لا يخفى على المبتدئ:

مضت لي ستٌّ بعد سبعين حِجَّة ولي حركات بعدهـا وسكـون
فيا ليت شعري أين وكيف ومتى يكون الذي لا بد أن سيكـون

وفي هامش الصفحة (٨٠) من طبعته نقل زيادة الذهبي من ابن الزبير على ترجمة محمد بن عبد الحق بن أحمد الخزرجي القرطبي والتي كان يتعين وضعها في المتن ، وأخطأ في قراءتها أخطاء شنيعة حيث جاء فيها: « ولم يتأخر بعده من أصحاب ابن الطّلاع على كثرتهم سوى أربعة: ابن حنين ،

وابن الزمان ، وطباخ الترغني ، وابن خليل » ، ولم يسأل نفسه: مَن ابن الزمان هذا ؟ ومن ذاك الطباخ الترغني؟ ، والصواب: « وابن قُزمان ، وصالح الترغني » .

وجاء في ترجمة محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن فرج المِكْناسي الشاطبي (ص٨١ س٥): « ويتحقق في القراءات سمع براعة الخط » ، والصواب: « مع براعة الخط » .

وفي الترجمة نفسها (ص٨١ س٧): « حدث عنه ... وأبو عمر بن عماد » ، والصواب: « ابن عَيَّاد » .

وجاء في ترجمة محمد بن يوسف بن سعادة المُرْسي (ص٨٥ س١٢): وألَّف كتاب: « شجرة الوهم المرتقية إلى ذروة الفهم » ، والصواب كما بخطّ المؤلِّف: « المترقية » .

ووقعت نسبة محمد بن أحمد بن عبد الرحمن اللَّخْمي (ص٨٦ س١٠): « الطُّرْطُوسي » بالسين المهملة ، والصواب « الطُّرْطُوشي » بالشين المعجَمة .

وجاء في ترجمة المذكور (ص٨٦ س١٤-١٥): « سمع منه الموطأ سنة سبع وخمسين ، وكتب عنه ابن عباد » ، والصواب: « سنة تسع وخمسين ، وكتب عنه ابن عَيَّاد » بالياء آخر الحروف .

وجاء في ترجمة محمد بن عبد الرحيم بن محمد بن الفرج الأنصاري الغرناطي (ص٨٧س٨ -٩): « مكثرًا بتحقيق بالقراءات والفقه ، وشارك في الحديث ... وولي خط الشورى » . فوقع في النص ثلاثة تصحيفات وتحريفات ، فالصواب : « يتحقق بالقراءات والفقه ، ويشارك في الحديث ... وولي خطة الشورى » .

وجاء في ترجمة محمد بن عبد الحق بن أحمد الخزرجي القرطبي (ص٩٠ س١) « يروي عنه ذلك عبد الحق » ، والصواب: « يروي عنه ولدُه عبدُ الحقّ » .

وجاء في ترجمة محمد بن سعيد بن محمد الغسَّاني المالقي (ص٩١ س٧): « وجمع ما لا يحصى من الكتب » ، والصواب: « ما لا ينحصر » .

وفي الترجمة نفسها (ص٩١ س٨): « أبو محمد بن غليون » بالياء آخر الحروف ، والصواب: « غَلْبون » بالباء الموحّدة .

وجاء في ترجمة محمد بن أحمد بن عبيد الله الزاهد (ص٩٤ س٨): « أبو عبد الله بن مجاهد الباجي ؛ لأن أباه كان كثير الغزو » . فأما قوله: « بن مجاهد » فصوابه: « ابن المجاهد » وفرق بين الرسمين ؛ لأن ما كتبه يوحي أنه اسم ، وأما « الباجي » فلا أصل لها بخطّ المؤلِّف ! والعبارة من غيرها مستقيمة ؛ لأن المؤلِّف شرح سبب تسميته بابن المجاهد فقال: لأن أباه كان كثير الغزو ، إضافة إلى أن الرجل إشبيليٌّ .

وجاء في ترجمة محمد بن خير بن عمر بن خليفة اللَّمْتُوني (ص٩٥ س٥): « وكان مكثرًا إلى الغاية يحدّث أنه سمع من رفاقه » فتأمَّلْ هذه القراءة العَوْجاء والعبارة العرجاء ، فالصواب: « وكان مكثرًا إلى الغاية بحيث إنه سمع من رفاقه » !

وفي الترجمة نفسها (ص٩٥ س٦-٧): « ولا يعلم لأحد من طبقه مثله »، وهي عبارة عوجاء أيضًا ، صوابها: « ولا نعلم لأحد من طبقتِهِ مثلَهُ » .

وفي الترجمة نفسها أيضًا (ص٩٥ س٨): « وكان ... واسع المعرفة رضي مأمونًا » ، والصواب: « رضًى » أو « رضًا » .

وأظن أنَّ في ما قدّمنا كفاية للتدليل على فساد هذه الطبعة فسادًا بينًا ، وننصح الأخ الجزائري بالتروّي في العمل ، وعرضه قبل الطبع على مَن يُحسن قراءة النصوص ، إن كان من الراغبين في سلوك طريق التحقيق والتدقيق ، والله الموفق للصَّواب وإليه المرجع والمآب .

* * *

تطور حرود المتن في المخطوطات الإسلامية(*)

لرمضان ششن(**)

ترجمة : طه مصطفى أمين

للمخطوطات الإسلامية أهميةٌ كبيرة ، ليس في محتواها فحسب ، ولكن في ما دُوِّن على حواشي أوراقها من تقاييدَ تتضمّن معلومات مهمّة تتّصل بالتاريخ الثقافي والحضاري ، فقد تشير إلى اسم الناسخ وتاريخ النَّسخ والمكان الذي تم فيه النَّسخ . وقد تشير إلى هوية المُلاك المهتمّين بجمع الكتب ، أو اسم المكتبة التي حُفظ فيها المجلَّد ، ورُبَّما تنصُّ على تصحيحات أُلحقت بالنُّسخة .

وتضفي إجازات السماع والمطالعة مزيدًا من المصداقية على النُّسخة في حالة كونها أجزاء حديثية أو مصنَّفاتٍ تاريخيةً ، وقد يصل الأمر إلى وجود مقتطفات من قصائد أو حِكَم ، أو مأثورات قيِّمة في بدايات المخطوطات أو نهاياتها .

وتتمتع حرود المتن بأهمية خاصة ، فعن طريقها نستطيع أن نعرف متى نُسخ المخطوط ، ومَن ناسخه ، وهل نُسخةٌ ما بخطّ المؤلِّف أم لا . ومن خلالها يمكننا متابعة تاريخ تطور الخطّ ، والحصول على معلومات تتّصل بالنُّسَّاخ ، ومَن منهم من العلماء .

وفي بعض الحالات يُشار إلى تاريخ البدء في تحرير النص ، كما يمكن

(*) نُشر هذا البحث بالفرنسية ضمن كتاب تحت عنوان "Scribes et manuscrits olu Moyen-orient"، أشرف عليه فرانسوا ديروش ، وفرنسيس ريتشارد ، وصدر عن المكتبة الوطنية الفرنسية ، عام ١٩٩٧ .

(**) خبير مخطوطات تركي معروف .

للناسخ أن يشير إلى النُّسخة الأصلية التي اعتمد عليها ، وكذا بقية النُّسخ التي اعتُمد عليها في مقابلة النَّص . وكثيرًا ما نجد ذكرًا للمدارس والمكتبات ، أو أولئك المهتمين بجمع الكتب ، والذين نُسخت لهم النُّسخة ، حتى الأحداث التاريخية المعاصرة لم تخلُ حرود المتن من ذكرها .

وفي معظم الأحيان توضع حرود المتن في نهاية المخطوط على الرغم من أنه في بعض الحالات توضع في صدر المخطوط . ولسوء الحظ فإن جميع المخطوطات لا تحتوي على حرود متن ، سواء لأسباب عارضة كاختفاء الورقة الأخيرة مثلًا ، أو لأن الناسخ لم يكترث بذلك .

وكان لاختيار التقويم الهجري - أساسًا للتقويم - منذ عام ١٦ هـ ، وسرعة الوعي لدى المجتمع الإسلامي بأهمِّيّة التاريخ والتقويم ، ثم الظهور المبكّر لمفهوم نظام الدولة ، دور مهمٌّ في إدخال حرود المتن على النصوص .

١ - ومنذ عصر النبوّة والمسلمون يشيرون إلى التاريخ محسوبًا بالتقويم الهجري في نهاية المعاهدات والرسائل ، وبالإضافة إلى هذه الإشارات نجد في أغلب الأحيان ذكرًا للناسخ . واستخدمت هذه الطريقة قالبًا لحرود المتن . والأمثلة كثيرة :

جاء في ختام المعاهدة التي أبرمها خالد بن الوليد مع أهل الحِيرة (١) :

« كُتب في ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة » .

ونجد في نهاية المعاهدة المبرَمة مع أهل دمشق (٢) :

---

(١) انظر « تاريخ الطبري » طبعة ليد مدبريل (١٨٧٩ - ١٨٩٧) ، صفحة ٢٠٤٤ - ٢٠٤٥ و « الوثائق السياسية » لمحمد حميد الله ، طبعة بيروت ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ، ص ٣١٦ .

(٢) انظر « فتوح البلدان » للبلاذري ، طبعة ليلان ، ص ١٢١ ، ومحمد حميد الله ، المصدر السابق ، ص ٣٧٥ .

« شهد أبو عُبيدة بن الجرَّاح وشُرَحْبِيل ابن حَسَنة وقضاعي بن عامر . وكُتب سنة ثلاث عشرة » .

وفي المعاهدة بين الخليفة عمر بن الخطاب وأهل بيت المقدس [1] :

« شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان ، وكُتب سنة خمس عشرة » .

وعلى نحو ما سبق نجد أيضًا في الاتفاق الذي تمّ بين عبد الله بن أبي السَّرح حاكم مصر وأهل النُّوبة [2] :

« كتبه عمرو بن شُرَحْبِيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين » .

ونذكر أيضًا - على سبيل المثال - نصًّا مماثلًا في خاتمة الاتفاق الذي جرى بين الخليفة علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، لتنصيب حكّام مكلّفين بفضّ النّزاع الدائر بينهما [3] :

« وكُتب يوم الأربعاء لثلاثَ عشرةَ ليلة بقِيت من صفرَ سنةَ سبع وثلاثين » .

هذا وتحتوي بعضُ الوثائق المكتوبة على البَرْدي منذ العصر الأمويّ على تقاييدَ من هذا النوع تؤكّد عَراقةَ هذا التطبيق .

٢ - أمّا المخطوطات القرآنيّة التي وصلت إلينا ، والتي يُقال إنها مبكّرة (قديمة) ، فإنها موضِعُ شكٍّ كبير ، ينسحب على حرود المتن فيها .

---

(١) الطبري ، المصدر السابق ، ص ٢٤٠٥ - ٢٤٠٦ ، محمد حميد الله ، المصدر السابق ، ص ٣٨٠ .

(٢) الطبري ، المصدر السابق ، ص ٢٥٩٣ ، وحميد الله ، ص ٣٩٤ .

(٣) الدينوري « الأخبار الطوال » ، عبد المنعم عامر ، طبعة بفدا ١٩٥٩ ، ص ١٩٦ ، وحميد الله ، المصدر السابق ، ص ٣٩٩ .

وعلى كلٍّ فإن هذه الحرود (المشكوك فيها) تشير إلى أن تلك النُّسخ نسخها الخليفة عثمان بن عفان أو علي بن أبي طالب ، (مخطوطة إستانبول ١٤٧ ، ومخطوطة طوبقبوسراي أمانت هزنس ٢٠٨) .

ولدينا مخطوطة محفوظة بإستانبول (٤٤ طوبقبوسراي - أمانة خزينة) كُتبت بالخطّ المدوّر ، فيها حرد المتن التالي :

« كمل المصحف بحمد الله تعالى وحُسن عونه ، وذلك بمدينة القيروان مهّدها الله تعالى ، على يد عبده المعتصم بحبله خَديج بن معاوية بن سلمة الأنصاري للأمير عُقْبة بن نافع سنة سبع وأربعين » .

وإذا ما صحَّ هذا الحرد ، فإن النسخة التي نتكلم على حردها - وهي نسخة خزائنية مذهّبة - تكون ضاربة في القِدَم .

ونجد نظيرًا للمخطوطة السابقة مخطوطة أخرى لمصحف تجميع (Emanet Hazines) ، دُوِّن عليها تاريخ أحدث ، وهو يتوافق مع النسخة الأصل ، ونَصُّ هذا الحرد :

« كتبه عُقْبة بن عامر في أواخر سنة اثنتين وخمسين » .

٣ - وثمة حرد متن آخر لمخطوطة محفوظة بإستانبول (مكتبة الجامعة A ٦٧٥٣) ، يتوافق مع نسخة للقرآن بالخطّ المغربي (شكل رقم ١) . ويشير النص الكامل [لهذا الحرد] إلى تاريخ ٢٣٨هـ / ٨٥٢م ؛ ويحدد كذلك الشهر ، وتاريخ اليوم ، وكذا اسم الناسخ :

« كملت الختمة المباركة بحمد الله تعالى وحُسن عونه وتوفيقه الجميل . وكان الفراغ منها يوم الأحد عند الزَّوال بعد ما خلا من شهر الله شعبان ستة عشر يومًا عام ثمانية وثلاثين ومائتين ، على يد كاتبه العبد الحقير الذليل

المُقرّ بذنبه المستحي بذكر نفسه محمد بن أفيلان المغربي ، غفر الله له . اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولإخواننا ولأجدادنا . . . .

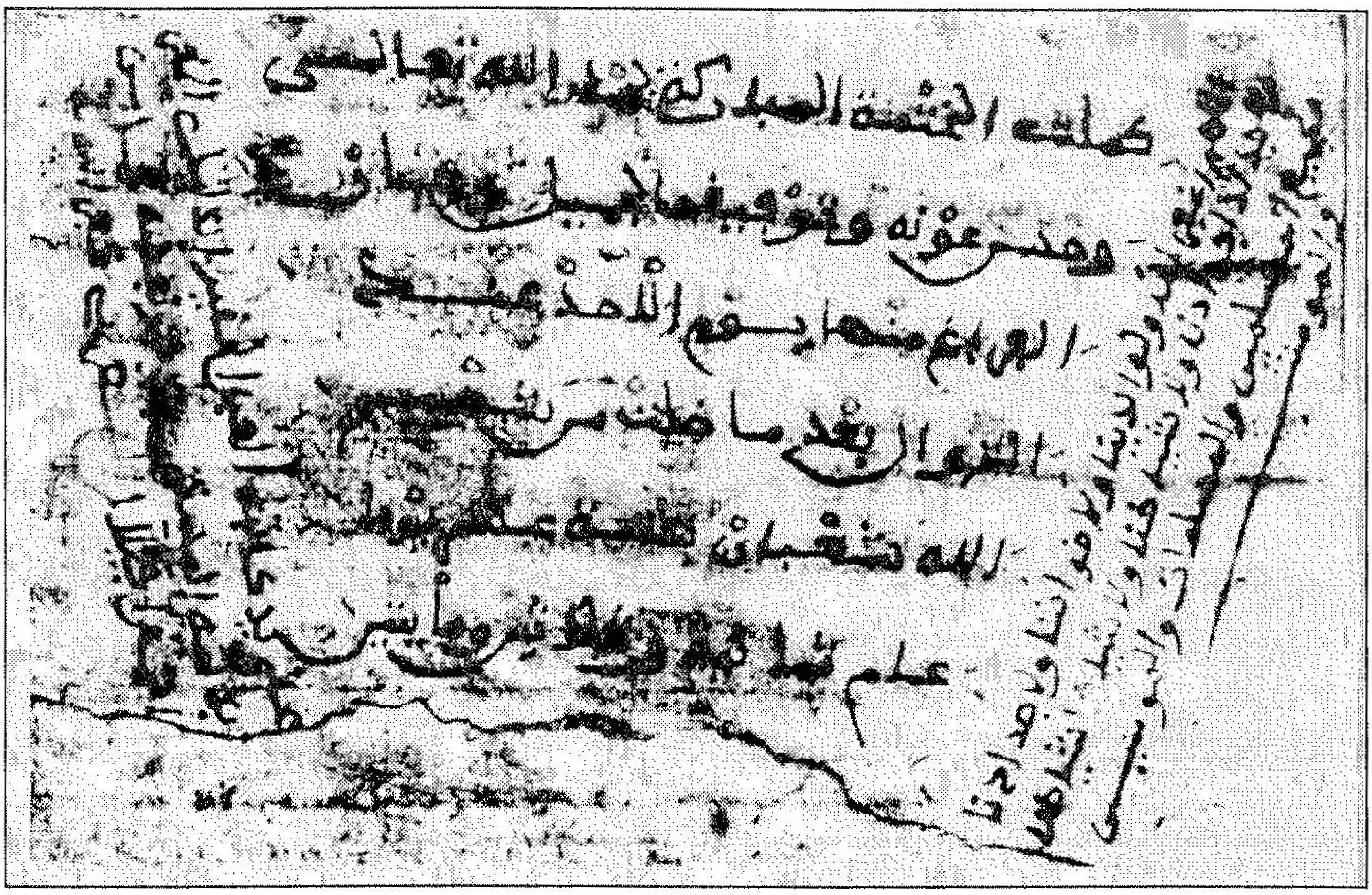

شكل رقم (١) حرد متن مخطوطة رقم ٦٧٥٣ ، مكتبة الجامعة ، إستانبول

٤ - ولا يعني ما سبق أنه ليست لدينا حرود متن ثابتة الصحة ، ففي مكتبة ولي الدين أفندي نسخة مكتوبة على الرّق لكتاب « المأثور في ما اتفق لفظه واختلف معناه » لأبي العَمَيْثل الأعرابي ، رقمها ٣١٣٩ [1] ، ربما تعدُّ الأكثر قِدمًا ضمن المخطوطات المحفوظة في إستانبول ، بغض النظر عن المخطوطات القرآنية . ونَصّ هذا الحرد على ما يلي :

« تم الكتاب المأثور عن أبي العَمَيْثل الأعرابي الشاعر صاحب عبد الله

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (S.I) ، ص ١٩٥ ، « خصائص الخطّ الأربع » ، مخطوطات من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، فرنسوا ديروش « مخطوطات القرون » .

ابن طاهر . وكتب أبو الجهم وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، في شهر ربيع الآخِر من سنة ثمانين ومائتين » .

وتحمل أقدمُ مخطوطة ورقية حَرْدَ مَتْن مؤرَّخ سنة ٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م ، وهي نسخة من كتاب « غريب الحديث » [١] لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي ، المتوفَّى ٢٤٤هـ / ٨٣٨م ، وتحتفظ بها مكتبة جامعة ليدن برقم ٢٨٩ .

٥ – أما في إستانبول فإن أقدم مخطوطة ورقية تحمل حرد متن هي نسخة كتاب « المدخل الكبير إلى علم أحكام النجوم » لأبي معشر البَلْخي ، المتوفَّى ٢٧٢هـ / ٨٨٦م [٢] ، وهي المخطوطة رقم ١٥٠٨ ، مكتبة جار الله أفندي :

« كتبه إسحاق بن محمد بن يعقوب بن إسحاق ، وفرغ من كتابته في شهر صفر سنة سبع وعشرين وثلاثمائة » .

وترجع سلسلة حرود المتن التالية إلى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي .

٦ – « المقتضب في النحو » [٣] للمبرّد ، المتوفَّى ٢٨٥ هـ / ٨٩٩ م ، (مخطوطة رقم ١٥٠٧ – ١٥٠٨) ، مكتبة كوبريلي بإستانبول (شكل رقم ٢).

« كتبه مُهَلْهِل بن أحمد ببغداد سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ، وهو يسأل الله العفو والعافية ... » .

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١ / ١٠٧ (S.I) ١٦٦ .

(٢) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (S.I) ٣٩٥ .

(٣) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (S.I) ١٦٩ ، رمضان ششن ، جواد أزكي ، جميل أفكنار « فهرس مخطوظات مكتبة كوبريلي إستانبول » ، ص ١٧٣ .

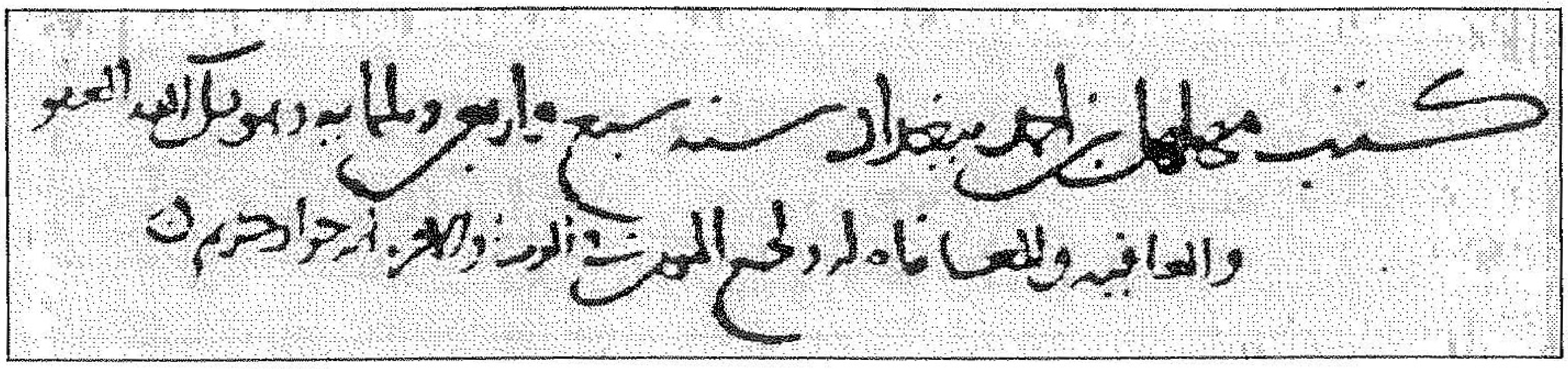

شكل رقم (٢) حرد متن مخطوطة رقم ١٥٠٧ ، مكتبة كوبريلي ، إستانبول

٧ - « الجمهرة في اللغة »(١) لابن دُرَيْد ، المتوفَّى ٣٢١ هـ / ٩٤٣م ، مخطوطة رقم (١٥٤١) ، مكتبة كوبريلي بإستانبول : « وكُتب سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة » .

٨ - « معاني القرآن » للزَّجَّاج ، المتوفَّى ٣١١هـ/ ٩٢٣م - المجلَّد الثاني(٢) ، مخطوطة رقم (٤٤) ، مكتبة جار الله بإستانبول : « آخر كتاب القرآن (هكذا) عن الزَّجَّاج ، وكتب عبد العزيز بن حيان بخطّه في شهور سنة ثمان وثلاثمائة ، من نسخة القاضي أبي سعيد الحسن بن عبد الله السّيرافي » .

٩ - « آلات السّاعات التي تُسمى رخمات »(٣) (شكل رقم ٣ ، وشكل رقم ٤) لثابت بن قرَّة ، المتوفَّى ٢٨٨هـ / ٩٠١ م ، مخطوطة رقم (٩٤٨) ، مكتبة كوبريلي بإستانبول : « نَسَختُ جميع ذلك من دستور أبي الحسن ثابت ابن قرَّة رضي الله عنه الذي بخطّه . وكتب إبراهيم بن هلال بن إبراهيم ابن زَهْرون في ذي الحجة سنة سبعين وثلاثمائة ، قابلت الدُّسْتور وصحَّ ولله الشكر » .

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (S.I) ١٩٣ ، « فهرس محفوظات مكتبة كوبريلي إستانبول » ، ج ٢ ، ص ١٨٨ .
(٢) تاريخ الأدب العربي (S.I) ، ص ١٧٠ (شكل رقم ٢) .
(٣) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (S.I) ٣٨٥ ، « فهرس محفوظات مكتبة كوبريلي إستانبول » ، ص ٤٨١ - ٤٨٢ .

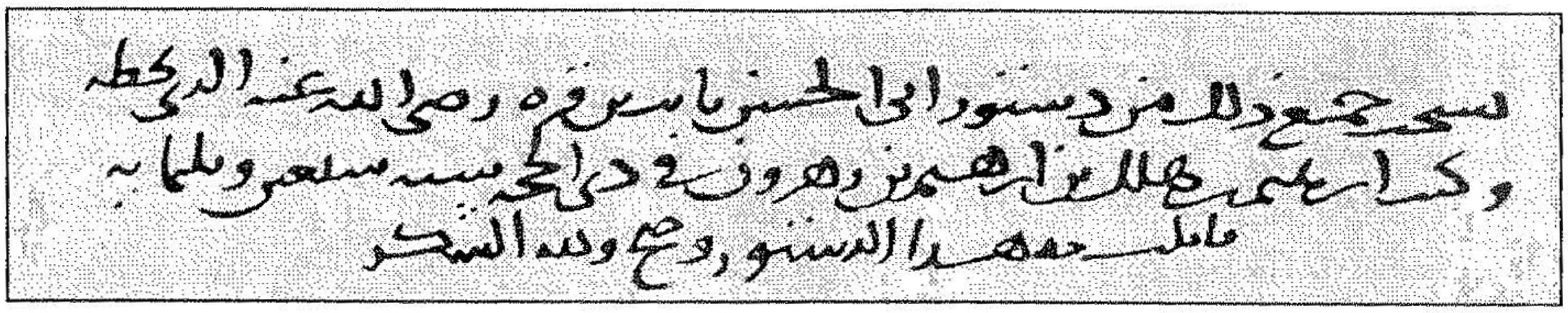

شكل رقم (٣) حرد متن مخطوطة رقم ٩٤٨ ، مكتبة كوبريلي ، إستانبول

شكل رقم (٤) حرد متن آخر لمخطوطة سابقة

١٠ - « معاني القرآن » للزَّجَّاج ، المتوفَّى ٣١١هـ/ ٩٢٣م - المجلَّد الثاني[١] ، مخطوطة رقم (٤٣) ، مكتبة كوبريلي بإستانبول (شكل رقم ٥) :

« ابتدأ أبو إسحاق إبراهيم بن السّرّي النَّحوي الزَّجَّاج في إملاء هذا الكتاب في صفر من سنة خمس وثمانين ومائتين ، وأتمه في شهر ربيع الأول من سنة إحدى وثلاثمائة . وكُتب في دمشق في جمادى الأولى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، رحم الله مَن دعا لكاتبه » .

وتشير هذه الحرود جميعًا باستثناء حرد متن واحد إلى اسم الناسخ ، وتاريخِ إتمام العمل محدَّدًا بالشهر ، وربما تاريخ اليوم (مصادفة) . وفي حالتين اثنتين ذَكَرَ الناسخ اسم المدينة التي أتم فيها عمله . وأشارت ثلاثة حرود متن إلى النُّسخة الأصلية التي اعتُمد عليها . وفي الحرد الأخير نجد أن تاريخ تأليف الكتاب قد أُعيد ثانية في ما قام به إبراهيم بن هلال الصابي عندما نَسخَ حرد متن لناسخ قبله (شكل رقم ٣) .

(١) فهرس مخطوظات مكتبة كوبريلي ، الجزء الأول ، ص ٤٥ - ٤٦ .

وفي القرون اللاحقة أُدخلت عناصر جديدة على حرود المتن ، نلحظ ذلك في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وقد جمعنا حرود المتن التالية التي تمثله:

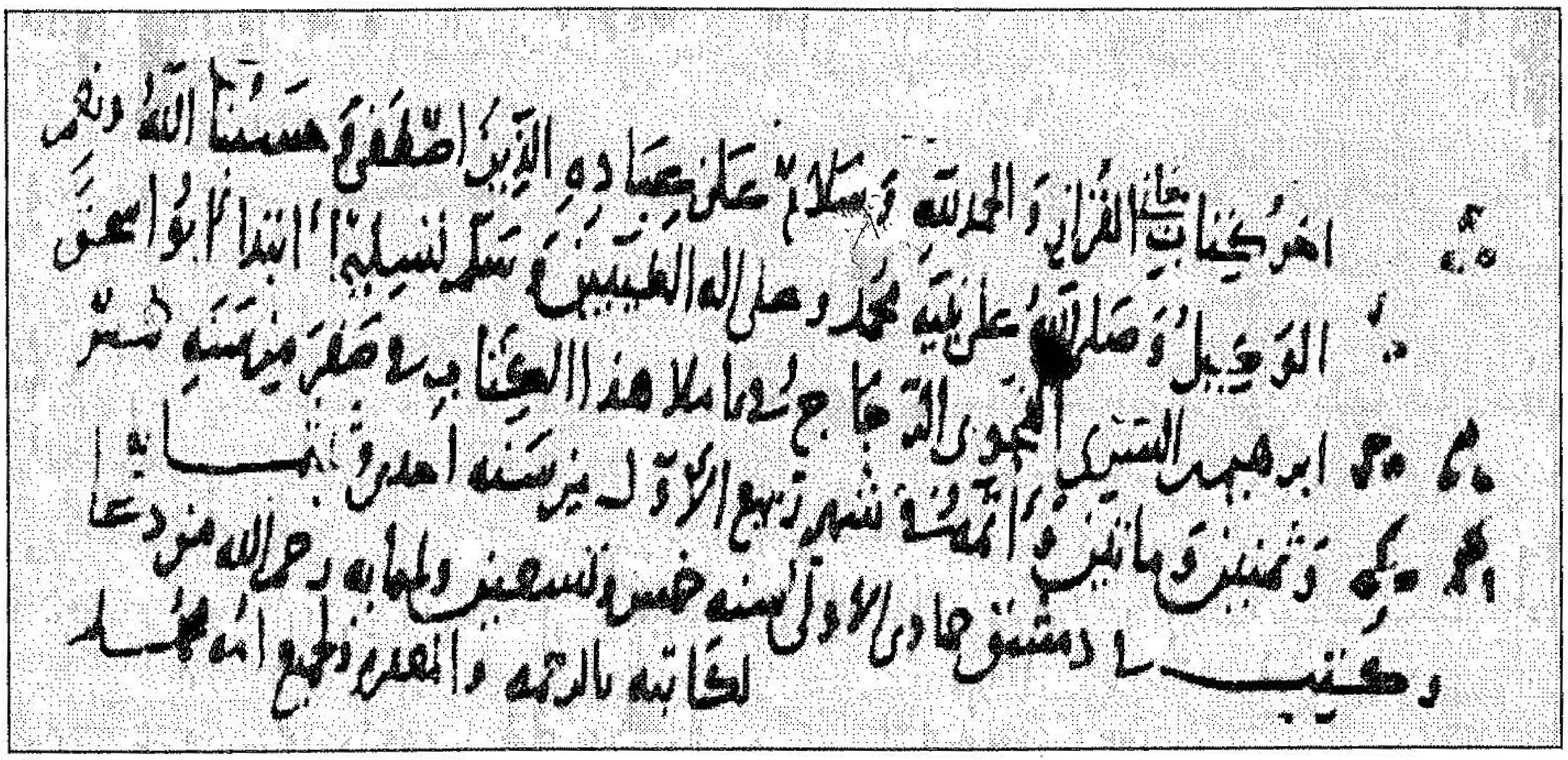

شكل رقم (٥) حرد متن مخطوطة رقم ٤٣ ، مكتبة كوبريلي ، إستانبول

١١ - « الحُجة في القراءات السبعة » لأبي علي الفارسي ، المتوفَّى ٣٧٧هـ / ٩٨٧م - المجلَّد الأول [1] ، مخطوطة رقم ٦ ، مكتبة مراد ملا [منلا] بإستانبول :

« آخر الجزء الأول والحمد لله كثيرًا . بمصر في شوال سنة سبع ، ويتلوه في الجزء الثاني ... » .

وتتيح لنا صفحة العنوان معرفة اسم الناسخ طاهر بن غَلْبون النحوي المصري .

١٢ - « الحُجّة في القراءات السبعة » - المجلَّد الرابع ، مخطوطة رقم ٩ ، مكتبة مراد ملا بإستانبول :

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (S.I) ، ص ١٧٦ .

« تم الجزء الرابع وهو آخر كتاب الحُجّة ، والحمد لله رب العالمين ، في المحرم يوم عاشوراء من سنة ثمان وعشرين وأربعمائة » .

١٣ - « إصلاح المنطق » [1] لابن السِّكِّيت ، المتوفَّى ٢٤٣ هـ / ٨٥٧ م ، مخطوطة رقم ١ / ١٢٥٩ ، مكتبة كوبريلي بإستانبول (شكل رقم ٦) :

« فرغ من نسخه علي بن عبيد الله الشّيرازي ، في يوم الاثنين الثاني عشر من شعبان سنة سبع وأربعين وأربعمائة ماه آذر روز شهرير ... قوبل بالأصل وصُحّح ، ثم قوبل مرة أخرى بنسخة عراقية على ظهرها خطّ عبد السلام بن الحسين البصري بروايات عدة ، وصحّ . وكان في آخر الأصل بخطّ عبد السلام بن الحسين : قرأت هذه الكراسة وأصلحته ... وذلك يوم السبت التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخِر سنة خمس وثمانين وثلاثمائة » .

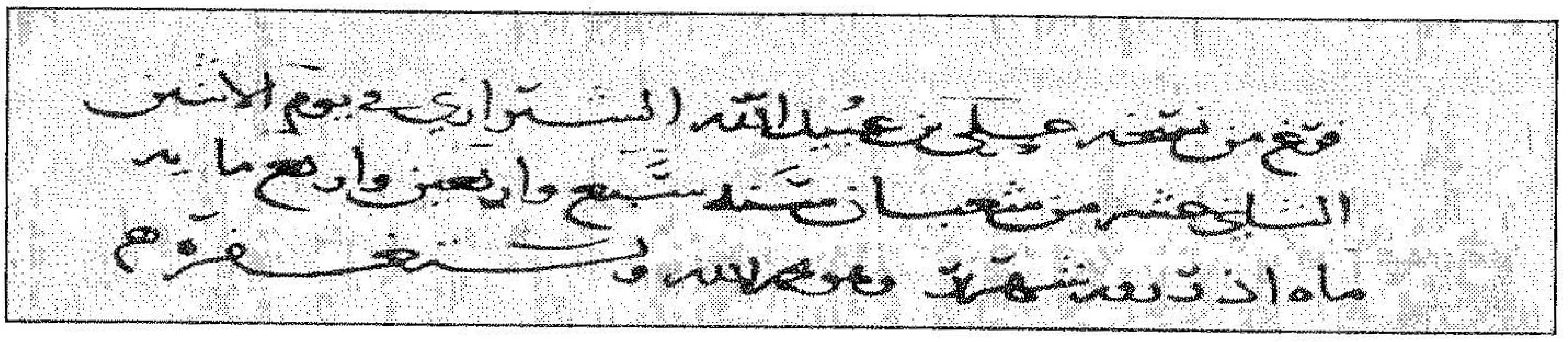

شكل رقم (٦) حرد متن مخطوطة رقم ١/ ١٢٠٩ ، مكتبة كوبريلي ، إستانبول

١٤ - وتحت الرقم نفسه يوجد كتاب « النوادر » لابن مِسْحَل ، نَسَخُه علي بن عبيد الله الشِّيرازي :

« وقع الفراغ منه يوم الاثنين الثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة ٤٤٧ هـ تمزماه تيروز وزماه » .

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (S.I) ١٨٠ ، وفهرس المخطوطات العربية بمكتبة كوبريلي ، ج ٢ ، ص ١٢ .

ومن بين هذه الحرود الأربعة نجد أن حرد المتن الموجود في نهاية نسخة كتاب الحُجّة في القراءات السبعة لأبي علي الفارسي - رقم ٩ بمكتبة مراد ملا بإستانبول - يشير إلى تاريخ اليوم والشهر والسنة ، على حين أُضيف اسم الناسخ لاحقًا بيدٍ آخَرَ في صدر المجلَّد .

ونلحظ أن حرود المتن قد تطورت بشكل مقبول كما هو الحال في نهاية نسخة « إصلاح المنطق » لابن السِّكِّيت ، فقد أشار الناسخ إلى اسمه وتاريخ اليوم والشهر والسنة طبقًا للتقويم الهجري ، وما يقابله بالفارسي ، وأشار أيضًا إلى النُّسخ المستخدَمة في مقابَلة النص ، وكذلك مميزات إحداها . على أنَّ حرد المتن الذي اختُتم به الجزء الثاني من هذا المجلَّد مختصر جدًّا ، وأكمل على صفحة العنوان بقيد مطالعة يشير إلى أن النُّسخة حررت على نسخة أخرى قرأها ابن خالَوَيْه المتوفَّى ٩٨٠م ، وعبد الله بن بلبل تلميذ أبي العباس ثَعْلب المتوفَّى ٢٩١هـ/ ٩٠٤م .

وسنعرض بعض الأمثلة التي توضح بعض الاتجاهات المقيدة في حرود المتن في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي :

١٥ - « تحرير هندسة أقليدس » [١] لأبي القاسم علي بن إسماعيل النيسابوري ، مخطوطة ١ / ١٢٣٠ ، مكتبة راشد أفندي بإستانبول :

« كتبه عبد الجليل بن عبد الجبار بن محمد بن أحمد ، بتاريخ سلخ ربيع الأول سنة تسع وعشرين وخمسمائة . عارضتُ هذه النُّسخة بالنُّسخة التي انتُسخت منها، وهي نسخة الأصل بخطّ المصنّف، بحسب الطاقة والإمكان.

(١) نوادر المخطوطات العربية في مكتبات تركيا لرمضان ششن . بيروت ١٩٧٥ - ١٩٨٢ ، ج١ ، ص ٢٨١ .

١٦ - « كتاب الدلائل » (١) لأبي الحسن بن سهل [بهلول] ، المتوفَّى (٣٢٠هـ / ٩٣٢م) ، مخطوطة رقم ١ / ٥٧٢ ، مكتبة حكيم أوغلي بإستانبول :

« ووقع الفراغ من كتابته في العشر الأوسط من جُمادى الأولى من سنة ستٍّ وخمسين لخزانة موفّق الدولة ... شرف الحكماء أبي علي الحسن بن عيسى النَّجْمي » .

١٧ - « زاد المسير في علم التفسير » (٢) لابن الجوزي ، المتوفَّى ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م ، مخطوطة رقم ٤٣ ، مكتب تيرة ونجيب باشا :

« فرغ من نسخه في يوم الأحد رابع عشرين ربيع الأول سنة أحد (كذا) وسبعين وخمسمائة . كتبه والمجلَّد الذي بعده الفقير عبد العزيز بن دُلَف بن أبي طالب الجبار » .

١٨ - « كتاب النَّجاة » (٣) لابن سينا ، المتوفَّى (٤٢٨هـ / ١٠٣٧م) ، مخطوطة رقم ١٤١٠ ، مكتبة مراد ملا بإستانبول :

« كتبها رضوان بن محمد بن على الخراساني المعروف بابن الساعاتي في شهور سنة ثمانية وسبعين وخمسمائة . بلغت قراءة وعِراضًا وتصحيحًا ، وانتهت القراءة في جمادى الأولى سنة ٥٨٩هـ ، وعُورِض مرارًا ، وصَحّت بقدر الاجتهاد والطاقة ... وبلغت عِراضًا بالنُّسخة المقروءة على المصنّف ... وخطّه عليها بالإجازة » .

(١) المصدر السابق ، ص ٤٣١ .

(٢) رمضان ششن ، المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٣) رمضان ششن ، المصدر السابق ، ص ١١٧ .

١٩ - « كتاب البيان والتبيين »[١] للجاحظ ، المتوفَّى (٢٥٥هـ/ ٨٦٩م) ، مخطوطة رقم ١٥٨٠ ، مكتبة فيض الله أفندي بإستانبول :

« تم الكتاب وذلك عشيّ يوم الأربعاء الثامن والعشرين من ذي القعدة سنة سبع وثمانين وخمسمائة في آخر السِّفْر الذي نَسخت منه الثُّلث الثَّالث من هذا الكتاب : كتب هذا السِّفْر ، وهو مشتمل على جميع كتاب البيان والتبيين من نسخة أبي جعفر البغدادي ، وهي النُّسخة الكاملة ، فتمّ بعون الله وتأييده في غرّة ربيع الآخِر من سنة سبع وأربعين وثلاثمائة » .

« كتبه لنفسه بخطّه محمد بن يوسف بن محمد بن يوسف بن محمد بن يوسف بن حجاج بن يوسف بن زهير اللَّخْمي » .

٢٠ - « شرح مقدّمة أبي جعفر العَبْدلي »[٢] لأبي جعفر الطُّوسي ، المتوفَّى ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٧ ، مخطوطة رقم ١ / ١٣٣٨ ، مكتبة عاطف أفندي بإستانبول :

« فرغ من نِساخة هذا الكتاب الفقير ... سليمان بن مسعود بن علي بن سعيد بن عبد الله المؤمّل [الهومل] في العشر الأخير من شهر صفر من شهور سنة تسعين وخمسمائة ... كمل قَصاصة ومعارضة على الأصل المنقول منه ، يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة من شهر ربيع الآخِر من شهور سنة تسعين وخمسمائة » .

وهذه الحرود تحتوي على الإشارات الأساسية (مثل اسم الناسخ وتاريخ النُّسخة) . ونجد في مخطوطة مكتبة فيض الله أفندي رقم ١٥٨٠ أن

(١) رمضان ششن ، المصدر السابق ، ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢) رمضان ششن : « نوادر المخطوطات العربية » ، ج ١ ، ص ٢٤٤ .

الناسخ قد سجّل اسمه على صفحة العنوان . وفي ثلاثة منها ذكر مستكتبَ النُّسخة ، وفي أربعة منها ذكر أن النص قد قُوبل على بعض النُّسَخ مع تحديد النُّسَخ التي استخدمت أصولًا ، وكذلك تاريخ المقابلة .

ومن القرن التالي [السابع الهجري] نذكر التقييدات التالية :

٢١ - « مختصر نهاية الأمل في علم الجدَل » [١] لأبي المعمار (من رجال القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) ، مخطوطة رقم ٢٤٢١ ، مكتبة عاطف أفندي بإستانبول :

« نسخ هذه النُّسخة من نسخة المصنّف وهو كمال الدين بن المعمار ... في شهر رمضان سنة خمس وستّمائة ، على يد ياقوت بن عبد الله غلام علي ابن محمد بن حامد الصَّنْعاني الهمداني » .

٢٢ - « شرح ديوان المتنبي » [٢] لابن جنّي ، المتوفَّى (٣٩٢ هـ / ١٠٠٢م) ، مخطوطة رقم ٧٥٠٦ ، مكتبة يوسف أغا بإستانبول :

« وافق الفراغ منه يوم الأربعاء رابع عشر جُمادى الأولى من سنة خمس عشرة وستّمائة ، على يد الفقير ... يوسف بن علي بن يسن بن الحسن بن إبراهيم ... من نسخة عليها خطّ ابن جنّي » .

٢٣ - « كتاب القوافي » [٣] لابن الأردخل ، المتوفَّى (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) ، مخطوطة رقم ٢ / ١٥٥ ، مكتبة أيوب حاجي بشير أغا بإستانبول :

---

(١) رمضان ششن ، المصدر السابق ، ص ١٨٣ - ١٨٤ .

(٢) رمضان ششن ، المصدر السابق ، ص ٥٣ .

(٣) رمضان ششن ، المصدر السابق ، ص ٣٣ .

« وافق الفراغ يوم الأحد سابع جُمادى الأولى من سنة اثنتين وثلاثين وستّمائة للهجرة ... بعينتاب المحروسة ... ونقلته من نسخة بخطّي قرأتها على مؤلّفه المذكور ... وفي آخرها وافق فراغه يوم الخميس الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة خمس وعشرين وستمائة بمَيّا فارِقِين » .

٢٤ - « زُبْدة الأسرار »(١) لأثير الدين الأبهري ، المتوفَّى ٦٣٣ هـ / ١٢٦٥م ، مخطوطة رقم ١٦١٨ ، مكتبة كوبريلي بإستانبول :

« نقله من نسخة الأصل علي بن عمر بن علي القزويني لنفسه ، في الخامس عشرين شوال سنة سبع وعشرين وستّمائة » .

٢٥ - « كشف الحقائق في تحرير الدقائق »(٢) لأثير الدين الأبهري ، مخطوطة رقم ١٤٣٦ ، مكتبة جار الله أفندي بإستانبول (شكل رقم ٧) :

« تم جميع الكتاب ، ووافق الفراغ منه يوم الاثنين الأول من شهر ربيع الآخِر سنة أربع وسبعين وستّمائة بالقاهرة من نسخة نسخها بخطّه لنفسه ... شمس الدين محمد بن محمود الأصفهاني ... وكان نسخه أيامًا من نسخة منسوخة من الأصل . وكان فراغه ... من نسخها عشية يوم الجمعة ثاني عشر رمضان المعظّم سنة ستٍّ وأربعين وستمائة ، وهو مقيم ببغدادٍ بالمدرسة الشرقية ... قال : قرأت هذا الكتاب على مصنّفه وصَحِبْتُه مدة ، وسافرتُ في صُحْبته من الروم إلى الموصل ... » .

(١) رمضان ششن ، المصدر السابق ، ص ٣٠٨ ، « فهرس المخطوطات » مكتبة كوبريلي ، ج٢ ، ص ٣٧٠ .

(٢) رمضان ششن ، المصدر السابق ، ص ٣٠٩ .

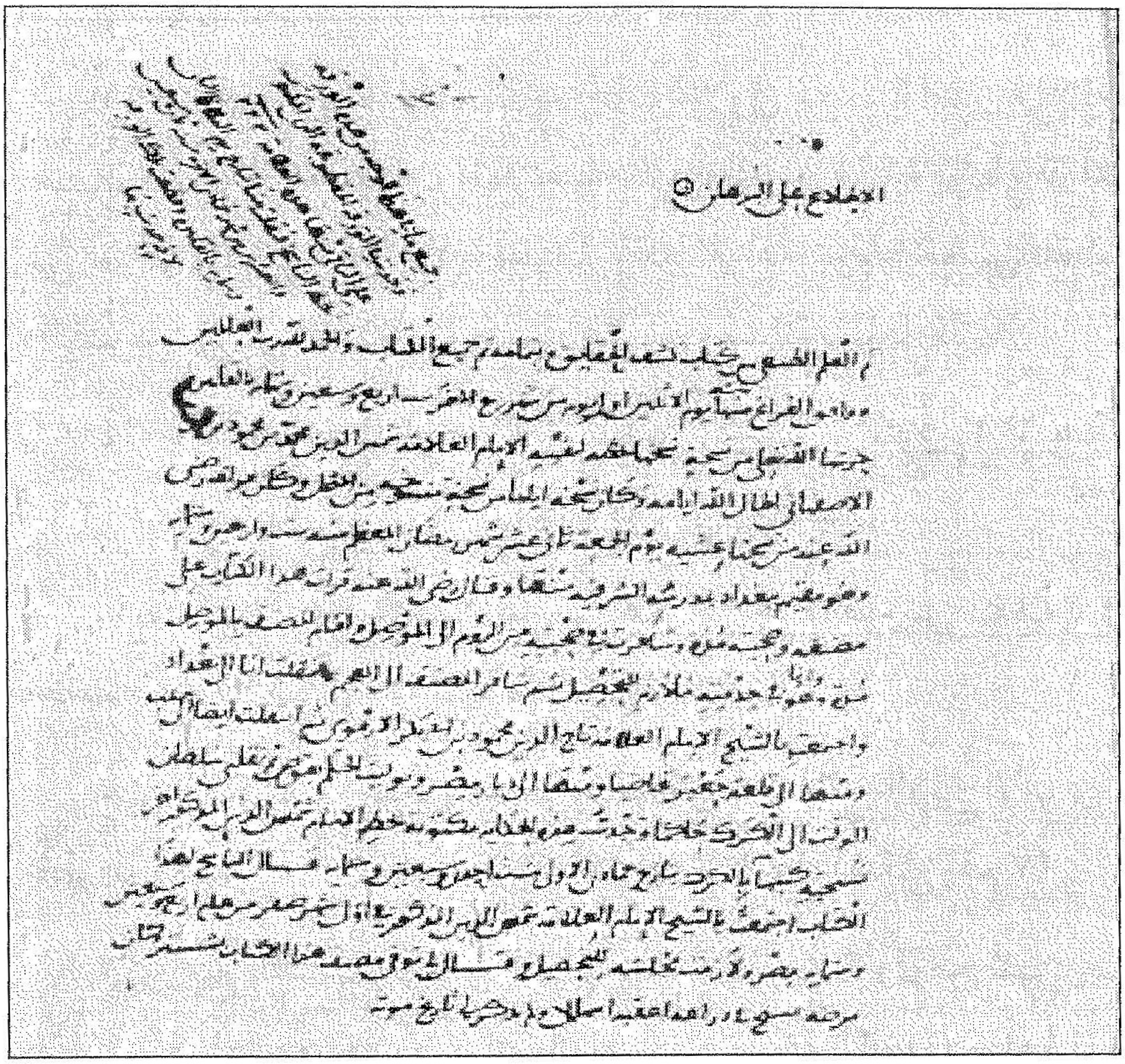

شكل رقم (٧) حرد متن مخطوطة رقم ١٤٣٦ ، مكتبة جار الله أفندي سليمانية ، إستانبول

٢٦ - « كتاب علم الساعات والعمل بها » [١] لرضوان بن محمد بن الساعاتي ، المتوفَّى ٦٢٧ هـ / ١٢٣١م ، مخطوطة رقم ٩٤٩ ، مكتبة كوبريلي بإستانبول (شكل رقم ٨) :

« وكان فراغي من تهذيب الكتاب وتصنيفه وإيضاحه في محرَّم سنة ستّمائة للهجرة ... وكتب رضوان بن محمد الخراساني ... هكذا كان مكتوبًا

---

(١) تاريخ الأدب العربي (S.I) ص ٨٦٦ ، رمضان ششن : « فهرس المخطوطات مكتبة كوبريلي » ، ج ١ ، ص ٤٨٢ - ٤٨٣.

في النُّسخة التي كُتبت هذه الرسالة منها ، وهو خطُّ المصنّف . وكتبها بيلك ابن عبد الله القَبْجاقي لنفسه بمدينة القاهرة بالديار المصرية ، في مستهل شهر جُمادى الأولى من سنة ثمان وخمسين وستّمائة هجرية والرابع عشر من شهر نيسان سنة ألف وخمسمائة وأحد وسبعين للإسكندر ... قال بيلك بن عبد الله القبجاقي : قد كان المصنف لهذه الرسالة عالمًا بها متفنّنًا في عمل الساعات إلا أنه كان ليس قادرًا في العبارة قليلَ المعرفة بطرق التصنيف ، قليلَ المعرفة بالعربية » .

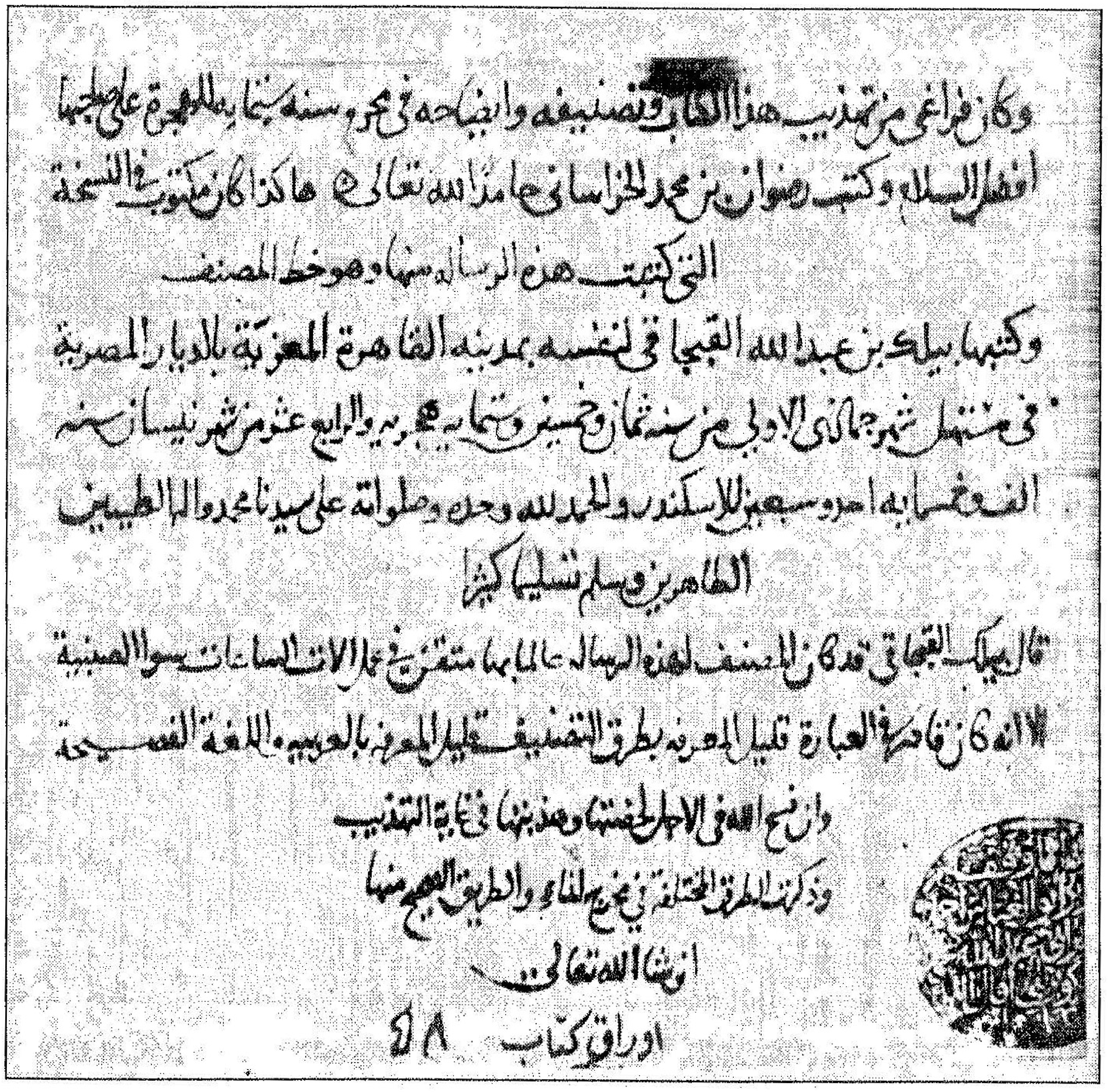
وكان فراغي من تهذيب هذا الكتاب وتصنيفه وابيضاده في محرم سنة ستمائة للهجرة على صاحبها
أفضل السلام وكتب رضوان بن محمد الخراساني عامله الله تعالى ... هكذا كان مكتوبا في النسخة
التي كتبت هذه الرسالة منها وهو خط المصنف
وكتبها بيلك بن عبد الله القبجاقي لنفسه بمدينة القاهرة المعزية بالديار المصرية
في مستهل شهر جمادى الأولى من سنة ثمان وخمسين وستمائة هجرية والرابع عشر من شهر نيسان سنة
ألف وخمسمائة وأحد وسبعين للإسكندر والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين وسلم تسليما كثيرا
قال بيلك القبجاقي قد كان المصنف لهذه الرسالة عالما بها متفننا في عمل الآلات الساعات سوا الصينية
إلا أنه كان قاصرا في العبارة قليل المعرفة بطرق التصنيف قليل المعرفة بالعربية اللغة الفصيحة
وإن فسح الله في الأجل لخصتها وهذبتها في غاية التهذيب
وذكرت الطرق المختلفة في تخريج المائي والطريق الصحيح منها
إن شاء الله تعالى
أوراق كتاب ٤٨

شكل رقم (٨) حرد متن مخطوطة رقم ٩٤٩ ، مكتبة كوبريلي ، إستانبول

٢٧ - « القانون الواضح في معالجات الجوارح » [1] لبغدي بن علي بن قَشْتَمُرَ التركي ، المتوفَّى ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م ، مخطوطة رقم ٩٧٨ ، مكتبة كوبريلي بإستانبول :

« تم كتابة القانون الواضح في معالجة الجوارح . وكان ابتداؤه ... من قدوة العلماء بغدي بن علي بن قَشْتَمُرَ... في إملاء هذا الكتاب في مدة شهر واحد وهو شوال من سنة ست وستين وستمائة من مستهلّه إلى سَلْخه ، ابتدأت بكتابة البياض في غُرَّة ذي القعدة إلى منتصفه من هذه السنة . وكتب عبد الرزاق بن أحمد بن محمد بن أبي المعالي المعروف بابن الفُوَطِي البغدادي بمحروسة مراغةَ . قُرِئ هذا الكتاب المبارك على مصنّفه الأمير الكبير فخر الدين بغدي بن السعيد شرف الدين علي بن السعيد جمال الدين قَشْتَمُرَ ، سقي ضريحهما صوبُ المغفرة ... وذلك في ثالث عشر صفر المبارك من سنة سبع وستّين وستّمائة ... فبَلَغ صحّةً وقراءة » .

٢٨ - « المجالس الأربعين » [2] لعبد الرحمن بن سعد الدين القزويني (القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) ، مخطوطة رقم ٤١٠bis ، مكتبة جار الله بإستانبول :

« تم نقلًا من نسخة مؤلِّفه ... أقضى القضاة سعد الدين ... القزويني الكَرَجي ، على يد يوسف بن عمر بن أحمد بن محمد الأردبيلي ، يوم الاثنين ١ من ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، في دار الحصص أنكورية المحروسة في المدرسة السُّلطانية » .

---

(١) فهرس مخطوطات كوبريلي ١ / ٤٩٧ - ٤٩٨ ، رمضان ششن ، جواد أزكي ، جميل أفنكار « فهرس مخطوطات الطب الإسلامي » ، E إحسان أوغلي ، طبعة إستانبول .
IRCICA, 1984 n 121 C. LZGI "Turk hayvan blimicisi Kustemirogle Bogdu Bey ve av Kuslarinun bakimi Konusundali Kitabi" Halk Kulturu v 1985 P 59-71.

(٢) رمضان ششن : « نوادر المخطوطات ... » ، ج ٢ ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

٢٩ - « نهاية الإدراك في دراية الأفلاك » [١] لقطب الدين الشيرازي ، المتوفَّى (٧١٠هـ / ١٣١٠م) ، مخطوطة رقم ٩٥٦ ، مكتبة كوبريلي بإستانبول :

« فرغ المصنف ... من تأليفه ليلة النصف من شعبان سنة ثمانٍ وستمائة ، [وفرغ] الكاتب ... من كتابته لنفسه نقلًا من نسخة الأصل للمصنّف ، ومن قراءته عليه في أوائل محرم سنة ثلاث وثمانين وستمائة بمدينة سِيواس في المدرسة الصَّاحبية الشَّمْسية . ووقع الفراغ من العرض والمقابلة مع المصنّف بنسخته وقراءته في عاشر شوال ثلاث وثمانين وستمائة » .

٣٠ - « شرح فصول بقراط » [٢] لابن النَّفيس ، المتوفَّى ٦٨٧هـ / ١٢٨٨ م ، مخطوطة رقم ٩٦٨ ، مكتبة كوبريلي بإستانبول :

« نقل هذا الكتاب من نسخة نُقلت من خطّ مصنّفه ... وكان الفراغ منه عشية نهار يوم السبت الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة سنة سبع وتسعين وستمائة بمدينة القاهرة المحروسة . علّقه لنفسه العبد يوحنا بن إبراهيم المسيحي » .

وتتميز حرود المتن في تلك الفترة بكثرة التفصيلات ؛ فبالإضافة إلى المعطَيات الأساسية [مثل اسم الناسخ وتاريخ النسخ] . نجد كثيرًا إشاراتٍ إلى النُّسخة الأصلية ، وإلى مقابَلة النُّسَخ ، ومَنْ كُتبت له النسخة ، وكذلك مكان النَّسخ . وفي نهاية الكثير من هذه المخطوطات نجد أيضًا قيودًا للمطالعة وإيضاحات عن المؤلف ، فحَرْد متن المخطوطة رقم ١٤٣٦ ، مكتبة جار الله بإستانبول ، يشتمل على سيرة ذاتية للأبهري

(١) تاريخ الأدب العربي (S.I) ص ٢٩٦ ، « فهرس مخطوطات كوبريلي » ج ١ ، ص ٤٨٦ .
(٢) تاريخ الأدب العربي (S.I) ص ٨٩٩ ، رمضان ششن : « فهرس مخطوطات كوبريلي » ج ١ ، ص ٤٩٣ ، « فهرس مخطوطات الطب الإسلامي » رقم ٣ .

(شكل رقم ٧) . وأما حرد متن نسخة كتاب « علم الساعات والعمل بها » (شكل رقم ٨) ، التي نسخها بيلك بن عبد الله القَبْجاقي المتوفَّى (١٢٨٠) - فإن الناسخ قد أرّخ فيه للنسخة طبقًا للتقويم الهجري وكذا للتقويم الإسكندري ، وكذلك نجد في مخطوطة كوبريلي رقم ٩٧٨ (شكل رقم ٩) أن الناسخ قد كتب ملاحظات عن المؤلِّف وعن مراحل تحرير النّص الأصلي .

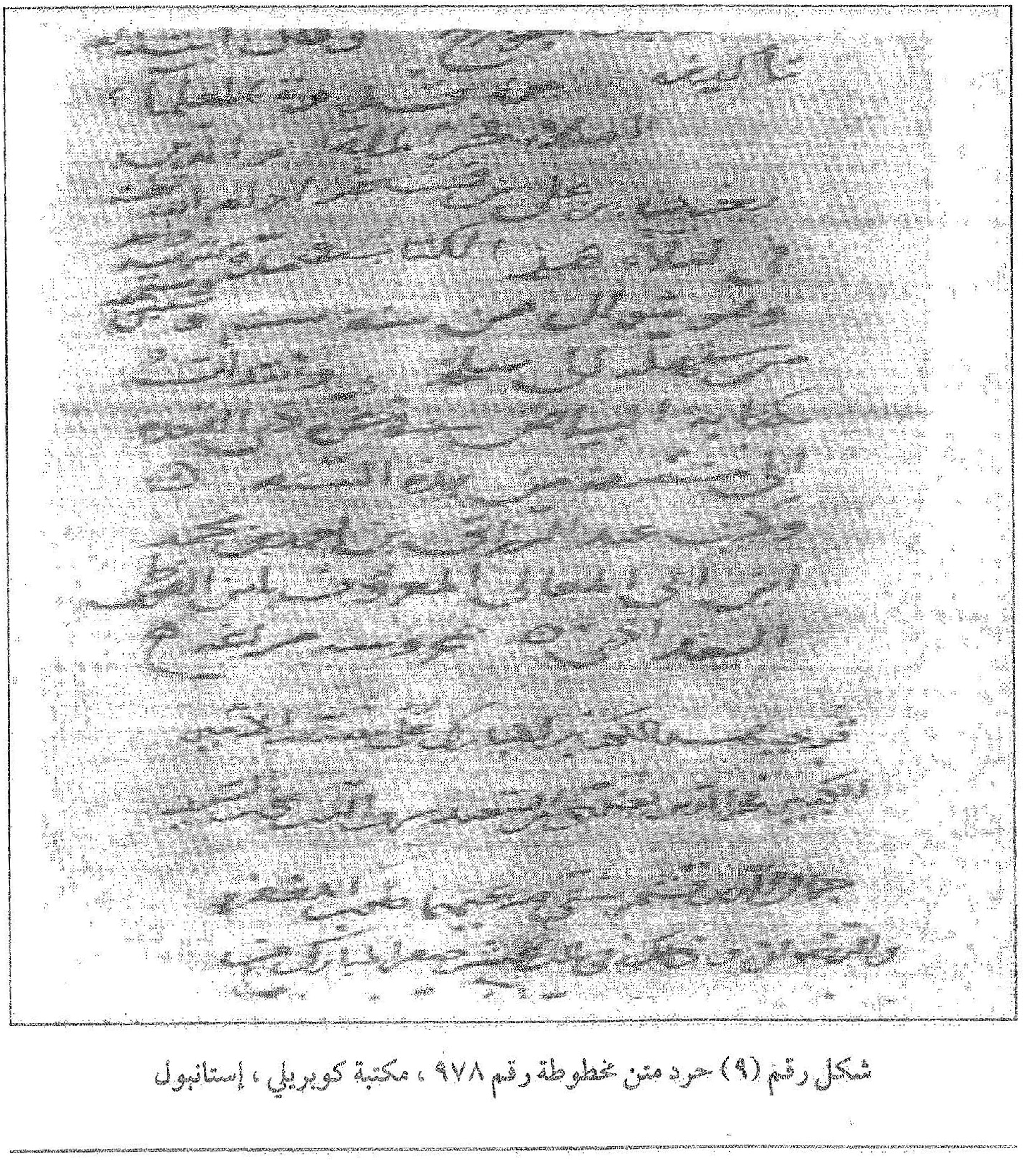

شكل رقم (٩) حرد متن مخطوطة رقم ٩٧٨ ، مكتبة كوبريلي ، إستانبول

وقد تضمنت بعضُ حُرود المتن في تلك الفترة ذكرَ النسخة الأصلية التي بخط المؤلف ، أو النسخة التي نُقلت من نسخة المؤلف حسبما أورد النُّسّاخ ، إضافة إلى عدِّها إجازة قراءة أمام المؤلِّف . وغالبًا ما يتم تحديد مكان النَّسخ ، وهذا بدوره يسمح بأن نثبت أن كثيرًا من النُّسخ قد تم نسخها في مدارس . ويمكن القول بأن صياغة حرود المتن قد وصلت في نهاية هذا القرن (السابع الهجري) إلى أوج ازدهارها ، وعليه فإن الفترة التالية لم تحمل أية تغيرات .

وفي فترة ما بعد ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م نجد أن بعض حرود المتن ربما تكون قد تطوّرت عنها في القرن الذي قبله (السابع) ، وسوف نذكر في ما يلي نماذج لحرود المتن في هذه الفترة .

٣١ - « خلاصة الذهب المسبوك المختصر من سِير الملوك » لابن الساعاتي الأربلي[١] ، المتوفَّى (٧١٧هـ / ١٣١٧م) ، مخطوطة رقم ١٠٧٨ ، مكتبة كوبريلي بإستانبول :

« تم الكتاب ... على يد ولد مؤلِّفه إبراهيم ومؤلِّفه الصدر الصاحب ... بدر الدين عبد الرحمن ، يعرف بابن قنينو الأربلي ... وتم نسخها في الليلة المسفِر صباحُها عن يوم السبت حادي عشر من رمضان المعظّم سنة أثنتي عشرة وسبعمائة ... كُتب برسم الخزانة العلية المولوية الملكية الناصرية ... عمر المولى السلطان الشهيد الملك المنصور » .

٣٢ - « الكتاب في العربية »[٢] لسيبويه ، المتوفَّى ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م ، مخطوطة رقم ١ / ١٥٠٠ ، مكتبة كوبريلي بإستانبول :

(١) فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي ، ج١ ، ص ٥٤٩.

(٢) تاريخ الأدب العربي (S.I) ص ١٦٠ ، فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي ، ج ٢ ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

« تم نسخ كتاب سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قُنْبُر ، في السبت سادس عشر المحرم من شهور سنة تسع وعشرين وسبعمائة بحلب المحروسة من الشام ، على يد العبد ... أحمد بن إبراهيم بن داود الحنفي ، شاهدت على الأصل ما صورته : فرغنا من هذا الكتاب يوم الأحد لعشر خلون من صفر سنة سبع وثلاثمائة بمكة ، بخطّ محمد بن أحمد علي القاشاني ، وعليه إجازة الشيخ أبي علي الفارسي ، وصورته : دارست أنا عليّ أحمد بن محمود المرزوقي هذا الكتاب من أوله بدروس ، وكتب الحسن بن أحمد الفارسي بخطّه في رجب سنة خمس وستّين وثلاثمائة .

٣٣ - « تفسير القرآن » (١) لعزّ الدين بن عبد السلام السلمي ، المتوفّى (٦٦٠هـ / ١٢٦٢م) ، مخطوط رقم ١٥ ، مكتبه Aksek Yegen Mehmed :

« كتبه مع ما عليه من الحواشي من خطّ مصنّفه علي بن أيوب بن منصور المقدسي في مدة آخرها في العشر الأواخر من شهر جُمادى الأولى عام ٧٣٤ ببيت المقدس وبدمشق » .

٣٤ - « شرح القِسْطاس في المنطق » (٢) ، مخطوطة رقم ٢٤٥٠ ، مكتبة (Çorum) :

« اتفق الفراغ من تسويده على يد يعقوب بن حميد الرُّومي ، وذلك بتاريخ يوم الثلاثاء من شهر ربيع الآخِر سنة ثمانين وسبعمائة . بدأت كتابته في مدينة أصفهان في المدرسة الرشيدية ، من نسخة صدر الدّين المشهور بصدر ترك ، وأتممت في بلدة سلطانية ، من نسخة مولانا نور الدّين الشّيرازي في الرّواية المنسوبة إلى الشيخ عز الدين المشتهر ببابا حاجي السّاوي » .

(١) رمضان ششن ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٨ .

(٢) رمضان ششن ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

٣٥ - « المرتجل في شرح الجمل للجرجاني » [١] لابن الخشَّاب ، المتوفَّى ٥٦٧ هـ/ ١١٧٢م ، مخطوطة رقم ١٤٨٥ ، مكتبة كوبريلي بإستانبول :

« بلغ من أول النُّسخة التي نسخت منها هذه النُّسخة العبد ... الحسن ابن علي بن أبي طالب ... في يوم الاثنين لأربع ليال خلون من محرم من سنة عشر وستمائة ... صورة خطّ الشيخ ... على أصل النُّسخة التي نقلت منها : قرأ عليَّ هذا التعليق مِن إملائه على شرح الجمل ... قراءة ضبط وتصحيح وإصلاح الشيخ ... أبو العباس أحمد بن هبة الله بن العلاء البغدادي ... في مدة آخرها يوم الأحد سابع جمادى الآخِر سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة وهي ملك الفقير ... أبي الفداء إسماعيل بن ... أبي البركات جعفر بن أبي الفداء إسماعيل ... وهي خطّ أقلّ عَبيد الله ... أبي الفرج حسن بن أبي سالم ابن أبي الفرج » .

٣٦ - « تحرير أصول الهندسة لإقليدس » [٢] للطُّوسي ، المتوفَّى (٦٧٢هـ / ١٢٧٤م) ، مخطوطة رقم (٢٨٧ - ٢١٨) ٤ / ٩٢٧ ، مكتبة كوبريلي بإستانبول :

« تم تحريرًا لمطالعتي في المدرسة السُّلطانية في البلدة المحفوظة سمرقند لواليها السلطان أُلُغ بيك بن أمير شاه بن أمير تيمور كوركان ... وقت الضَّحْوة الصُّغْرى يوم الخميس إلى ابتداء وقت المغرب من أول المقالة الحادية عشرة تحريرًا وتشكيلًا ، على يد العبد ... بخشايش بن الشيخ بهاء الدين المَلَطي في غرّة شهر ... سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة » .

(١) فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي ، ج ٢ ، ص ١٦١ - ١٦٢ .
(٢) فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي ، ج ٢ ، ص ٤٦١.

٣٧ - « شرح اللُّباب في النحو »[١] لمصنفك ، المتوفَّى (٨٧٥ هـ / ١٤٧٠)، مخطوطة رقم ١٤٩٤ ، مكتبة كوبريلي بإستانبول :

« ولقد اتفق تلخيص هذا الشرح ... ونقله من السَّواد إلى البياض بظاهر مدينة قونية ، بوادي مرام ... وتيسّر إتمامه يوم الجمعة وهو الثامن والعشرون من شهر الله المبارك رمضان ... سنة تسع وخمسين وثمانمائة بإستانبول ، وقد كان إتمام تأليفه وتسويده بدار السلطنة هَراة في تاسع شعبان لسنة تسع وعشرين وثمانمائة ، وأنا مؤلّفه الفقير ... علي بن مجد الدين بن محمد بن مسعود بن محمود الشاهرودي البِسْطامي ».

٣٨ - « مناظرات مع علماء بُخارَى »[٢] لفخر الدين الرازي ، المتوفَّى (٦٠٦ هـ / ١٢٠٩م) ، مخطوطة رقم ١٣ / ١٦٠٢ ، مكتبة كوبريلي بإستانبول :

« وقع الفراغ من إتمامه في أواسط جمادى الآخِر سنة ثمان وأربعين وتسعمائة ... وقع نقله عن نسخة كُتبت في سلخ محرم الحرام سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة ، وتلك النُّسخة قد نقلت عن نسخة كُتِبت في ثلاث وثلاثين وستّمائة ، وكان كتابة هذه النُّسخة بعد وفاة الإمام فخر الدين الرازي المشهور بابن الخطيب الذي جاء في المائة الخامسة ، وتوفي يوم عيد الفطر سنة ستٍّ وستّمائة ، ودُفن بهراة المحروسة ».

٣٩ - « الرسالة الفَتْحيّة في الهيئة » لعلي القُوشَجِي ، المتوفَّى (٨٧٩ هـ / ١٤٧٤م) ، مخطوطة رقم (f-iv-v) ١ / ٢٧٣٣ ، مكتبة أيا صوفيا بإستانبول :

(١) فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي ، ج ٢ ، ص ١٦٦.
(٢) فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي ، ج ٢ ، ص ٣١٥.

«فرغ العبد المؤلف من تحريره في أواسط ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وثمانمائة، كتب هذه الأسطر ... الفقير الحقير علي بن محمد القوشجي، وهو مؤلف هذه النسخة وكاتبها يوم ظفر السلطان الأعظم أبو الفتح سلطان محمد خان ... في نواحي ترجان في مقام أوت بيلكي قرب قباسوري».

٤٤٠ - «رَيْحانة الرُّوح» لتقيّ الدين الرّاصد، المتوفَّى (٩٩٣ هـ/ ١٥٨٥م)، مخطوطة رقم ٢٠٣٣٣، مكتبة أفندي بإستانبول:

«وانتهى ما قصدته إلى تحريره ... وقال ذلك بلسانه، ورَقَمه ببنانه، الفقير إلى رحمة الله ربه الغفور تقيُّ الدين محمد بن المعروف بن أحمد بن محمد ابن أحمد بن يوسف ابن الأمير ناصر الدين منكوبرس ابن الأمير ناصح الدين خُمارتكين أسد الغريين وأمير المجاهدين ... عام خمسة وسبعين وتسعمائة، ختمت بالخير، وذلك بقرية الفندق تابع قضاة نابلس، في ١٣ شهر ربيع الأول بعد السعي في تحريره وإقامة البرهان عليه خمسة أعوام كوامل ...».

٤٤١ - «كتاب الاستيعاب»[(١)] لابن عبد البر، المتوفَّى (٤٦٣ هـ/ ١٠٧١م)، مخطوطة رقم ٢٤٠، مكتبة كوبريلي بإستانبول:

«وقع الفراغ لناسخه على يد ... يوسف بن محمد الدزفولي ساكن بغداد، في تاريخ غرّة جمادى الآخر سنة أربع وألف من نسخة بخطّ عبد الواحد، وعبد الواحد نقل من نسخة بخطّ محمد بن المبارك القلّاس كان انتسخه لنفسه، وكتب في آخره هذا الفضل ابن القلّاس: كنت كتبت هذا الديوان سنة أربع وسبعين، وقرأته بقرطبة أيضًا على الفقيه ابن أبي العافية

(١) تاريخ الأدب العربي (S.I) ص ٦٢٨، فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي، ج ٢، ص ١٢٩.

هذا من يده إلى يدي ، وقال لي : ناوَلَنيه الفقيه الشيخ أبو عمر بن عبد البر مؤلّفه من يده إلى يدي ، ووهبه إليَّ ، وهو أصله العتيق ، وأكثره بخطّه » .

٤٢ - « الطبقات السَّنية في تراجم الحنفية »[١] للغَزِّي ، المتوفَّى (١٠١٠هـ/ ١٦٠١ م) ، مخطوطة رقم ١١١٣ ، مكتبة كوبريلي بإستانبول :

« وكان الفراغ من تعليق هذه النُّسخة نقلًا من مسوّدة المؤلِّف بخطّه مع إثبات ما ألحقه على هامش نسخته والإعراض عما رجع عنه مع مزيد التأمُّل في يوم الاثنين المبارك سابع شهر رمضان ... من شهور سنة ثلاثين وألف ... على يد الفقير ... علي بن الشيخ أحمد بن الشيخ علي الدملاصي بلدًا الشافعي مذهبًا » .

٤٣ - « خزانة الأدب »[٢] لعبد القادر البغدادي ، المتوفَّى (١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢م) ، المجلَّد الثالث ، مخطوطة رقم ٣٠٥ / ٢ ، مكتبة كوبريلي بإستانبول :

« وكان ابتداء التأليف بمصر المحروسة في غرّة شعبان من سنة ثلاث وسبعين وألف ، وانتهاؤه في ليلة الثلاثاء الثاني والعشرين من جمادى الآخِرة من سنة تسع وسبعين ، فتكون مدة التأليف ست سنين مع ما تخلّل في انتهائها من العطلة بالرحلة ، فإني لما وصلت إلى شرح الشاهد التاسع والستين بعد الستّمائة سافرت إلى قسطنطينية في الثامن عشر من ذي القعدة من سنة سبع وسبعين ، ولم يتّفق لي أن أشرح شيئًا إلى أن دخلت مصر

(١) فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي ، ج ٢ ، ص ٦٥٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٥ ، عبد القادر بن عمر البغدادي :
"N. Hoca nin eserlernin Istanbul daki yazmalan" Sarkiyat Mecmuas IV p. 125.

المحروسة في اليوم السابع من ربيع الأول من العام القابل ، ثم شرعت في ربيع الآخِر ، وقد يسّر الله التّمام وحُسن الختام ... قاله بفمه وزَبَرَه بقلمه مؤلِّفه ... عبد القادر بن عمر البغدادي » .

وتجدر الإشارة إلى أنه بالإضافة إلى المعلومات العادية التي توجد في حرد المتن (مثل اسم الناسخ ، وتاريخ النَّسخ ، ومكان النَّسخ) ، غالبًا ما يوجد وصف موجز لنسخة الأصل المستخدمة ، فقد يرتئي الناسخ أن يشير إلى أنه قد قام بإعادة ترتيب النص والشروح أو التعليقات التي بالحواشي . وقد يشير إلى مقابلة النَّص وتصحيحه ، ففي الجزء الثاني من مخطوطة مكتبة كوبريلي أشار الحرد إلى أن المؤلف والناسخ تقابلا في أماكن مختلفة ، وذكرا هذه الأماكن أيضًا .

وفي المخطوطة رقم ٢٠٣٣ ، مكتبة أسعد أفندي بإستانبول ، نجد في حرد المتن عناصر أخرى مهمّة عن المدة التي استغرقها تصنيف الكتاب ، أو عن حياة المؤلِّف . وعلى وجه الخصوص ذكر لنا هذا الحرد المدة الطويلة التي استغرقها تقيُّ الدين الرَّاصد في البحث لكي يحرّر هذا الكتاب ، وكذا نَسَبُ المؤلِّف الذي أفاد أنه من نسل ناصح الدين خُمارْتكِين ؛ أحد أمراء صلاح الدين ، المتوفَّى عام ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م ، وابنه ناصر الدين منكوبرس. وبمزيد من الإطناب نذكر مثالًا آخر جاء في حرد متن المخطوطة رقم ٢٧٣٣/١ في مكتبة أيا صوفيا بإستانبول ، يتضمّن الإشارة إلى تاريخ معركة أوت بيلكي ومكانها .

والمخطوطات المذكورة في الأمثلة التي ذكرناها حتى الآن مؤرَّخة طبقًا للتقويم الهجري ، لكنها اشتملت أيضًا في بعض الأحيان على تأريخ طبقًا لتقاويمَ أخرى كالتقويم الميلادي ، والإسكندري ، والبُخْتنَصّري ، والخَلْقي ،

واليَزْدَجِرْدي، والقِبْطي، وسنوات مرحلة الاثني عشر حيوانًا[1]. وعلى سبيل المثال يوجد في مخطوطة ٩٤٩١، مكتبة كوبريلي بإستانبول، تأريخ طبقًا للتقويم الإسكندري، ولكن يمكن أن نذكر أيضًا ما يأتي:

٤٤ - «التَّذْكِرة الهَرَوِيّة»[2] لأبي الحسن الهروي، المتوفَّى ٦١١ هـ/ ١٢١٤، مخطوطة رقم ٥٠٠٩، مكتبة يوسف أغا بإستانبول:

«وافق الفراغ من نسخها في الخامس عشر من كانون الثاني من سنة ألف وستّمائة وثمانين يونانية».

٤٥ - «كتاب ذو سيم في السماء»[3] مخطوطة رقم ١٥٧٤، مكتبة متحف آركه أولوجي بإستانبول:

«وافق الفراغ من نَسْخه اليوم المبارك الثامن عشر من جُمادى الآخرة سنة ٦٦٨ للهجرة، الموافق للتاسع عشر من شهر أمشير سنة الطقلاديانوس الملك».

٤٦ - «جوامع الإسكندرانيين»[4]، مخطوطة رقم ١٧٥٩، مكتبة مغنيسا:

«تم جوامع الإسكندرانيين لكتاب جالينوس في فرق الطب على الشرح والتلخيص، ترجمة حنين بن إسحاق، وكتب سلام بن صالح المعلم

---

(١) انظر L. Bazin «ملاحظات على الأسماء التركية لتقويم الاثني عشر حيوانًا في الاستخدام الفهرسي» Mélanges Masse Teheran 1963 p. 21 - 30.

(٢) تاريخ الأدب العربي (I) ص ٤٧٨، (S.I) ص ٨٧٩، رمضان ششن، المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٤.

(٣) رمضان ششن، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٩.

(٤) A Dietrich Medicialia, Gottingen 1966 p. 32 - 38.

بشفر عام في يوم الخميس سادس عشرين نيسان سنة ست وألف وسبعمائة وثمانية وأربعين لآدم ».

٤٧ - « جريدة الدرر وخريدة الفكر » لتقيّ الدين الرَّاصد ، مخطوطة رقم (f-22v°-59) ٢ / ١٩٧٦ ، مكتبة أسعد أفندي :

« هذا آخر ما قصدته وعمدت إليه من قيد شرائد الفوائد عجلًا ، راجيًا ممن يطالع هذه العجالة أن يسامح في ما زلّ به قَدَمُ التحرير .... وأنا العبد الفقير تقيّ الدين بن معروف ، وذلك في شهر المبارك أول الأيام العشر من شهر عربي ، يوافق ماضيه شهر أمشير القبطي عام ألف وثمانمائة وثلاثة وتسعين مما مضى من التاريخ الرومي ».

٤٨ - « تحرير المَجَسْطِي » لنصير الدين الطوسي ، المتوفَّى ٦٧٢هـ ، مخطوطة رقم ٧٢٧ ، مكتبة سليم أغا بإستانبول :

« تاريخ تنميق الكتاب بالسَّنة الهجرية ١٠٧٦ ، بالسَّنة الرُّومية ١٩٧٦ ، بالسَّنة الجلالية ٥٨٧ ، بالسَّنة اليزدجردية ١٠٣٤ ».

هذا وقد أرّخ المسعودي لإتمام كتابه بالعديد من التقاويم ، هي : الهجري ، والبُخْتنَصّري ، والإسكندري ، والأردشيري ، واليزدجردي[١] ، وبالطريقة نفسها أشارت المخطوطة رقم ٧٢٧ ، مكتبة سليمان أغا بإستانبول ، إلى التقويم الهجري ، والإسكندري ، واليزدجردي ، والجلالي . وفي النهاية نشير إلى التأريخ بالأبجدية والتأريخ بالرموز أو حساب الجُمَّل اللذَيْن احتلّا مكانة كبيرة في العصر العثماني :

---

(١) المسعودي ، كتاب التنبيه والإشراف De Goeje (ed) ، ص ٤٠١ .

٤٩ - « مختار الأغاني »[١] لابن منظور ، المتوفَّى ٧١١ هـ / ١٣١١م ، المجلَّد الثالث ، مخطوطة رقم ١٣٨٣ ، مكتبة كوبريلي بإستانبول:

« تم الجزء الثالث من مختار الأغاني ... فرغ من تعليقه جامِعُه عبد الله محمد بن المكرّم الأنصاري ، في سنة ١ ط دهعخ (٦٨٩) » .

هذا وتحمل المخطوطات رقم ١٣٨٤ و ١٣٨٥ و ١٣٨٦ من مكتبة كوبريلي التواريخ : ٦٧٩ ، ٦٧٦ ، ٦٩٨ على الترتيب بالتقويم الأبجدي :

« ج د بعخ » = له وبغج « دبغج » .

٥٠ - « مسألة واردة على السموأل وجوابه بسبب دخوله دين الإسلام »[٢] للسموأل المغربي ، المتوفَّى (٥٧٠هـ / ١١٧٤م) ، مخطوطة رقم (٣١٣ - f0305) ٣١٤١ ، مكتبة فاتح بإستانبول :

« كُتبت سنة خصف . نقله أحوج خلق الله إليه ابن الشريف الكِرْماني في بلدة موصل » .

٥١ - « شرح الملخَّص في الهيئة » لقاضي زاده الرومي ، المتوفَّى (٨٣٥ هـ / ١٤٣٢) ، مخطوطة رقم ٣٤٠٣ ، مكتبة فاتح بإستانبول :

« قد تم هذا الكتاب في اليوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شعبان سنة تسع وثلاثين وثمانمائة ، على يد العبد علي نظام ... مؤلّفه موسى بن محمد بن محمود المعروف بقاضي زاده الرومي ... لمؤلّفه في بيان تأريخ التأليف : سئلت عن تاريخه قلت لهم : أرخوا (؟) » .

---

(١) فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي ، ج ٢ ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٢) رمضان ششن ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

٥٢ - « فاتح الفَتْحية » لغلام سنان ، المتوفَّى (٩١٢ هـ / ١٥٠٦م) ، مخطوطة رقم ٣ / ٥٣٩٦ ، مكتبة فاتح بإستانبول :

« لما كان غرَضي من عرْضي أن أمدح السلطان حمدًا جعل التاريخ حل المحمدية لسلطاننا أبدًا (٨٩٠) » .

ونشرع في تسجيل حرود للمتن باللُّغات الفارسية والتُّركية والأُرْدية كما تشهد لها الأمثلة التالية :

٥٣ - « نهج الفراديس » (١) لمحمود بن علي السرائي البلغاري الكرداري ، مخطوطة رقم ٨٧٩ ، مكتبة يني جميل بإستانبول :

« بو كتاب تمام بولدي تاريخ يتي يوز التمش بيردا شهر الله المبارك جمادى الأولى اي نينك التنج كونيندا أردي كيك كتابتي قوشلق وختيندا إتمام بولدي تقي بو كتاب نينك مصنفي مذكوريكشنبه كون دار البقاغة رحلت قيلدي ... الكاتب العاصي الجامي الراجي إلى رحمة ربه اللطيف على يد عبد الضعيف ... ملقّب باسم محمد بن محمد خسرو الخوارزمي » .

أيـذ بيردي توفيـق بوبرقـج كلام   اوروج ابي الجـر اما بولدي تمـام
تاريخ بيتي يوز اون اوج ايردي يبيلي   سـلام عليـكم سـلام

٥٤ - « دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة » (٢) لعبد القادر الجرجاني ، مخطوطة رقم ١٤١٩ ، مكتبة كوبريلي بإستانبول :

---

(١) انظر : - Z.V togan "Kharizm de yazilmus eski turkce eserler" tm II 1926 p. 320 - 332-333 .

(٢) فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي ، ج٢ ، ص ١٣٠ .

نوشت حامدي شاعر اندر إستانبول — بأمر شاه كتاب دلائل الإعجاز
جومي نوست شب وروز از خداميخاست — مزيد دولت سلطان زبعد هيج نماز
تمام كرد بسلخ جمادى الأولى — همي همت اين بادشاه بنده نواز
بختم نسخة زحق شاه را بتاريخش — بودبعلم ويكسي كملال عمردراز (٨٦٧)

٥٥ - « النائلية في الأعمال الغيبية » لأحمد النائلي ، المتوفَّى ١٢٤١ هـ / ١٨٢٨م ، مخطوطة رقم ٢ / ٨ ، مكتبة كاندلي بإستانبول :

« قد كان الختام بعون ربنا ذي الجلال والإكرام على يد جامعه ... أحمد النائلي بن مصطفى بن خليل بن عبد الكريم اقحصار كيوه وي ضحوة الأربعاء يوم ٤ من جمادى الأولى سنة غرامج (١٢٤٤) من هجرة من سنة الشريف سج (٦٣) في التبليغ والرسالة كج (٢٣) ، في مكة المكرمة ١٣ في المدينة المنورة » .

٥٦ - « درة التاج لغرّة الديباج »[١] لقطب الدين الشّيرازي ، مخطوطة رقم ٨٦٧ ، مكتبة كوبريلي بإستانبول :

« استنسخه مؤلّفه تحفة لعالي خزانة كتب الأمير الكبير العالم العادل المؤيّد المظهر بتيمر الملك ظهير السلطان ... تمام شد كتاب درة التاج لغرّة البباج درروز جهاز شنبه نهم ماه ذي الحجة سال هفصد وبنج از هجرت نبوي بخطّ مؤلّفه » .

٥٧ - « سفر تام إلى فرنسا »[٢] ليكرمي سكز محمد ، المتوفَّى (١١٤٥هـ / ١٧٣٢م) ، الجزء الثاني ، مخطوطة رقم ٤ / ٢٠٢ ، مكتبة كوبريلي بإستانبول :

(١) تاريخ الأدب العربي (S.II) ص ٢١٢ ، فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي ، ج ١ ، ص ٤٢٥ .
(٢) فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي ، ج ٢ ، ص ٥١٢ .

« قد وقع الفراغ من تحرير هذا التقرير سنة خمسة وثلاثين ومائة وألف بيك يوز اوتوزبش شهر جمادى الآخِر في يوم ٢٩ سنة ١١٣٥ ... الحمد لله على دين الإسلام. تحريرًا في شهر ربيع الأول سنة خمس وثلاثين ومائة وألف، وعبد الفقير الحقير صاحب المجموعة اللطيف يكرمي سكز أفندي الجي فرانجه أزتأليف مزبور، تم التقريرات ».

٥٨ - « حديقة الوزراء »[1] لعثمان زاد أحمد تائب، المتوفَّى (١١٣٦هـ / ١٧٢٣)، الجزء الثاني، مخطوطة رقم ٢٣٢، مكتبة كوبريلي بإستانبول:

« حديقة الوزراء مصر قاضيسي أولوب مصر ده وفات أيدن عثمان زاده مدرس وهبي أفندي يه وهبي أفندي دخي مكتوبجي عزت بكه اهدا وعزت بكلدن النوب بيك يوز اوتوز يلدي ربيع الآخرك يكرمي برنجي كوني تحريره مباشرت اولنوب جمادى الأولك اون اوجنجي كوني تكميل اولنمشدر ».

وهكذا نلحظ أول ظهور لحرود المتن باللغة الفارسية في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي على الرغم من أن هناك أعمالًا قد حررت باللُّغة نفسها منذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي.

وفي ما يخصُّ اللُّغة التركية فإن النصوص قد كُتبت منذ القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، ثم كتبت حرود المتن بالتركية في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، وفي بعض الأحيان نقابل صيغًا ملغزة لتأريخ حرود المتن مثل التي اخترعها أحمد بن كمال باشا (٩٤٠ هـ /

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٢٤.

١٥٣٣م) ، لكننا وجدنا أمثلة سابقة على هذا التاريخ تعود إلى بداية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي»[١].

وها هي بعض الأمثلة للألغاز التي يصعب ترجمتها :

٥٩ - « رسائل إخوان الصفا » ، مخطوطة رقم ١٠٦٢ ، مكتبة RevanKoku بإستانبول (شكل رقم ١٠) :

« تمت الرسالة في اليوم السابع من الثُّلث الأول من الشهر الخامس من النصف الثاني من العام السابع من العشر الثاني من القرن الثامن (٧ ذو القعدة ٧١٧) » .

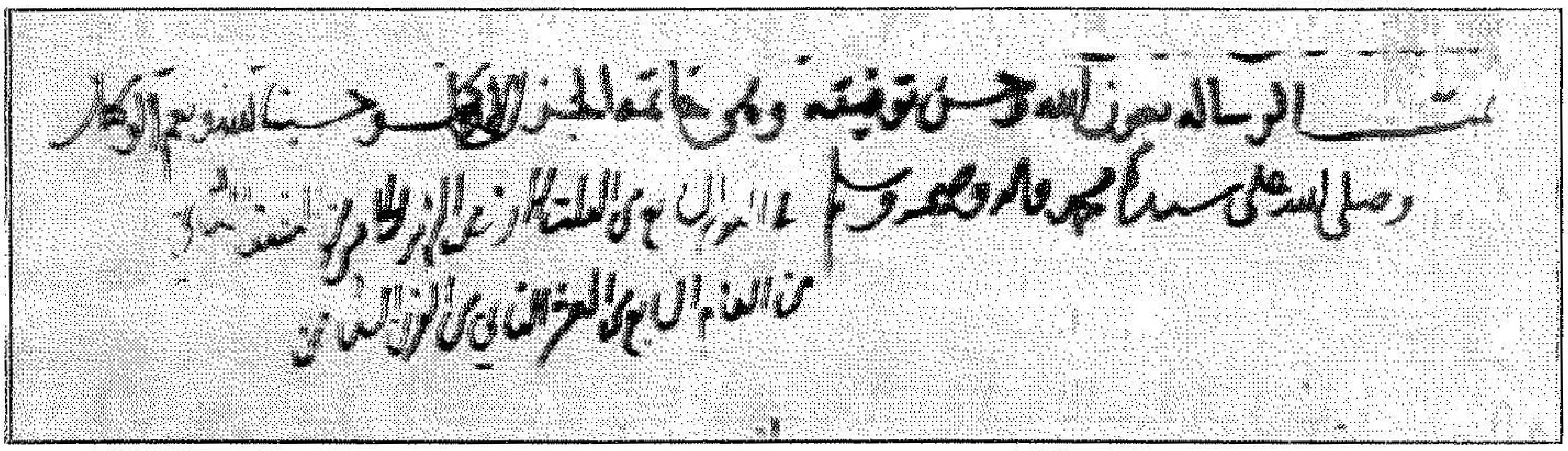

شكل رقم (١٠) حرد متن مخطوطة رقم ١٠٦٢ ، مكتبة طوبقبوسراي ، إستانبول

٦٠ - « المقامات »[٢] للحريري ، المتوفَّى (٥١٦هـ / ١١٢٢م) ، مكتبة كوبريلي بإستانبول :

« تم الكتاب في يوم الثلاثاء المبارك وهو العشر الرابع من الثلث الأول من السُّدس الثاني من النصف الأول من العشر التاسع من العشر الخامس من العشر الأول من العشر الثاني من الهجرة ، بقلم الحقير أحمد بن علي الصالحي » .

(١) انظر E. Cosan, Islam ilmleri. dergisi. II 1975 ص ٥٥ - ٦٥ .

(٢) فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي ، ج ٢ ، ص ١١٤ .

٦١ - « اللُّمع في علم الحساب » لسبط الماrديني ، المتوفَّى (٩١٢ هـ / ١٥٠٦م) ، مخطوطة (٤١ - F. 24 V) ٢ / ٢٣٢٦ ، مكتبة ولي الدين أفندي بإستانبول :

« قد وقع الفراغ من تحرير هذه الرسالة المسمّاة باللُّمع ، في يوم الثلاثاء هو العُشر الثاني من الثُّلث الأول من السُّدس السادس من النصف الثاني من العام الثاني من العُشر الثاني من العقد الأول من الألف الثاني ... وأنا الفقير أحمد » .

٦٢ - « مفتوح في الحساب » لإبراهيم كامل بن علي ، مخطوطة رقم ٦٠٦ ، مكتبة (أمانة خزينة) بإستانبول :

« تم هذا الكتاب بعناية الملك الوهّاب في تاريخ :

تاريخ أولور جيقارسه إتمامنه كتابك سدس نصف عشري بردور أفتاب » .

٦٣ - « تفسير آية الكرسي »[1] لمحمد أسعد أفندي ، المتوفَّى (١١٤٣هـ / ١٧٣٠م) ، الجزء الثاني ، مخطوطة رقم ٢ / ١٩ ، مكتبة كوبريلي بإستانبول :

« وقد كمل ما نمقته في هذه الكرّاسة بالاعتماد ... في ابتداء جمادى الأولى ... كما احتوت الآحاد والعشرات والمئات المتجمّعة من أجزاء أجزاء الأجزاء بعد مضيّ الأسداس الأربعة من جزء من الأجزاء التي حوت كلّها تلك الغايات ، وهي غاية سنين الهجرة المعدودة بالمئات العشرة المتقدّمة على المائة التي عَقِيَها » .

٦٤ - « شرح نظير القصيدة البديعة للأنقراوي »[2] لمجهول ، الجزء الثاني ، مخطوطة رقم ٢٨١ ، مكتبة كوبريلي بإستانبول :

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤١٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٤٧ .

ثمن النسخة :

داخل مصر : عشرة جنيهات .

خارج مصر : خمسة دولارات أميركية .

(شاملة نفقات البريد) .

« قد وقع الشروع في تأليف إفاضة الأنبوب في أولى الأولى لأول الأول من ثانية الخميس الرابع من العشر الأول من الألف الثاني ... والفراغ منه في الثُّلث الأول من أيام قولي يقيني عفا عنه الباقي » .

وفي الورقة ٦٠ - ٧٢ من هذه المخطوطة « لأنبوب البلاغة » للمؤلف تمت هكذا .

« قد تمت هذه المقدمة في يد مؤلفها خضر بن محمد الأماسي ... قد وقع الشروع في تأليف هذه المقدمة في سابع العاشر من ثاني عشر عاشرة النصف الأخير من الخميس الثالث من العُشر الأول من الألف بعد الألف ... قد اتّفق بدأت تأليف الأنبوب في سابعة عشر الشهر الأخير من أنبوب بلا ألف بألف ، ونهايته في خامسة عاشوراء بألف » .

ومن حُسن الحظ أن نجد تقييدًا على هامش إحدى النُّسَخ يشرح التقويم بالألغاز .

٦٨ - « الترتيب الجميل في شرح التركيب الجليل للتفتازاني »[1] لدباغ زاده ، المتوفَّى (١١١٤هـ / ١٧٠٢م) ، الجزء الثالث ، مخطوطة رقم ٢ / ٦٠٧ ، مكتبة كوبريلي بإستانبول :

« اتفق الشروع لترتيب جميل في شرح التركيب الجليل في السُّبع السادس من الرُّبع الثالث من السُّدس الرابع ، ووافق تبييضه أيضًا في السُّبع الثالث من الرُّبع الثاني من السُّدس الخامس كلا سُدسين من الرُّبع الثاني من العُشر الخامس من العُشر العاشر بعد الألف » .

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٨٨ .

« قوله في السُّبع السادس يعني : يومَ الجمعة ؛ لأنه واحد من السبعة أيام الأسبوع سادس من الأحد . من الرُّبع الثالث يعني : الأسبوع الثالث من الشهر . من السُّدس الرابع يعني : الشهر الرابع من النصف الأخير من السنة وهو شوال . ووافق تبييضه أيضًا في السُّبع الثالث يعني : يوم الثلاثاء . من الرُّبع الثاني يعني : الأسبوع الثاني من الشهر . من السُّدس الخامس يعني : الشهر الخامس من النصف الأخير من السنة وهو ذو القعدة . وكلا السُّدسين يعني : شهر شوال وذو القعدة . من النصف الثاني يعني : من السنة . كما عرفت العُشر الخامس يعني : السنة الخامسة . من العُشر العاشر يعني : العُشر العاشر بعد الألف .

فإن قلت : إنه في هذا التاريخ ما يكون تاريخًا لعشرة بعد الألف لأنه عُشر العاشر بعد الألف يتمكّن من الآحاد ؛ إذ العُشر الخامس لا يؤخذ هذا من العُشر العاشر بعد العُشر العاشر من الهجرة النبوية ، فعلى هذا يكون إفراد الأول عشرات والثاني عشرات عشرات » .

وهذا يشير إلى أن عمل المسوّدة تمّ في الجمعة في الأسبوع الثالث من شوال ١٠٩٥هـ ، تمت النُّسخة النهائية في يوم الأربعاء من الأسبوع الثاني من ذي القعدة للسنة نفسها .

وفي سيرة علاء الدين علي بن محمد الطرابلسي ، المتوفَّى (١٠٣٢ هـ / ١٦٢٣) ذكر المحبّي حردًا للمتن كان قد حرّره الطرابلسي لأحد أعماله وجاء فيه :

« وقد انتهى في التاريخ الموافق للخميس الخامس من السُّدس الرابع من الثُّلث الثالث من الرُّبع الثاني من العُشر العاشر من العُشر التاسع من العُشر العاشر من الهجرة النبوية » .

ويعطي التفسير التالي :

« انتهى في اليوم العشرين من جمادى الآخِر لسنة تسعين وتسعمائة ؛ لأن المائة العاشرة عاشر أعشار الألف وتاسع أعشار المائة من الأحد والثمانين إلى التسعين ، وعاشر العشرة هو سنة تسعين ، والثُّلث الثالث من الرُّبع الثاني هو العُشر السادس من السنة وهو جمادى الآخرة ، ورابع أسداسه من ستة عشر إلى عشرين ، وخامس السُّدس هو العشرون »[1] .

*

استخدم المسلمون التأريخ في وقت مبكر جدًّا في الحضارة الإسلامية ، ويظهر هذا جليًّا في سرعة اختيار المسلمين لتقويم خاص طبقًا للأعوام الهجرية . وقديمًا ظهرت حرود المتن (اسم الناسخ والتاريخ) في المعاهدات والرسائل ، ثم ما لبثت المخطوطات أن أخذت الطريقة نفسها . على أن من الضروري أن ننظر بحذر إلى حرود المتن الموجودة على المصاحف التي ترجع إلى القرنين الأول والثاني الهجريين . هذا وقد حُفظت لنا مخطوطات من القرن الثالث الهجري تشتمل على حرود متن أصلية . وابتداء من هذه الحقبة بدأت الشواهد التي وصلت إلينا تزداد شيئًا فشيئًا حتى اكتسبت - على وجه التحديد - بمرور الوقت كثرة التفاصيل في ما يخصُّ تاريخ النسخ ومكانه ، وأحوال النُّسخة ، وطبيعة التأليف ومراحله ، وشيئًا عن المؤلف أحيانًا .

وأصبحت حرود المتن مصدرًا (مرجعًا) مهمًّا في التاريخ والأدب والعلوم ، وبشكل أعم في الحضارة الإسلامية ، وقد أدى إدخال المطبعة إلى العالم الإسلامي في بداية القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي إلى تقليل الإنتاج المخطوط ، ومن ثَمَّ حرود المتن .

---

(١) خلاصه الأثر للمحبي ، ط. القاهرة ١٢٨٤هـ ، ٣/ ١٨٦ - ١٨٧ .